إستراتيجية الدولة العثمانية في منطقة الخليج العربي ١٨٦٩ _ ١٩١٤م

في إطار التنافس العثماني البريطاني على أقطار الخليج العربي

أ. د. رافت غنيمي الشيخ

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
عميد كلية الآداب الأسبق
مؤسس معهد الدراسات الآسيوية
جامعة الزقازيق

د. ناجي عبد الباسط هدهود

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
وكيل معهد الدراسات والبحوث الآسيوية
جامعة الزقازيق

د. محمود رمضان

مدير مركز الخليج
للبحوث والدراسات التاريخية
خبير الآثار والعمارة الإسلامية



استراتيجية الدولة العثمانية

في منطقة الخليج العربي



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.
- يسعى المركز إلى تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة فى ما يصدر عن المركز تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

◆ ◈ ◆

رئيس المركز

على عبد الحميد



مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين – عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات – القاهرة

تليفاكس: 33448368 (00202)

www.alhdara-alarabia.com

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

استراتيجية الدولة العثمانية
في منطقة الخليج العربي

١٨٦٩ - ١٩١٤م

في إطار التنافس العثماني البريطاني
على أقطار الخليج العربي

تأليف

أ. د. رأفت غنيمي الشيخ

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
عميد كلية الآداب الأسبق
مؤسس معهد الدراسات الآسيوية جامعة الزقازيق

د. ناجي عبد الباسط هدهود

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
وكيل معهد الدراسات والبحوث الآسيوية
جامعة الزقازيق

د. محمود رمضان

مدير مركز الخليج
للبحوث والدراسات التاريخية
خبير الآثار والعمارة الإسلامية



الكتـــاب: استراتيجية الدولة العثمانية
في منطقة الخليج العربي
١٨٦٩ - ١٩١٤م

المؤلف: أ. د. رأفت غنيمي الشيخ
د. ناجي عبد الباسط هدهود
د. محمود رمضان

النـــاشر: مركـــز الحضـــارة العربيـــة

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠١٤

الجمع والصف الإلكترونى: وحدة الحاسوب بالمركز
تصميم وجرافيك: محمد النوبي
011 11 83 503

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٢٠٣٨٨

الترقيم الدولي: 2-150-496-977-978

الشيخ، رأفت غنيمى.
رأفت غنيمى الشيخ: استراتيجية الدولة العثمانية فى منطقة الخليج العربى ١٨٦٩ - ١٩١٤م فى إطار التنافس العثمانى البريطانى على أقطار الخليج العربى.
ـ ط١. ـ الجيزة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، ٢٠١٣
٢٥٦ ص؛ ٢٤ سم
تدمك: ٢ ـ ١٥٠ ـ ٤٩٦ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨
١- شبة الجزيرة العربية ـ تاريخ ـ العصر العثمانى.
٢- الإمبراطورية العثمانية ـ شبة الجزيرة العربية.
أ- هدهود، ناجى عبد الباسط (مؤلف شارك).

إهداء

لصاحب السمو الشيخ الدكتور

سلطان محمد القاسمى

حاكم إمارة الشارقة

عضو المجلس الأعلى لإتحاد الإمارات العربية

تقديرًا وعرفانًا

لما قدمه ويقدمه لخدمة العلم والعلماء فى مصر ودولة الإمارات العربية المتحدة وخاصة رعايته لاتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة والجمعية التاريخية المصرية ودار الوثائق القومية فى القاهرة ، وكلية الزراعة جامعة القاهرة ، والمجمع العلمى المصرى وغير ذلك كثير.

داعين الله أن يمتعه بالصحة والسعادة

المؤلفون


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـة

الدولـة العثمانيـة "دولـة عثمانيـة مفتـرى عليها" هذا هو اسـم السـفر الكبيـر للمرحوم الأسـتاذ الدكتور عبد العزيز الشـناوي أسـتاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الأزهر، الـذي احتوت مجلداته الأربعة على تبيان دور الدولة العثمانية في نشـر الإسـلام والدفاع عن المسـلمين فـي أوروبا والأناضول وفي المشـرق العربي وفي المغرب العربـي أيضًا، بل وفي الجنوب العربي ضد الغزاة الأوربيين في تلك البقاع.

ولقد تعرضت الدولة العثمانية لاتهامات من بعض المؤرخين بأنها (اسـتعمرت واسـتغلت وأسـاءت إلى الشـعوب التى حكمتها)، وبلغ الأمر بالبعض بنسيان ما قامت به من إيجابيات لصالح المسـلمين وبلادهم في مواجهة الغزو والاسـتعمار الأوروبي، بداية من البرتغاليين ثم الأسبان، ثم الفرنسيين ثم الهولنديين وأخيرًا البريطانيين.

وحيـث إن لكل عهـد وحكم إيجابيته وسـلبياته، فإننا كمؤرخيـن لا يمكـن الوقوف عند السـلبيات ونبرزها ونتسـى الإيجابيات ونهملها.. ومن ثم فإننا نسـوق هذه الدراسـة عن الإسـتراتيجية العثمانيـة في منطقـة الخليج العربي لنشـير إلى ما قامت بـه الدولة العثمانية من خلال هذه الإسـتراتيجية من محاولات الوقوف أمام الأطماع الأوروبية في أقطار الخليج العربية اعتبارًا من القرن السـادس عشر حتى أوائل القرن العشرين الميلادي.

لقـد تطورت الدولة العثمانية منذ كانت إمارة في شـبه جزيـرة الأناضول بزعامة عثمان بـن أرطغـرل عام ١٢٩٩م، وتوسـعت في الأناضـول ثم في البلقان حتى وسـط أوروبا، ثم في أقطار الوطن العربي: العراق والشـام ومصر والحجاز وأقطار شـمال أفريقيا: الجزائر وليبيا (طرابلـس الغـرب) وتونس، وصارت قوة كبيرة يحسـب لها حسـابها عالميًـا. ولكن كما قال عبد الرحمن بن خلدون فإنه بعد القوة يأتي الضعف والتفكك والانهيار، وهو ما حدث للدولـة العثمانيـة فـي النصف الثاني من القرن التاسـع عشـر، حتى أوائل القرن العشـرين، عندهـا تكالبت الـدول الأوروبية لاقتطاع أجـزاء من ممتلكات الدولـة العثمانية ووصفتها بالرجل المريض.

وقـد تميزت الإسـتراتيجية العثمانيـة في منطقة الخليـج العربي بالدفاع عـن أقطار تلك المنطقة ضد المطامع الأوروبية السـاعية لفرض نفوذها على تلك الأقطار التى تشـرف على طريـق حيـوي للتجارة الهندية التى يحتاجها الأوروبيون، ويحققـون من ورائها ثروات كبيرة

ويسعون من خلالها إلى فرض النفوذ والاحتلال والاستغلال.

ولأن منطقة الخليج العربي ذات أهمية إستراتيجية واقتصادية - وحتى قبل اكتشاف النفط واستخراجه والعمل في مجالاته - باعتبارها شريانًا حيويًا بين الهند - درة التاج البريطاني ومنبع التجارة في المواد التى تشتهر بها مثل الفلفل والبهارات وغيرها - فإننا ناقشنا أهمية مشيخات الخليج في أعمال التجارة والغوص على اللؤلؤ ونقل المتاجر والإبحار في المياه المحيطة مثل البحر العربي والمحيط الهندى.

وعندما تعرضت أقطار الخليج العربي للغزو الاستعماري الأوروبي بداية من غزو البرتغاليين حتى سيطرة البريطانيين، اهتمت الدولة العثمانية بالدفاع عن هذه الأقطار باعتبارها عمقًا إستراتيجيًا لولاية العراق العثمانية، ومن ثم اهتمت بكل تلك الأقطار، مما دفعنا إلى معالجة هذا الاهتمام العثماني بكل قطر خليجي عربي: الأحساء والكويت وقطر وغيرها، وناقشنا الموقف البريطاني من هذا الاهتمام العثماني بأقطار الخليج العربية، وذلك الاهتمام الذي تغلّف بفكرة الجامعة الإسلامية بزعامة الدولة العثمانية.

والله نسأل أن نكون قد توفقنا في عرض الإستراتيجية العثمانية في منطقة الخليج العربي، ودور المصلح العظيم مدحت باشا والي العراق في تحقيق تلك الإستراتيجية، والذي وضع الأسس للإصلاح والإدارة المتميزة، وإن كانت الفترة التى عاشها في العراق وأشرف منها على منطقة الخليج قصيرة حيث امتدت من عام ١٨٦٩ إلى عام ١٨٧١م.

والله ولي التوفيق

المؤلفون

الفصل الأول

الدولة العثمانية

- مقدمة

أولاً: قيام الدولة العثمانية ١٢٩٩ - ١٤٥٣م

ثانيًا: دور التوسع والقوة ١٤٥٣ - ١٦٨٣م:

١ - حقبة النمو والازدهار ١٤٥٣ - ١٥٦٦م.

٢ - حقبة الركود والانتعاشات ١٥٦٦ - ١٦٨٣م.

ثالثًا: دور الركود ١٦٨٣ - ١٨٢٧م.

رابعًا: دور الأفول والتنظيمات ١٨٢٨ - ١٩٠٨م.

خامسًا: دور الانحلال وخاتمة الدولة ١٩٠٨ - ١٩٢٢م.

سادسًا: الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨م.

سابعًا: حرب الاستقلال التركية ١٩١٩ - ١٩٢٢م.

ثامنًا: أحوال الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد العزيز ١٨٦١ - ١٨٧٦م.

مقدمـــة:

الدولة العثمانية بالتركية العثمانية :دَوْلَتِ عَلِيّهٔ عُثمَانِيه؛ بالتركية الحديثة: Yüce Osmanlı Devleti) هي إمبراطورية إسلامية أسسها عثمان الأول ابن أرطغرل، واستمرت قائمة لما يقرب من ٦٠٠ سنة، وبالتحديد منذ حوالي ٢٧ يوليو سنة ١٢٩٩م حتى ٢٩أكتوبر سنة ١٩٢٣م.

بلغت الدولة العثمانية ذروة مجدها وقوتها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، فامتدت أراضيها لتشمل أنحاء واسعة من قارات العالم القديم الثلاث: أوروبا وآسيا وأفريقيا، حيث خضعت لها كامل آسيا الصغرى وأجزاء كبيرة من جنوب شرق أوروبا، وغربي آسيا، وشمالي أفريقيا. وصل عدد الولايات العثمانية إلى ٢٩ ولاية، وكان للدولة سيادة اسمية على عدد من الدول والإمارات المجاورة في أوروبا، التي أضحى بعضها يُشكل جزءًا فعليًا من الدولة مع مرور الزمن، بينما حصل بعضها الآخر على نوع من الاستقلال الذاتي.

كان للدولة العثمانية سيادة على بضعة دول بعيدة كذلك الأمر، إما بحكم كونها دولاً إسلامية تتبع شرعًا سلطان آل عثمان كونه يحمل لقب "أمير المؤمنين و خليفة المسلمين، كما في حالة سلطنة آتشيه السومطرية التي أعلنت ولاءها للسلطان في سنة ١٥٦٥م أو عن طريق استحواذها عليها لفترة مؤقتة، كما في حالة جزيرة "أنزاروت" في المحيط الأطلسي، والتي فتحها العثمانيون سنة ١٥٨٥م.

أضحت الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان الأول "القانوني" - حكم منذ عام ١٥٢٠م حتى عام ١٥٦٦م - قوّة عظمى من الناحيتين السياسية والعسكرية، وأصبحت عاصمتها استانبول تلعب دور صلة الوصل بين العالمين الأوروبي المسيحي والشرقي الإسلامي[1]، وبعد انتهاء عهد السلطان سالف الذكر، الذي يُعتبر عصر الدولة العثمانية الذهبي، أصيبت الدولة بالضعف والتفسخ وأخذت تفقد ممتلكاتها شيئًا فشيئًا، على الرغم من أنها عرفت فترات من الانتعاش والإصلاح إلا أنها لم تكن كافية لإعادتها إلى وضعها السابق.

انتهت الدولة العثمانية بصفتها السياسية بتاريخ ١ نوفمبر سنة ١٩٢٢م، وأزيلت بوصفها دولة قائمة بحكم القانون في ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٣م، بعد توقيعها على معاهدة لوزان، وزالت نهائيًا في ٢٩ أكتوبر من السنة نفسها عند قيام الجمهورية التركية، التي

---

(1) Finkel, Caroline, Osman's Dream, (New York: Basic Books, 2005)

تعتبر حاليًا الوريث الشرعي للدولة العثمانية.

عُرفت الدولة العثمانية بأسماء مختلفة في اللغة العربية، لعلّ أبرزها هو "الدولة العليّة" وهو اختصار لاسمها الرسمي "الدولة العليّة العثمانية"، كذلك كان يُطلق عليها محليًا في العديد من الدول العربية، وخصوصًا بلاد الشام ومصر، "الدولة العثمليّة"، اشتقاقًا من كلمة "عثملي - Osmanlı" التركية، التي تعني "عثماني". ومن الأسماء الأخرى التي أضيفت للأسماء العربية نقلاً من تلك الأوروبية: "الإمبراطورية العثمانية" بالتركية: Osmanlı İmparatorluğu)، كذلك يُطلق البعض عليها تسمية "السلطنة العثمانية"، و"دولة آل عثمان". [1].

العثمانيون قوم من الأتراك، فهم ينتسبون - من وجهة النظر الأثنيّة - إلى العرق الأصفر أو العرق المغولي، وهو العرق الذي ينتسب إليه المغول والصينيون وغيرهم من شعوب آسيا الشرقية. وكان موطن الأتراك الأوّل في آسيا الوسطى، في البوادي الواقعة بين جبال آلطاي شرقًا وبحر قزوين في الغرب، وقد انقسموا إلى عشائر وقبائل عديدة منها عشيرة "قايي"، التي نزحت في عهد زعيمها "كندز ألب" إلى المراعي الواقعة شماليّ غربي أرمينيا قرب مدينة خلاط، عندما استولى المغول بقيادة جنكيز خان على خراسان. إن الحياة السياسية المبكرة لهذه العشيرة يكتنفها الغموض، وهي أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقائق، وإنما كل ما يُعرف عنها هو استقرارها في تلك المنطقة لفترة من الزمن، ويُستدل على صحة هذا القول عن طريق عدد من الأحجار والقبور تعود لأجداد بني عثمان. ويُستفاد من المعلومات المتوافرة أن هذه العشيرة تركت منطقة خلاط حوالي سنة ١٢٢٩م تحت ضغط الأحداث العسكرية التي شهدتها المنطقة، بفعل الحروب التي أثارها السلطان جلال الدين الخوارزمي وهبطت إلى حوض نهر دجلة.

أولاً: قيام الدولة العثمانية (١٢٩٩ - ١٤٥٣)

توفي "كندز ألب" في العام التالي لنزوح عشيرته إلى حوض دجلة، فترأس العشيرة ابنه سليمان، ثم حفيده "أرطغرل" الذي ارتحل مع عشيرته إلى مدينة إرزينجان، وكانت مسرحًا للقتال بين السلاجقة والخوارزميين، فالتحق بخدمة السلطان علاء الدين سلطان قونية، إحدى الإمارات السلجوقية التي تأسست عقب انحلال دولة السلاجقة العظام وسانده في حروبه ضد الخوارزميين، فكافأه السلطان السلجوقي بأن أقطع عشيرته بعض الأراضي الخصبة قرب مدينة أنقرة وظل أرطغرل حليفًا للسلاجقة حتى أقطعه السلطان السلجوقي

(١) د. عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ص١١ - ١٧.

منطقة في أقصى الشمال الغربي من الأناضول على الحدود البيزنطية، في المنطقة المعروفة باسم "سوغوت" حول مدينة أسكي شهر، حيث بدأت العشيرة هناك حياة جديدة إلى جانب إمارات تركمانية سبقتها إلى المنطقة. علا شأن أرطغرل لدى السلطان بعد أن أثبت إخلاصه للسلاجقة، وأظهرت عشيرته كفاءة قتالية عالية في كل معركة ووجدت دومًا في مقدمة الجيوش وتمّ النصر على يدي أبنائها، فكافأه السلطان بأن خلع عليه لقب "أوج بكي"، أي محافظ الحدود، اعترافًا بعظم أمره، غير أن أرطغرل كان ذا أطماع سياسية بعيدة، فلم يقنع بهذه المنطقة التي أقطعه إياها السلطان السلجوقي، ولا باللقب الذي ظفر به، ولا بمهمة حراسة الحدود والحفاظ عليها؛ بل شرع يهاجم باسم السلطان ممتلكات البيزنطيين في الأناضول فاستولى على مدينة "أسكي شهر" وضمها إلى أملاكه، واستطاع أن يوسع أراضيه خلال مدة نصف قرن قضاها كأمير على مقاطعة حدودية، وتوفي في سنة ١٢٨١م عن عمر يُناهز التسعين عامًا، بعد أن خُلع عليه لقب كبير آخر هو "غازي"، تقديرًا لفتوحاته وغزواته.

بعد أرطغرل تولّى زعامة الإمارة ابنه البكر عثمان، فأخلص الولاء لل دولة السلجوقية على الرغم مما كانت تتخبط فيه من اضطراب وما كان يتهددها من أخطار[١]، أظهر عثمان في بداية عهده براعة سياسية في علاقاته مع جيرانه، فعقد تحالفات مع الإمارات التركمانية المجاورة، ووجه نشاطه العسكري نحو الأراضي البيزنطية لاستكمال رسالة دولة سلاجقة الروم بفتح الأراضي البيزنطية كافة، وإدخالها ضمن الأراضي الإسلامية، وشجعه على ذلك حالة الضعف التي دبت في جسم الإمبراطورية البيزنطية وأجهزتها، وانهماكها بالحروب في أوروبا[٢]، فأتاح له ذلك سهولة التوسع باتجاه غربي الأناضول، وفي عبور الدردنيل إلى أوروبا الشرقية الجنوبية. ومن الناحية الإدارية، فقد أظهر عثمان مقدرة فائقة في وضع النظم الإدارية لإمارته، بحيث قطع العثمانيون في عهده شوطًا كبيرًا على طريق التحول من نظام القبيلة المتنقلة إلى نظام الإدارة المستقرة، ما ساعدها على توطيد مركزها وتطورها سريعًا إلى دولة كبرى. وقد أبدى السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد الثالث تقديره العميق لخدمات عثمان، فمنحه لقب "عثمان غازي حارس الحدود العالي الجاه، عثمان باشا".

أقدم عثمان - بعد أن ثبّت أقدامه في إمارته - على توسيع حدودها على حساب

(١) شفيق جحا وآخرون: المصور في التاريخ، جـ ٦، دار العلم للملايين، ص ١١٦

(٢) أ.د. محمد سهيل طقوش: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة: ص ٢٦

البيزنطيين، ففي عام ١٢٩١م فتح مدينة "قره جه حصار" الواقعة إلى الجنوب من سوغوت، وجعلها قاعدة له، وأمر بإقامة الخطبة باسمه، وهو أول مظهر من مظاهر السيادة والسلطة، ومنها قاد عشيرته إلى بحر مرمرة والبحر الأسود، وحين تغلب المغول على دولة قونية السلجوقية، سارع عثمان إلى إعلان استقلاله عن السلاجقة ولقّب نفسه "باديشاه آل عثمان" أي عاهل آل عثمان، فكان بذلك المؤسس الحقيقي لهذه الدولة التركية الكبرى التي نُسبت إليه لاحقًا[1]. وظلّ عثمان يحكم الدولة الجديدة بصفته سلطانًا مستقلاً حتى تاريخ ٦ أبريل سنة ١٣٢٦م، الموافق فيه ٢ جمادى الأولى سنة ٧٢٦هـ، عندما احتل ابنه "أورخان" مدينة بورصة الواقعة على مقربة من بحر مرمرة، وفي هذه السنة توفي عثمان عن عمر يناهز السبعين عامًا بعد أن وضع أسس الدولة ومهد لها درب النمو والازدهار، وخُلع عليه لقب آخر هو "قره عثمان"، وهو يعني "عثمان الأسود" باللغة التركية الحديثة، لكن يُقصد به "الشجاع" أو "الكبير" أو "العظيم" في التركية العثمانية.

عُني أورخان بتنظيم مملكته تنظيمًا محكمًا، فقسمها إلى سناجق أو ولايات، وجعل من بورصة عاصمةً لها، وضرب النقود باسمه، ونظّم الجيش، فألّف فرقًا من الفرسان النظاميين، وأنشأ من الفتيان المسيحيين الروم والأوروبيين الذين جمعهم من مختلف الأنحاء جيشًا قويًا عُرف بجيش الإنكشارية. وقد درّب أورخان هؤلاء الفتيان تدريبًا صارمًا وخصّهم بامتيازات كبيرة، فتعلقوا بشخصه وأظهروا له الولاء. وعمل أورخان على توسيع الدولة، فكان طبيعيًا أن ينشأ بينه وبين البيزنطيين صراعٌ عنيف كان من نتيجته استيلاؤه على مدينتيّ إزمير ونيقية. وفي عام ١٣٣٧م شنّ هجومًا على القسطنطينية عاصمة البيزنطيين نفسها، ولكنه أخفق في احتلالها[2] ومع ذلك فقد أوقعت هذه الغزوة الرعب في قلب إمبراطور الروم "أندرونيقوس الثالث"، فسعى إلى التحالف معه وزوجه ابنته. ولكن هذا الزواج لم يحل بين العثمانيين وبين الاندفاع إلى الأمام، وتثبيت أقدامهم سنة ١٣٥٧م في شبه جزيرة غاليبولي، وهكذا اشتد الخطر العثماني على القسطنطينية من جديد. شهد المسلمون في عهد أورخان أوّل استقرار للعثمانيين في أوروبا، وأصبحت الدولة العثمانية تمتد من أسوار أنقرة في آسيا الصغرى إلى تراقيا في البلقان، وشرع المبشرون يدعون السكان إلى اعتناق الإسلام. توفي أورخان الأول في سنة ١٣٦٠م بعد أن أيّد الدولة الفتيّة بفتوحاته الجديدة وتنظيماته العديدة، وتولّى بعده ابنه "مراد الله"، الملقب بمراد الأول.

---

(١) شفيق جحا وآخرون: مرجع سابق، ص ١١٦

(1) J. J. Norwich (1996) Byzantium: the Decline and Fall, Penguin, London p. 320

كانت فاتحة أعمال مراد الأول احتلال مدينة أنقرة مقر إمارة القرمان، وذلك أن أميرها واسمه علاء الدين، أراد انتهاز فرصة انتقال المُلك من السلطان أورخان إلى ابنه مراد لإثارة حمية الأمراء المجاورين وتحريضهم على قتال العثمانيين ليقوضوا أركان ملكهم الآخذ في الامتداد يومًا فيومًا، فكانت عاقبة دسائسه أن فقد أهم مدنه[1] وتحالف مراد مع بعض أمراء الأناضول مقابل بعض التنازلات لصالح العثمانيين، وأجبر آخرين على التنازل له عن ممتلكاتهم، وبذلك ضمّ جزء من الممتلكات التركمانية إلى الدولة العثمانية. ووجّه اهتمامه نحو شبه جزيرة البلقان التي كانت في ذلك الحين مسرحًا لتناحر دائم بين مجموعة من الأمراء الثانويين، ففتح مدينة أدرنة سنة ١٣٦٢م ونقل مركز العاصمة إليها لتكون نقطة التحرك والجهاد في أوروبا، وقد ظلت عاصمة للعثمانيين حتى فتحوا القسطنطينية في وقت لاحق، كما تم فتح عدّة مدن أخرى مثل صوفيا وسالونيك، وبذلك صارت القسطنطينية محاطة بالعثمانيين من كل جهة في أوروبا. وفي ١٢ يونيو سنة ١٣٥٨م، الموافق فيه ١٩ جمادى الآخرة سنة ٧٩١هـ التقت الجيوش العثمانية بالقوى الصربية - تساندها قوىً من المجر والبلغار والألبانيين، في إقليم "قوصوة"، المعروف حاليًا باسم "كوسوفو"، فدارت بين الطرفين معركة عنيفة انتصر فيها العثمانيون، إلا أن السلطان قتل في نهايتها على يد أحد الجنود الذي تظاهر بالموت.

تولّى عرش آل عثمان بعد مراد الأول ابنه بايزيد، وعند ذلك كانت الدولة قد اتسعت حدودها بشكل كبير، فانصرف إلى تدعيمها بكل ما يملك من وسائل، وانتزع من البيزنطيين مدينة "الاشهر"، وكانت آخر ممتلكاتهم في آسيا الصغرى وأخضع البلغار عام ١٣٩٣م إخضاعًا تامًا. فجزع "سيكسموند" ملك المجر من هذا التوسع العثماني، خصوصًا بعد أن تاخمت حدود بلاده مناطق السيطرة العثمانية، فاستنجد بأوروبا الغربية، فدعا البابا "بونيفاس التاسع" إلى حملة صليبية جديدة ضد العثمانيين لمنعهم من التوغل في قلب أوروبا، فلبّى الدعوة ملك المجر سالف الذكر، وعدد من أمراء فرنسا وبافاريا والنمسا وفرسان القديس يوحنا في رودس وجمهورية البندقية، وقدمت إنكلترا مساعدات عسكرية. تقابل الجيشين العثماني والأوروبي في ٢٥ سبتمبر ١٣٩٦م الموافق ٢١ ذي الحجة ٧٩٨هـ، ودارت بينهما رحى معركة ضارية هُزم فيها الأوروبيون وردوا على أعقابهم. حاصر بايزيد القسطنطينية مرتين متواليتين، ولكن حصونها المنيعة صمدت في وجه هجماته العنيفة، فارتد عنها خائبًا. ولم ينس بايزيد وهو يوجه ضرباته الجديدة نحو

(١) محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العليّة العثمانية، تأليف: الأستاذ محمد فريد بك المحامي، تحقيق: د. إحسان حقي، دار النفائس، ط ١٠، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م، ص: ١٢٩

الغرب، أن المغول يستعدون للانقضاض عليه من جهة الشرق، وخاصةً بعد أن ظهر فيهم رجلٌ عسكري جبّار هو تيمورلنك الشهير المنحدّر من سلالة جنكيز خان. لذلك عمل بايزيد على تعزيز مركزه في آسيا الصغرى استعدادًا للموقعة الفاصلة بينه وبين تيمورلنك. وهكذا خف الضغط العثماني على البيزنطيين، وتأخر سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين خمسين سنة ونيفًا[1] وفي ربيع سنة ١٤٠٢م، تقدّم تيمورلنك نحو سهل أنقرة لقتال بايزيد، فالتقى الجمعان عند "جُبق آباد" ودارت معركة طاحنة انهزم فيها العثمانيون وأُسر السلطان بايزيد وحمله المغول معهم عائدين إلى سمرقند عاصمة الدولة التيمورية، حيث عاش بقية أيامه ومات في سنة ١٤٠٣م.

وبعد موت السلطان بايزيد تجزأت الدولة إلى عدّة إمارت صغيرة كما حصل بعد سقوط الدولة السلجوقية، لأن تيمورلنك أعاد إلى أمراء قسطموني وصاروخان وكرميان وآيدين ومنتشا وقرمان ما فقدوه من البلاد، واستقل في هذه الفترة كل من البلغار والصرب والفلاخ، ولم يبق تابعًا للراية العثمانية إلا قليل من البلدان. ومما زاد الخطر على الدولة عدم اتفاق أولاد بايزيد على تنصيب أحدهم، بل كان كل منهم يدعي الأحقية لنفسه، فنشبت بينهم حروب ضارية، ولكن النصر كان آخر الأمر من نصيب محمد بن بايزيد، المُلقب بمحمد الأول أو "محمد چلبي"، الذي استطاع أن يعيد للدولة بعض ما فقدته من أملاكها في الأناضول. وبعد محمد الأول تولّى عرش السلطنة العثمانية مراد الثاني، فاستمر بإخضاع المدن والإمارات التي استقلت عن الدولة العثمانية، وحاصر القسطنطينية، ولكنه لم يُوفق إلى احتلالها. ثم حاول أن يعيد إخضاع البلقان لسيطرته، ففتح عدّة مدائن وقلاع وحاول أن يضم إليها مدينة بلغراد لكنه فشل في اقتحامها، فكان هذا الهجوم إنذارًا جديدًا لأوروبا بالخطر العثماني، فقامت قوات مجرية - وعلى رأسها يوحنا هونياد - بالالتحام مع العثمانيين وهزمتهم هزيمة قاسية كان من نتائجها بعث الروح الصليبية في أوروبا، وإعلان النضال الديني ضد العثمانيين.

ولمّا توفي السلطان مراد الثاني ارتقى عرش العثمانيين ابنه محمد، فكان عليه بادئ الأمر أن يُخضع ثورة نشبت ضده في إمارة قرمان بآسيا الصغرى، فاستغل الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الحادي عشر هذا الأمر، وطلب من السلطان مضاعفة الجزية التي كان والده يدفعها إلى البيزنطيين لقاء أسرهم الأمير أورخان حفيد سليمان بن بايزيد المطالب بالعرش العثماني. فاستاء السلطان محمد من هذا الطلب لما كان ينطوي عليه من

---

(١) شفيق جحا وآخرون، مرجع سابق، ص ١٢٠

تهديد بتحريض أورخان هذا على العصيان، فأمر بإلغاء الراتب المخصص له، وراح يتجهّز لحصار القسطنطينية والقضاء على هذه المدينة في أقرب فرصة ممكنة. وكان أوّل ما قام به في هذا السبيل تشييده عند أضيق نقطة من مضيق البوسفور قلعة "روملي حصار" القائمة على بعد سبعة كيلومترات من أبواب القسطنطينية. وعندئذ أرسل الإمبراطور قسطنطين بعثة من السفراء إلى السلطان محمد لتحتجّ لديه على ذلك، فلم يلقوا منه جوابًا شافيًا، بل أصرّ على البناء لما في القلعة من أهمية إستراتيجية. واستنجد الإمبراطور قسطنطين بالدول الأوروبية فلم تنجده إلا بعض المدن الإيطالية، أما البابا فقد أبدى استعداده لمساعدة الإمبراطور شرط أن تتحد الكنيستان الشرقية والغربية، ووافق قسطنطين على المشروع، ولكنّ تعصّب الشعب حال دون تحقيق ذلك.

وكان السلطان قد حشد لقتال البيزنطيين جيشًا عظيمًا مزودًا بالمدافع الكبيرة وأسطولاً ضخمًا، وبذلك حاصرهم من ناحيتيّ البر والبحر معًا. والواقع أن البيزنطيين استماتوا في الدفاع عن عاصمتهم، لكن ما أن مضى ٥٣ يومًا على الحصار حتى كان العثمانيون قد دخلوا المدينة بعد أن هُدمت أجزاء كبيرة من أسوارها بفعل القصف المدفعي المتكرر، واشتبكوا مع البيزنطيين في قتال عنيف جدًا دارت رحاه في الشوارع، وذهب ضحيته الإمبراطور نفسه وكثير من جنوده. حتى إذا انتصف النهار دخل محمد المدينة وأصدر أمره إلى جنوده بالكف عن القتال، بعد أن قضى على المقاومة البيزنطية ونشر راية السلام اتخذ السلطان محمد لقب "الفاتح" بعد فتح المدينة، وأضاف إليه لقب "قيصر الروم"، على الرغم من عدم اعتراف بطريركية القسطنطينية ولا أوروبا الغربية بهذا الأمر، ونقل مركز العاصمة من أدرنة إلى القسطنطينية التي غيّر اسمها إلى "إسلامبول، أي مدينة الإسلام أو تخت الإسلام، وأعطى للمسيحيين الآمان وحرية إقامة شعائرهم الدينية، ودعا من هاجر منهم خوفًا إلى العودة إلى بيوتهم. سقطت الإمبراطورية البيزنطية عند فتح المدينة بعد أن استمرت أحد عشر قرنًا ونيفًا، وتابع السلطان محمد فتوحاته في أوروبا خلال السنوات اللاحقة التي أعقبت سقوط القسطنطينية، فأخضع بلاد الصرب وقضى على استقلالها، وفتح بلاد المورة في جنوب اليونان، وإقليم الأفلاق وبلاد البشناق وألبانيا، وهزم البندقية ووحد الأناضول عبر قضائه على إمبراطورية طرابزون الرومية وإمارة قرمان. وقد حاول السلطان محمد أيضًا فتح إيطاليا لكن وافته المنية سنة ١٤٨١م فانصرف العثمانيون عن هذه الجهة.

ثانيًا: دور التوسع والقوة (١٤٥٣ - ١٦٨٣)

يُمكن تقسيم هذه الفترة في التاريخ العثماني إلى حقبتين مميزتين: حقبة النمو والازدهار العسكري والثقافي والحضاري والاقتصادي، وهي تمتد حتى سنة ١٥٦٦م، وحقبة شهدت بأغلبها ركودًا سياسيًا وعسكريًا، وتخللتها فترات إصلاح وانتعاش، وقد دامت حتى سنة ١٦٨٣م.

١ - حقبة النمو والازدهار (١٤٥٣ - ١٥٦٦)

بعد موت السلطان محمد الفاتح تنازع ابناه "جم" و"بايزيد" على العرش. ولكن الغلبة كانت من نصيب بايزيد، ففر جم إلى مصر حيث احتمى بسلطان المماليك "قايتباي"، ثم إلى رودس حيث حاول أن يتعاون مع فرسان القديس يوحنا والدول الغربية على أخيه، لكن بايزيد استطاع إقناع دولة الفرسان بإبقاء الأمير جم على الجزيرة مقابل مبلغ من المال، وتعهد بأن لا يمس جزيرتهم طيلة فترة حكمه، فوافقوا على ذلك، لكنهم عادوا وسلموا الأمير إلى البابا "إنوسنت الثامن" كحل وسط، وعند وفاة الأخير قام خليفته بدس السم للأمير بعد أن أجبره الفرنسيون على تسليمهم إياه، فتوفي في مدينة نابولي، ونقل جثمانه فيما بعد إلى بورصة ودُفن فيها. اتصف السلطان بايزيد بأنه سلطان مسالم لا يدخل الحروب إلا مدافعًا، فقاتل جمهورية البندقية بسبب الهجمات التي قام بها أسطولها على بلاد المورة، وحارب المماليك حين قرر السلطان قايتباي السيطرة على إمارة ذي القدر ومدينة ألبستان التابعتين للدولة العثمانية، وعدا ذلك فكان يفضل مجالسة العلماء والأدباء. وفي عهده سقطت غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس؛ فبعث بعدّة سفن لتحمل الأندلسيين المسلمين واليهود إلى القسطنطينية وغيرها من مدن الدولة، وفي عهده أيضًا ظهرت سلالة وطنية شيعية في بلاد فارس، هي السلالة الصفوية، التي استطاعت بزعامة الشاه إسماعيل بن حيدر، أن تهدد بالخطر إمبراطورية العثمانيين في الشرق.

وفي أواخر عهد بايزيد دبّ النزاع بين أولاده بسبب من الأحق بولاية العهد. ذلك أن بايزيد اختار ابنه أحمد لخلافته، فغضب ابنه الآخر سليم، وأعلن الثورة على والده، وكان لثورة سليم أسباب سياسية ومذهبية وتجارية وعرقية، ذلك أن الصفويين كانوا يعملون على نشر المذهب الشيعي في الأناضول على حساب المذهب السني، وقطعوا طريق التجارة مع الهند والشرق الأقصى، ومنعوا نزوح المزيد من قبائل التركمان من آسيا الوسطى إلى الأناضول وأوروبا الشرقية، وكان الشاه إسماعيل يدعم الأمير أحمد للوصول إلى سدة الحكم ولم يحرك الأخير ساكنًا لمنع التدخل الصفوي في الشؤون العثمانية. نتيجة لكل

ما سلف، ثار سليم على والده وشقيقه ثم استولى على أدرنة، فما كان من بايزيد إلا أن انبرى لقتال ابنه سليم، فهزمه وقرر نفيه، لكن الجنود الإنكشارية قاموا بالضغط على السلطان وأرغموه بالتنازل عن العرش لصالح ابنه سليم. وقد مات بايزيد يوم ٢٦ مايو سنة ١٥١٢م الموافق ١٠ ربيع الأول سنة ٩١٨هـ، واختلف المؤرخون على سبب الوفاة. كان على سليم، بعد اعتلائه العرش، تثبيت أقدامه في الحكم والتفاهم مع الدول الأوروبية الفاعلة ليتفرغ لأخطر أزمة واجهتها الدولة منذ أعقاب معركة أنقرة، ألا وهي القضية الصفوية، فأقدم على قتل إخوته وأولادهم حتى لا يبقى له منازع في الحكم، ثم أبرم هدنة طويلة مع الدول الأوروبية المجاورة، وحوّل انتباهه إلى الجبهة الشرقية لمواجهة الصفويين والمماليك وكان السلطان سليم يهدف إلى السيطرة على طرق التجارة بين الشرق والغرب، والتوسع على حساب القوى في المشرق، والقضاء على المد الشيعي، وتوحيد الأمصار الإسلامية الأخرى حتى تكون يدًا واحدة في مواجهة أوروبا، وخاصة بعد سقوط الأندلس وقيام البرتغاليين بالتحالف مع الصفويين وإنشائهم لمستعمرات في بعض المواقع في جنوب العالم الإسلامي وكان الشيعة المقيمون في آسيا الصغرى قد ثاروا على الدولة العثمانية اعتمادًا على تأييد الصفويين، فأخضع سليم هذه الثورة وعمد إلى اضطهاد الشيعة، فذهب ضحية هذه السياسة أربعون ألفًا منهم، ثم انبرى لقتال الشاه، فالتقى الفريقان في سهل چالديران والتحما في معركة كبيرة كان النصر فيها لصالح السلطان سليم، وفرّ الشاه ناجيًا بحياته، أما سليم فتقدم إلى تبريز عاصمة خصمه الصفوي، فاستولى عليها ورجع عائدًا إلى بلاده.

تقدم العثمانيون، بعد انتصارهم على الصفويين، لإخضاع السلطنة المملوكية، فنشبت بينهم وبين المماليك معركة على الحدود الشاميّة التركية تُعرف بمعركة مرج دابق، انتصر فيها العثمانيون وقُتل سلطان المماليك "قنصوه الغوري"، ثم تابعوا زحفهم نحو مصر والتحموا بالمماليك من جديد في معركة الريدانية التي قررت مصير مصر كلها، وانتصروا عليهم مجددًا ودخلوا القاهرة فاتحين. وفي أثناء ذلك قدّم شريف مكة مفاتيح الحرمين الشريفين إلى السلطان سليم اعترافًا بخضوع الأراضي المقدسة الإسلامية للعثمانيين[1] وتنازل في الوقت ذاته آخر الخلفاء العباسيين، محمد الثالث المتوكل على الله، عن الخلافة لسلطان آل عثمان، فأصبح كل سلطان منذ ذلك التاريخ خليفة للمسلمين، ويحمل لقب "أمير المؤمنين" و"خليفة رسول رب العالمين". وعند نهاية حملته الشرقية، كان السلطان سليم قد جعل من الدولة العثمانية قوة إقليمية كبرى ومنافسًا كبيرًا للإمبراطورية البرتغالية على زعامة

---

(١) شفيق جحا وآخرون، مرجع سابق، ص ١٣٠ - ١٣١.

المنافذ المائية العربية. توفي السلطان سليم في ٢٢ سبتمبر سنة ١٥٢٠م، الموافق فيه ٩ شوّال سنة ٩٢٦هـ، وهو على أهبة الاستعداد لقتال فرسان القديس يوحنا في رودس.[1] فارتقى العرش من بعده ابنه سليمان، الذي يُعرف في الشرق باسم "القانوني"، ويُعرف في الغرب باسم "العظيم". والواقع أن الفتوح في الشرق شغلت السلطان سليم طوال أيام حكمه، فكان طبيعيًا أن ينصرف السلطان سليمان إلى ناحية الغرب ليُتم الفتوح التي كان أسلافه قد بدأوها من قبله. واحتل سليمان مدينة بلغراد بسهولة، عام ١٥٢١م، وعقد العزم على ما كان أبوه السلطان سليم قد شرع يستعد له قبل وفاته، أي الاستيلاء على جزيرة رودس، فتمكن من ذلك في سنة ١٥٢٣م، ثمّ ضمّ إلى الأملاك العثمانية القسم الجنوبي والأوسط من مملكة المجر، بعد أن استغل الأوضاع الداخلية المضطربة للمملكة، والأوضاع الخارجية الملائمة.

اشتبكت الجيوش العثمانية مع نظيرتها المجرية في وادي موهاج بالمجر بتاريخ ٢٦أغسطس سنة ١٥٢٦م، في معركة دامت حوالي الساعتين، وانتصر فيها العثمانيون نصرًا كبيرًا وثبتوا أقدامهم في البلاد لفترة طويلة من الزمن، وعين السلطان "جان زابوليا" ملك ترانسلفانيا حاكمًا عليها، عندئذ أرسل فرديناندملك النمسا، وفدًا إلى السلطان يلتمس منه الاعتراف به ملكًا على المجر، فسخر سليمان من الوفد وزجّ أعضاءه في السجن فترة من الزمن، ولمّا أفرج عنهم حمّلهم رسالة إلى الملك ليستعد لملاقاته. وقاتل سليمان فرديناد بجيش عظيم، فلم يصمد في وجهه، فراح سليمان يتعقبه حتى فيينا العاصمة، وهنا ضرب سليمان الحصار على هذه المدينة القائمة في قلب أوروبا، وأحدثت الجنود العثمانية ثغرًا في أسوارها إلا أن الذخيرة والمؤن نفدت منهم، وأقبل فصل الشتاء فقفل السلطان ورجع إلى بلاده[2]. وفي عام ١٥٣٢م، عاود سليمان الكرّة، فحاصر فيينا من جديد، ولكن التوفيق خانه في حملته الثانية هذه أيضًا، فعقد مع فرديناند صلحًا احتفظ بموجبه بجميع ما استولى عليه من الأراضي المجرية. وكان مما رغّب سليمان في عقد الصلح اضطراره إلى الالتفات صوب الشرق بعد أن توترت العلاقات بينه وبين "طهماسب بن إسماعيل الصفوي" شاه فارس، وتفصيل ذلك أن عامل بغداد من قبل طهماسب خان مولاه الصفوي وانحاز إلى العثمانيين بناءً على إلحاح الشعب بسبب سياسة التطرف المذهبي التي انتهجها الصفويون، فسار إليه طهماسب يريد تأديبه، فلم يكن من السلطان سليمان إلا أن

---

(2) Hess, Andrew C. (January 1973). "The Ottoman Conquest of Egypt (1517) and the Beginning of the Sixteenth – Century World War

(١) أ. د. محمد سهيل طقّوش: مرجع سابق، ص ٢١٢

اغتنم هذه الفرصة للانقضاض على بلاد فارس، وهكذا احتل تبريز عاصمة الفرس، ثم استولى على بغداد ودخلها في أبّهة بالغة.

حقق العثمانيون أيام السلطان سليمان عدّة فتوحات بحرية مهمة، وذلك بفضل البحّار يوناني الأصل، خير الدين بربروس، الذي كان سبق وضمّ الجزائر للدولة العثمانية أيام السلطان سليم. عيّن السلطان سليمان خير الدين هذا أميرًا للبحر عام ١٥٣٣م، فنهض بالأسطول العثماني نهضة جبارة مكنته من انتزاع تونس من أيدي الإسبان وإخضاعها للسلطة العثمانية ولو لفترة قصيرة من الزمن. وفي سنة ١٥٣٨م حقق خير الدين للدولة العثمانية نصرًا بحريًا كبيرًا، فقد وفّق إلى إنزال هزيمة قاسية بأندريا دوريا الذي كان يقود أساطيل كارلوس الخامس ملك إسبانيا والبابا بولس الثالث والبندقية مجتمعة، وذلك قرب بروزة، الواقعة على خليج آرتا في الشمال الغربي من اليونان. ومن الفتوح المهمة التي حققها الأسطول العثماني في عهد السلطان سليمان، فتح طرابلس الغرب وتحريرها من الإسبان وفرسان القديس يوحنا على يد القبطان "طورغول بك. توفي السلطان سليمان في ٥ سبتمبر ١٥٦٦م الموافق فيه ٢٠ صفر سنة ٩٧٤هـ، وكانت الدولة العثمانية آنذاك قد بلغت أعلى درجات الكمال وأصبح وجودها ضروريًا لحفظ التوازن السياسي في الشرق الأوسط وأوروبا، ووصل عدد سكانها إلى ١٥,٠٠٠,٠٠٠ نسمة بحسب بعض المصادر.

٢ - حقبة الركود والانتعاشات (١٥٦٦ - ١٦٨٣م)

يُعتبر عصر سليمان القانوني عصر الدولة العثمانية الذهبي، وما أن انقضى هذا العصر حتى أصاب الدولة الضعف والتفسخ. فقد كان سليم الثاني، خليفة سليمان، سلطانًا ضعيفًا لا يتصف بما يؤهله للقيام بحفظ فتوحات أبيه فضلاً عن إضافة شيء إليها، بالإضافة إلى أنه كان حاكمًا منحلاً خاملاً، وكان ماجنًا سكّيرًا. وما يميّز عهد هذا السلطان هو أن وظيفة الصدر الأعظم أصبحت تجعل من يتقلدها الحاكم الفعلي وقائد الجيوش، فلولا وجود الصدر الأعظم محمد باشا صقللي المخضرم في الأعمال السياسية والحربية للحق الدولة الفشل، لكن حسن سياسة هذا الرجل وعظم اسم الدولة ومهابتها في قلوب أعدائها حفظها من السقوط مرة واحدة. ومن أعمال محمد باشا صقللي أن أرسل جيشًا كبيرًا إلى اليمن سنة ١٥٦٩م بقيادة عثمان باشا يسانده سنان باشا والي مصر، لقمع ثورة الأهالي، وتمكن الجيش من إخماد الثورة، ودخل مدينة صنعاء بعد أن فتح جميع القلاع ومن أعمال الصدر الأعظم أيضًا فتح جزيرة قبرص وانتزاعها من أيدي البنادقة. شنّت الدولة العثمانية في عام ١٥٦٩م أيضًا حملة على مدينة أسترخان، الواقعة على مصب نهر الفولغا في بحر

قزوين، بهدف استرداد الإمارة ووضع حدًا لامتداد روسيا من ناحية الجنوب؛ خشية أن يؤدي توسعها إلى استيلائها على الطرق التجارية والأسواق الكبرى وإلى هيمنتها على تجارة البلدان الإسلامية، إلا أن هذه الحملة كان مصيرها الفشل، بسبب امتناع خاقان القرم، "دولت كراي الأول"، عن التعاون مع الجيش العثماني وسعيه شخصيًا لأن يقوم بالاستيلاء على أسترخان وقازان، كما تعذر ضرب الحصار على المدينة؛ لأن الروس بنوا قلعة قوية إلى الجنوب منها، على الطريق المؤدي إليها حالت دون تقدم الجيش العثماني.

وفي عهد السلطان سليم الثاني جرت موقعة ليبانتو البحرية التي هزّت صورة البحرية العثمانية والجيش العثماني الذي اعتبره كثيرون لا يُقهر. وتفصيل ذلك أنه بعد ازدياد الخطر العثماني في البحر المتوسط على أوروبا، وخاصة بعد فتح جزيرة قبرص، وبعض المواقع على البحر الأدرياتيكي، تحالف فيليب الثاني ملك إسبانيا مع البابا بيوس الخامس وجمهورية البندقية لوقف التقدم العثماني باتجاه إيطاليا من جهة، واسترداد جميع المواقع التي فتحوها على حساب أوروبا وبخاصة في شمال أفريقيا، من جهة أخرى. فجمعوا مائتين وثلاثين سفينة وثلاثين ألف جندي، وسلموا لواء القيادة إلى الدون يوحنا النمساوي، الذي أبحر إلى خليج باتراس، أحد فروع البحر الأيوني، وهناك اشتبك الأسطولان العثماني والأوروبي في معركة بحرية طاحنة هي إحدى أكبر المعارك في التاريخ الحديث، أسفرت عن انتصار الأوروبيين وانهزام العثمانيين هزيمة منكرة ولم تُقعد هذه الحادثة همّة الصدر الأعظم محمد باشا صقللي، بل انتهز فرصة الشتاء وعدم إمكانية استمرار الحرب لتجهيز أسطول جديد، وبذل النفس والنفيس في تجهيزه وتسليحه حتى إذا أقبل صيف سنة ١٥٧٢م كان قد تمّ بناء ٢٥٠ سفينة بما فيها ٨ غلايين حديثة، وأعلم الصدر الأعظم البنادقة باستعداده للجولة الثانية، ففضلت البندقية أن تجنح للسلام ووقعت مع الدولة العثمانية معاهدة بذلك سنة ١٥٧٣م، فتفرغ العثمانيون لمحاربة إسبانيا التي عادت لاحتلال تونس، وكذلك هزموا أمير البغدان الذي تمرّد على الدولة طلبًا للاستقلال.

توفي السلطان سليم الثاني يوم ١٢ ديسمبر سنة ١٥٧٤م، الموافق فيه ٢٧ شعبان سنة ٩٨٢هـ وتولّى بعده ابنه مراد الثالث. وفي عهد هذا السلطان تدخلت الدولة العثمانية في انتخاب حليفها "أتيين باتوري"، أمير ترانسلفانيا، ملكًا على بولندا بعد شغور العرش، وبذا تحولت الحماية العثمانية على بولندا من حماية اسمية إلى حماية فعلية. وساعد العثمانيون سلطان مراكش لإخماد ثورة اندلعت في بلاده، فاصطدموا مع الثوّار والبرتغاليين الذين ساندوهم في موقعة القصر

الكبيـر وانتصروا عليهم وأعادوا السـلطان إلـى الحكم. أما أهم ما حصل في عهد السـلطان مراد الثالث هو التوسـع العثماني في الشـرق، على حسـاب الدولة الصفوية، فبعد وفاة الشـاه طهماسب الأول من غير أن يسمي من سيخلفه، تنازع أبناؤه على السلطة، فأرسل الصدر الأعظم محمد باشـا صقللي حملة عسـكرية إلى بلاد فارس لفتح ما تيسر من مدنها، فضموا إليهم من أملاكها بلاد الكرج، ثم أذربيجان الشمالية، ثم بلاد داغستان.

تعرضت الدولة العثمانية بعد هذه الغزوات لأزمة سياسية عنيفة؛ عندما تقلّص نفوذ الصدر الأعظم محمد باشـا صقللي، ومن ثم قُتل في سـنة ١٥٧٩م، فعمّـت الفوضى بعد موته بفعل ضعف حلفائه وتمرّد الإنكشـارية، وراح الولاة يتنافسـون فيمـا بينهم على منصب الصدارة العظمـى. وفي عام ١٥٩٠م أبـرم العثمانيون صلحًا مع الصفوييـن، اعترفوا فيه بما تم ضمه إلـى الدولـة العثمانيـة، إضافـةً إلى جنـوب أذربيجان بمـا فيهـا العاصمة تبريز. وبعـد إبرام الصلـح اسـتتب الأمن على حـدود الدولة، إن في الشـرق أو فـي الغرب، فثار الإنكشـارية في القسـطنطينية وفي الولايات نظرًا لهبوط قيمة أجورهم، الأمر الذي دفع الصدر الأعظم الجديد، سـنان باشـا، أن يشـغلهم بالحروب مع النمسـا في المجر، ونظرًا لمـا وصل إليه الإنكشـارية مـن فوضى توالـت عليهم الهزائم، وفقـدوا بعض القلاع، وعلـى الرغم من أن سنان باشا استطاع أن يسـتردها لاحقًا، إلا أن أمراء الأفلاق والبغدان وترانسلفانيا استغلوا الموقـف وانتصـروا علـى الجيـوش العثمانيـة فـي بضعـة معـارك واسـتردوا منهـم بعـض المدن. وتوفي السـلطان مراد الثالث مسـاء ١٩ يناير سـنة ١٥٩٥م، الموافـق فيه ٨ جمادى الأولى سنة ١٠٠٣هـ، بعد أن أصيب بداء عياء.

تولّى عرش آل عثمان بعد مراد الثالث ابنه محمد، الذي خرج عن القاعدة التي استفحلت منذ أيام جده سـليم الثاني، وهـي تولي الصدر الأعظم قيادة الجيش، فقاد الجيوش بنفسـه وخرج لقتال المجر والنمسـا، وانتصر عليهم في موقعة كرزت سنة١٥٩٦م. وفي بداية القرن السابع عشر حصلت في الأناضول ثورة داخلية كادت أن تكون عاقبتها وخيمة على الدولة، خصوصًـا وأن نار الحروب كانت مشـتعلة على حدود المجر والنمسـا، وخلاصتها أن قائد إحدى فرق الإنكشـارية التي نفيت إلى الأناضول عقابًا لها لعدم ثباتها في موقعة كرزت، ادعـى أنه رأى النبي محمد ﷺ في منامه يبشـره بالنصر علـى العثمانيين، فأعلن العصيان وثـار علـى الدولـة وقام بعدد من الفتن إلى جانب شـقيقه، ثم مات بعـد أن أصيب بجراح في إحدى المعارك[١]، لكن شـقيقه اسـتمر يعصي الدولة إلى أن أعطته ولاية البوسنة ليحارب

(١) محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص: ٢٦٧ - ٢٧٠

الأوروبيين حتى هلكت جيوشه عن آخرها في المناوشات المستمرة بينها وبين النمسا والمجر. وأعقبت هذه الثورة الكبيرة ثورة أخرى في القسطنطينية هي ثورة الخيالة، الذين طالبوا بتعويضهم عما لحق بهم من أضرار جرّاء الثورة السابقة، فاستعانت الدولة عليهم بجنود الإنكشارية وأدخلتهم في طاعتها مجددًا.

تميزت المدة الممتدة على مدار القرن السابع عشر بمظهر أقل روعة من مظهرها في القرن السادس عشر بالنسبة للدولة العثمانية، فبعد وفاة السلطان محمد الثالث ظهر سلاطين أكثر ضعفًا وانغماسًا في الملذات، على الرغم من بروز بعض الشخصيات القوية منهم، مثل السلطان عثمان الثاني ومراد الرابع، وبعض الوزراء الذين عملوا على صون هيبة وسلطان الدولة، ومن هؤلاء مراد باشا القبوجي، الذي كان عونًا وعضدًا للسلطان أحمد الأول الذي تولّى وهو لم يتجاوز الرابعة عشر إلا بقليل. وفي تلك الفترة تنازلت الدولة العثمانية عن عراق العجم للدولة الصفوية، فكانت تلك أول معاهدة تركت فيها الدولة فتوحاتها، وكانت بمثابة فاتحة الانحطاط. وبعد أحمد الأول تولّى أخوه مصطفى العرش لثلاثة أشهر فقط، قبل أن يُعيّن عثمان الثاني بدلاً منه، الذي حدث في عهده سابقة كانت الأولى من نوعها، وتدل على مدى الانحطاط الذي وصلت إليه الدولة آنذاك، إذ تخاذل الإنكشارية في القتال، فأراد أن يؤدبهم ويستبدل بهم جنودًا جددًا مدربين، فثاروا عليه وقتلوه وأعادوا عمه مصطفى إلى الحكم.

وما أن انتشر خبر قتل الخليفة حتى عمت الفوضى والثورات أرجاء الدولة العثمانية، وقام الولاة يعلنون الاستقلال عن الدولة، فأشار الصدر الأعظم المعين بواسطة الإنكشارية بعزل مصطفى الأول وتعيين ابن أخيه مراد الرابع. استطاع مراد الرابع أن يُطهّر الدولة من بعض الثورات مثل ثورة أباظة باشا والي أرضروم، وثورة قام بها الإنكشارية، وحركة أمير لبنان فخر الدين المعني الثاني الاستقلالية، كما استرجع بغداد وهمدان وتبريز ويري فان وكامل أذربيجان من الصفويين. وفي عهد خليفته إبراهيم الأول، انتعشت الدولة بعض الانتعاش، فدخل الأسطول العثماني جزيرة كريت من غير أن يلقى مقاومة تذكر، وبعد هذا العهد عرف العثمانيون فترةً من الضعف والعجز لم ينتشلهم منها إلا المصلح الكبير "محمد كوبرولي" الذي تولّى منصب الصدارة العظمى عام١٦٥٦م في عهد السلطان محمد الرابع، فنهض بالدولة نهضة جديدة وطهرها من آفاتها الفتاكة، وهكذا اشتد ساعدها من جديد. وبعد محمد كوبرولي تولّى ابنه "فاضل أحمد" ذات المنصب وسار على نهج

أبيه، فقامت القوات العثمانية سنة ١٦٦٣م بهجوم على بلاد المجر وهددت ڤيينا نفسها بالسقوط. وفي سنة ١٦٧٢م استولى العثمانيون على أوكرانيا وكانت تابعة لملك بولندا وفي ١٧ يوليو سنة ١٦٨٣م، حاصرت جيوش السلطان محمد الرابع فيينا للمرة الأخيرة، ولكنها صُدّت عنها[1].

ثالثا: دور الركود (١٦٨٣ - ١٨٢٧م)

عُزل السلطان محمد الرابع بتاريخ ٨ نوفمبر سنة ١٦٨٧م، الموافق فيه ٢ محرم سنة١٠٩٩هـ، فعمّت الفوضى بعد عزله، وتوالت الهزائم على الدولة العثمانية، فاحتلت النمسا بلغراد وأجزاء من بلاد الصرب، واحتلت البندقية أجزاء كثيرة منها كرواتيا ودلماسيا وأكثر أجزاء المورة. ولم يُنقذ الدولة من تلك المشاكل إلا "مصطفى كوبرولي باشا"، الابن الآخر للمصلح الكبير محمد كوبرولي، فبذل جهده في بث روح النظام في الجنود، وأحسن للنصارى بشكل كبير حتى استمال جميع مسيحيي الدولة، واستطاع استرجاع بلغراد وإقليم ترانسلفانيا لكن على الرغم من ذلك، فإن الدولة العثمانية لم تحقق أي فتوحات جديدة وراء الحدود التي رسمها السلطان سليمان القانوني، فكانت حروبها وفتوحاتها خلال هذه الحقبة لاسترداد ما سُلب منها إجمالاً، ففي عهد السلطان مصطفى الثاني، انتصر العثمانيون على بولندا وأجبروا قيصر الروس بطرس الأكبر على فك الحصار عن مدينة آزوف، واستعادوا البوسنة وبعض الجزر في بحر إيجة، لكن الروس ما لبثوا أن عادوا لفتح آزوف، وانتصر النمساويون مرة أخرى على العثمانيين في "معركة زانطة"، وتحالفوا مع بضعة دول أوروبية ضد الدولة العثمانية وأجبروها على توقيع معاهدة "كارلوفتش"، التي فقدت فيها مدينة آزوف لصالح روسيا، وما بقي لها من بلاد المجر للنمسا، وأوكرانيا وبودوليا لبولندا، وساحل دلماسيا وبعض جزر بحر إيجة للبندقية.

إزداد وضع الدولة العثمانية سوءًا خلال السنوات القليلة اللاحقة، ففي أوائل القرن الثامن عشر، وفي عهد السلطان أحمد الثالث تحديدًا، طلبت السويد دعم العثمانيين في حربها ضد الروس، لكن الأخيرة رفضت في بداية الأمر، فمالت كفة الميزان لصالح الروس الذين هزموا السويد وأرغموا ملكها على الفرار ملتجئً إلى بلاد الترك، وعندما قررت الدولة العثمانية خوض الحرب أخيرًا، سنحت لها الفرصة أن تقضي على القيصر بطرس الأكبر، لكن الصدر الأعظم رفع الحصار عنه بعد تلقيه رشوة من خليلة القيصر كاترين. كذلك أجبر العثمانيون على توقيع معاهدة جديدة هي معاهدة "بيساروفتش"، وذلك بعد أن

(1) Lewis Bernard: The Emergence of Modern Turkey: p24

استنجدت البندقية بالنمسا لتجبر الأخيرة العثمانيين على إعادة جزيرة كريت إلى البندقية، واضطرت الدولة في هذه المعاهدة أن تستغني عن بلغراد، ومعظم بلاد الصرب وجزءًا من الأفلاق للنمسا، وأن تظل البندقية مسيطرة على سواحل دلماسيا، مقابل عودة بلاد مورة للعثمانيين. استرجعت الدولة العثمانية أيضًا بعض المدن التي فقدتها سابقًا لصالح الصفويين، مثل همدان وتبريز وإقليم لورستان، لكنهم عادوا وهزموا وتنازلوا عن كل ما أخذوه من الصفويين.

سجّلت هذه المرحلة بداية اليقظة العثمانية بالانفتاح على الغرب، وبدأت ترجمة بعض المؤلفات الغربية، وسُمح بإنشاء مكتب للطباعة في العاصمة، وجرت الاستعانة بمجريّ اعتنق الإسلام، لبناء المطبعة وتشغيلها. وأخذت وجهة الإصلاح تتجه نحو الاقتباس من الغرب الأوروبي مع المحافظة على الأصول العثمانية الإسلامية، إذ كانت الحضارة الغربية تتسرب، بشكل أو بآخر، إلى الدولة ولكن ببطء، وظهر عدد من المثقفين العلمانيين، كما وفد إلى البلاد عدد من الخبراء الأجانب الذين وضعوا خبراتهم في خدمة الدولة.

قامت الحرب مجددًا بين روسيا والدولة العثمانية خلال عقد الثلاثينيات من القرن الثامن عشر بسبب احتلال الأخيرة لبولندا بدعم من النمسا، فاتحدت الدولة العثمانية مع الفرس واستطاعت دحر الجيش الروسي والنمساوي وثأرت لنفسها من النمسا بعد أن أرغمتها على توقيع معاهدة بلغراد التي نصت على عودة بلغراد وما استحوذت عليه النمسا من أراضي الصرب والأفلاق إلى الدولة العثمانية، وأن تلتزم روسيا بهدم قلاع مدينة آزوف، وألا تبحر أي سفينة حربية أو تجارية تابعة لها في البحر الأسود. لكن نيران الحرب عادت لتستعر مجددًا بين الروس والعثمانيين خلال عقد السبعينيات من القرن الثامن عشر، عندما فقد العثمانيون عدة مدن لصالح الإمبراطورية الروسية، إلى جانب إقليمي الأفلاق والبغدان. وحاول الروس احتلال طرابزون ولكنهم لم يستطيعوا، ولكنهم استطاعوا لاحقًا فصل القرم عن الدولة العثمانية، وقاومت الدولة العثمانية بكل ما أتيح لها من وسائل حتى أجلت الروس عن كثير من المناطق التي احتلوها. وعند هذه النقطة لجأت الإمبراطورية الروسية إلى أسلوب آخر لزعزعة كيان الدولة العثمانية، هو أسلوب الفتنة الداخلية، فقامت بإثارة مسيحيي المورة على العثمانيين، واتجه الأسطول الروسي إلى المورة لدعم الثورة، ولكنه مُني بالهزيمة، ولكن بعض السفن التي أفلتت تمكنت من إحراق جزء كبير من الأسطول العثماني، ثم اتجهت لاحتلال جزيرة "لمنوس"، فأجبرتها البحرية العثمانية على التقهقر، وأخمدت الثورة في المورة. وفي ١٠ يونيو سنة ١٧٧٢م،

الموافـق فيـه ٩ ربيع الأول سـنـة ١١٨٦هـ، تهـادن الفريقـان مقابل بعض الامتيـازات لصـالح روسـيا لعـلّ أهمها هو حقها في حماية جميع المسـيحيين الأرثوذكس فـي الدولة العثمانية وفي غضون الحرب العثمانية الروسـية، ظهرت حركتان اسـتقلاليتان عن الدولة العثمانية هـي: حركة علـي بـك الكبير في مصر وحركة الشـيخ ظاهر العمر في فلسـطين، وقد تمكن العثمانيون من القضاء عليها.

ابتـدأت محاولات الإصلاح الجدية في عهد السلطان سـليم الثالـث، الذي يُعد من أوائل المصلحين والروّاد الحقيقيين في التاريخ العثماني كله، وقد قلّده من جاء بعده، واستهدفت إصلاحاته نواحي الحياة كافة، إدارية وثقافية واقتصادية واجتماعية وعسـكرية[1] كانت ثقافـة هـذا السـلطان أكثـر اكتمالاً مـن ثقافة من سـبقه مـن السـلاطين، إذ تلقّى بعض التدريـب علـى الأفـكار الغربية، كمـا تلقى تعليمًا خاصًـا بالطرق الأوروبيـة، واطّلع على كتابـات المؤلفيـن الأوروبييـن، ويبدو أنه اسـتوعب الحالة المتدنية للدولة بشـكل أفضل مـن أسـلافه. وعندما اعتلى هذا السـلطان العرش كانت ثروات البـلاد قد وصلت إلى حالة متدنيـة، وكان العثمانيـون قد عادوا للحرب مع روسيا والنمسـا، ولم يكن باسـتطاعة أي سـلطان أن يقـوم بحملة إصلاحات ورحى الحـرب دائرة، لكن جاءت عنايـة القدر، عندما ظهرت الثورة الفرنسية وانشـغل الإمبراطور النمساوي بها، وخاف أن تمتد إلى بلاده، فعقد صلحًا مع العثمانيين أعاد إليهم بموجبه بلاد الصرب وبلغراد.

واجهت السلطان سليم الثالث في بداية حياته السياسية، المشـكلات التقليدية القديمة: تفوّق الغرب، والاتجاه المحافظ لشعبه، وكان بطبعه ميالاً للإصلاح بحيث لم يتردد في الأخذ ببعض الأنماط الغربية، بعد أن حصل على معلومات عن المؤسسـات المدنية والعسـكرية لدول أوروبا الغربية وأسباب تفوقها على العثمانيين. فجاء بفكرة الجنود النظامية ليتخلص من الإنكشـارية الذين أصبحوا منبعًا للفتن والهزائـم، وأصلح الثغور وبنى القلاع الحصينة لحمايتها وجعل إنشـاء السفن على الطريقة الفرنسية، واستعان بالسويد في وضع المدافع، وترجم المراجع العلمية في الرياضيات والفن العسـكري، كما وضع نظامًا هرميًا للقيادة العسـكرية، وأخضـع التجنيد لقواعد أكثر صرامة، ووضع نظامًا للجنود المشـاة تضمن تعليمـات لمسـاعدة الجنود علـى التصرف كوحدة، ودُعـي هذا النظام "بالنظـام الجديد". كان مـن الطبيعـي أن تبـرز المعارضة لإصلاحات السـلطان سـليم الثالث العسـكرية من

(1) Amira K. Bennison, "Muslim Universalism and Western Globalization," in Globalization in World History, ed. A. G. Hopkins, p. 89.

جانب المحافظين عند إدراكهم لنتائجها ، فنظر الإنكشارية إلى هذه الإصلاحات نظرة ارتياب خاصة بعد فصل السلطان الأسطول والمدفعية عن فرقتهم، فثاروا ومعهم الجنود غير النظاميين وأجبروا الخليفة على إلغاء النظام العسكري الجديد ، ولم يكتفوا بذلك بل عزلوا السلطان وقاموا بقتله لاحقًا بناءً على أمر خليفته ، ويُعتبر سليم الثالث السلطان العثماني الوحيد الذي قُتل بسلاح أبيض.

وكان من أبرز الأحداث التي حصلت في عهد سليم الثالث قيام الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت الأول، فتحول أعداء الأمس إلى حلفاء والعكس صحيح، حيث انهارت الصداقة العثمانية الفرنسية التي قامت منذ عهد السلطان سليمان القانوني، وتحالفت روسيا وبريطانيا مع الدولة العثمانية لإخراج الفرنسيين من مصر، وفي عهده أيضًا تكونت جمهورية مستقلة في اليونان تحت حماية الدولة العثمانية وبعد سليم الثالث تولّى مصطفى الرابع عرش آل عثمان، ولم يدم ملكه طويلاً قبل أن تثور الإنكشارية عليه ويقوموا بعزله وتنصيب أخيه محمود بدلاً منه. امتلأ عهد محمود الثاني بأحداث مهمة، سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي، فنتيجة للضعف الشديد الذي دب في أوصال الدولة العثمانية ظهر فيها اتجاهان: الاتجاه الأول: الذي أرجع ما وصلت إليه الدولة العثمانية من ضعف إلى الابتعاد عن الإسلام، والذي ما كان للمسلمين أن تقوم لهم قائمة في الأرض إلا بالتمسك به؛ والاتجاه الثاني: الذي يقوم على ضرورة تقليد أوروبا تقليدًا أعمى، لكي يصل العثمانيون إلى ما وصلت إليه من تقدم وازدهار وكان من نتيجة الإيمان بالاتجاه الأول أن قامت الحركة الوهابية في شبه الجزيرة العربية واجتذبت إليها الكثير من أهلها، ودعت إلى تطهير الإسلام من كامل الشوائب التي تعلقت به عبر القرون. ولما رأى السلطان محمود أنه من الضروري قمع هذه الفئة التي يخشى من امتدادها على تفريق كلمة الإسلام، كلّف محمد علي باشا، والي مصر ومؤسس أسرتها الخديوية العلوية، بمحاربتها والقضاء عليها، ففعل ما طُلب منه وأباد الحركة الوهابية، ثمّ شرع في إصلاح مصر وتنظيمها وفق النظام الأوروبي.

وفي بداية عهد محمود الثاني استقلّت عدّة دول أوروبية عن الدولة العثمانية، وكانت بداية انشقاق أوروبا الشرقية عن الدولة العثمانية عندما ثار الصربيون وطالبوا باستقلالهم، فقمعتهم الدولة العثمانية مرتين، وتعهدت ألا تتدخل في شؤون الصرب الداخلية، وأن تكون السيطرة للعثمانيين في الصرب على القلاع فقط سرعان ما أعقب هذه الثورة عصيان "علي باشا" والي مدينة يانية الألبانية، حيث امتنع عن دفع الخراج واحترام الأوامر التي تُرسل إليه

من الآستانة، فأرسل إليه السلطان جيشًا تمكن قائده من القبض عليه وإعدامه، وما فتئت المشاكل تنهال على الدولة العثمانية، فقد ثار اليونانيون طلبًا للاستقلال وهزموا فرقة عسكرية عثمانية أرسلت لقمعهم، فلم يجد السلطان لإخماد الثورة في اليونان غير محمد علي باشا والي مصر، فاستجاب الأخير لطلبه وأرسل سفنًا حربية محملة بالجنود إلى اليونان استطاعت أن تحقق انتصارات كاسحة على الثوّار. غير أن ثورة اليونانيين نجحت، واستطاع الثائرون أن يستقلوا ببلدهم عن الدولة العثمانية بعد المساعدات التي تلقوها من الدول الأوروبية. كذلك كان الأسطول العثماني قد تحطم في معركة نافارين عام ١٨٢٧م، على يد السفن البريطانية والروسية.

رابعًا: دور الأفول والتنظيمات (١٨٢٨ - ١٩٠٨م)

تتميز هذه المرحلة بانحدار الدولة العثمانية سريعًا وفقدانها لمعظم ممتلكاتها الباقية في أوروبا، وقيام السلطان محمود الثاني بعدد من الإصلاحات الكبيرة الهادفة لجعل الدولة تواكب أوروبا الغربية في التطور والازدهار وأوّل ما قام به السلطان محمود الثاني في هذا المجال كان إلغائه لطائفة الإنكشارية بعد أن أصبحت إحدى عوامل تخلّف وتراجع الدولة يقينًا، فاعترض الإنكشارية على ذلك وحاولوا التمرد وتجمعوا في أحد ميادين الآستانة، فحصدتهم المدفعية العثمانية حصدًا. أعلن السلطان بعد قضائه على الإنكشارية نظامًا جديدًا للجند قلّد فيه الأوروبيين، كذلك قام بعدد من الإصلاحات المدنية مثل إقامة المدارس الحديثة ورفع يد الهيئة الإسلامية عن الإشراف على التعليم، وإرسال بعثات طلابية إلى الخارج، واتجه بالبلاد إلى تقليد أوروبا حتى إنه تزيا بزيهم، واستبدل بالعمامة الطربوش، والعباءة والجلباب بالبذلة الغربية.

أعلنت روسيا الحرب على العثمانيين بعد أن رفضت الدولة العثمانية الاعتراف بقرارات مؤتمر لندن الذي نص على استقلال اليونان، وتمكنت من احتلال البغدان والأفلاق، بل وصلت إلى مدينة أدرنه وهددت الآستانة بالسقوط، فتدخلت بريطانيا وفرنسا لوقف تقدم روسيا خوفًا على مصالحها في الشرق، فعُقدت بين الروس والعثمانيين معاهدة أدرنه التي نصت على عودة المناطق التي احتلها الروس إلى الدولة العثمانية مقابل تمتع روسيا ببعض الامتيازات وتعويضها عن الخسائر التي تكبدتها في الحرب، واستقلال بلاد الصرب وتسليم ما تحتفظ به الدولة من قلاعها وفي أواسط سنة ١٨٣٠م، ساءت العلاقات بين الدولة العثمانية وفرنسا مجددًا، بعد أن نفذت الأخيرة ما كانت تنويه من مدّة، ألا وهو الاستيلاء على ولاية الجزائر بدعوى منع تعدي القراصنة المسلمين على مراكبها التجارية، وبذلك فقدت

الدولة العثمانية الجزائر إلى الأبد، على الرغم من استبسال المقاومة بقيادة الأمير عبد القادر الجزائري، الذي اضطر للاستسلام بعد أن دافع عن بلاده مدة سبع عشرة سنة.

استمرت المشاكل تنهال على الدولة العثمانية بعد سقوط الجزائر، وذلك أن والي مصر محمد علي باشا طمع في توسيع رقعة نفوذه بعد أن غدا أقوى ولاة السلطان العثماني في الشرق العربي، وكان السلطان محمود الثاني قد وعد محمد علي بأن يوليه على بلاد الشام لقاء خدماته الجليلة التي قدمها للدولة، لكنه عاد وأخلف وعده، إذ شعر أن وجود محمد علي في الشام خطرٌ على كيان السلطنة نفسها. فقرر محمد علي أن يجتاح بلاد الشام بالقوة، فوجه جيشه إلى فلسطين وأخضعها، ثم زحف على مدن الساحل اللبناني وفتحها الواحدة تلو الأخرى، وسرعان ما لحقت بها سوريا الوسطى والشمالية، وامتد زحف الجيش المصري إلى الأناضول حيث هزم الجيش العثماني حديث النشأة في قونية، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الآستانة، حتى خُيل للعالم في ذلك الوقت أن نهاية الدولة العثمانية أصبحت قريبة عقب هزيمة قونية، استنجد السلطان محمود الثاني بالدول الأوروبية للوقوف في وجه الخطر المداهم، فلم ينجده إلا روسيا، التي أرسلت ١٥ ألف جندي إلى الآستانة للدفاع عنها، فخشيت بريطانيا وفرنسا من امتداد النفوذ الروسي وتوسطت للصلح مع محمد علي، حيث أقر له السلطان بولاية مصر وجزيرة كريت وفلسطين ولبنان وأضنة، لقاء الأموال نفسها الأموال التي كان يؤديها عن الشام الولاة العثمانيون من قبل.

وفي غضون ذلك توسّع النفوذ الروسي في الدولة خصوصًا بعد أن أبرم السلطان معاهدة مع روسيا تعهدت فيها الأخيرة بالدفاع عن الدولة العثمانية لو هاجمها المصريون أو غيرهم. عمل السلطان محمود الثاني في أواخر أيامه على استعادة الشام ومصر، فجمع جيشًا جديدًا، ونشط عملاؤه في الشام يحرضون الشعب للثورة على المصريين، ثم سار الجيش وقام بهجوم عبر الفرات أسفر عن كارثة نزلت به، إذ بدده الجيش المصري في معركة نصيبين عام ١٨٣٩م. ولم تصل أنباء هذه الهزيمة إلى السلطان محمود الثاني، إذ توفي قبل ذلك بأيام.

خلف السلطان عبد المجيد الأول أباه السلطان محمود الثاني، وهو صبيّ لم يبلغ الثامنة عشرة من عمره، وكانت الدولة العثمانية على شفير الانهيار، إذ أصبحت بلا جيش، بفعل خسارة الجيوش العثمانية أمام المصريين، وتشتيت القوى المسلحة، وبلا أسطول، بفعل انضمام الأسطول العثماني طواعية إلى الأسطول المصري في الإسكندرية، فسارع السلطان الفتى إلى إجراء مفاوضات مع محمد علي، فاشترط الأخير، لعقد الصلح، أن

يكـون الحكـم في الشـام ومصر حقًـا وراثيًا في أسـرته، وكاد السـلطان عبـد المجيد يقبـل شـروط محمد علـي لو لم تصلـه مذكـرة مشـتركة من الـدول الأوروبيـة الكـبرى، عدا فرنسا، تطلب إليه بألا يتخذ قرارًا يتعلق بمحمد علي إلا بمشورتهم، ووعدوه بالتوسط بينه وبين محمد علي، فوافق على ذلك.

ثـم اجتمعـت كل من بريطانيا وروسـيا وبروسـيا والنمسـا وعقدوا اتفاقيـة صدق عليها العثمانيون، وعرضوها على محمد علي، وهي تنص على بقاء ولاية مصر وراثية في عائلته، وولاية عكا مـدى حياتـه، فرفض محمد علـي ذلك وطرد المندوبيـن الأوروبيين والمندوب العثماني من مصر، وبناءً على ذلك هاجمت البوارج الحربية البريطانية والنمساوية والعثمانية مدن السـاحل الشـامي واسـتطاعت أن تحرز انتصارًا كبيرًا على جيوش محمد علي بقيادة ابنه إبراهيم باشا، وأجبرته على العودة إلى مصر والانكماش فيها، وبذلك عادت الشام إلى ربـوع الدولـة العثمانيـة، وأصبحت سيادة الدولـة على مصر سـيادةً اسـميّة. توصلت الدول الأوروبيـة الكبـرى، بعد انتهاء الأزمـة العثمانية - المصرية، إلى عقـد اتفاقية جماعية مع الدولـة العثمانية، أُطلق عليها تسـمية "معاهـدة المضائق" أو "اتفاقية لنـدن للمضائق"، وقد أرسـت هـذه الاتفاقية نظامًـا للمضائق العثمانية ظـل مطبقًا بدون إدخـال تعديلات جوهرية عليه حتى قيام الحرب العالمية الأولى. حدث في عهد السـلطان عبد المجيد عدد من الفتن الداخليـة فـي الولايـات العثمانيـة، وازدادت الدولة ضعفًـا على ضعف، ممـا زاد من أطماع الدول الأوروبية فيها، فدُعيت باسـم "الرجل المريض"، وأخذ الأوروبيون يخططون لاقتسـام تركتها مستقبلاً.

اتخذت المسـألة الشـرقية في أواخر القرن الثامن عشـر، شـكلها الحديث، وبرزت مع بداية انحسار المد التوسعي العثماني عن أوروبا، ومع اتجاه العثمانيين المتزايد نحو فقدانهم تفوقهم العسـكري أمام الدول الأوروبية، وبخاصة روسيا والنمسا، وقد تحكمت بها ثلاثة عوامـل هـي: ضعف الدولة العثمانيـة المتزايد وظهور عدد من القوميات المسـيحية الصغيرة في شبه جزيرة البلقان والفتن الداخلية المستمرة في بعض الولايات، وقد سمحت جميع هذه العوامل للدول الأوروبية أن تتدخل في الشؤون الداخلية للدولة وتسيرها حسب مصالحها.

ومـن أبـرز الأحـداث التي اسـتغلتها أوروبـا للتدخل في الشـؤون العثمانيـة كانت الفتن الطائفية التي وقعت في بلاد الشـام خلال عقد الأربعينيات من القرن التاسـع عشـر، وبلغت ذروتها في جبل لبنان، فتدخلت فرنسـا بحجة حماية الكاثوليك وبشـكل رئيسي الموارنة، وتدخلت بريطانيـا لدعم الـدروز، وروسـيا لدعم الأرثوذكـس، فوقعت في البـلاد مذابح

عظيمة تخللتها سنوات قليلة من السلام، كما اتجهت الدولة نحو سياسة نقل أمور الولايات إلى سلطة داخلية فأنهوا حكم مماليك العراق في بغداد والبصرة وآل جليلي في الموصل في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كما قضوا على الإمارات الكردية شبه المستقلة في حكاري وسوران وباديان إثر ضغط دولي عقب مجازر بدر خان في الأربعينيات من نفس القرن. تُعدّ حرب القرم التي ابتدأت عام ١٨٥٤م بين روسيا والدولة العثمانية، من أهم مراحل المسألة الشرقية، فقد دفعت هذه الحرب بالعلاقات الدولية نحو التأزم، وغيّرت التحالفات السياسية، فوقفت بريطانيا وفرنسا إلى جانب الدولة العثمانية للدفاع عن سلامة أراضيها ضد الروس.

وتتلخص هذه الحرب في أن القيصر الروسي نيقولا الأول اعتقد أن بإمكانه أن يطرح قضية إنهاء المسألة الشرقية بشكل جذري، وأبدى نيته في اقتسام أملاك الدولة العثمانية، فعرض على بريطانيا تقسيم الدولة العثمانية بينهما، فرفضت، فحاول إغراء فرنسا بالإغراء نفسه، فرفضت أيضًا، فهددت روسيا باحتلال الأفلاق والبغدان إن لم تعد الدولة العثمانية للإمبراطورية الروسية حق حماية المسيحيين الأرثوذكس الذي فقدته وفق نص معاهدة المضائق، فلم يعرها السلطان أي اهتمام بعد أن وعدته بريطانيا وفرنسا بالدفاع عن الدولة ضد أي هجوم محتمل، فأقدمت روسيا على تنفيذ تهديدها، فتحالف العثمانيون مع بريطانيا وفرنسا والنمسا ومملكة البيدمونت بإيطاليا والسويد، وقصفت أساطيلهم ميناء سيفاستوبول في شبه جزيرة القرم، وضربت الكثير من قلاعه بالإضافة للإغارة على الكثير من موانئ روسيا على البحر الأسود، وتوغلت القوات المتحالفة في أراضي روسيا حتى طلبت الصلح، فعُقدت معاهدة سلام في باريس أنهت الحرب وأنقذت الدولة العثمانية من الخطر الروسي الذي كان يتهددها، وبات من المنتظر أن تغدوا بلدًا متحدًا يأخذ بركب الحياة الدستورية كما عرفها الغرب، وتنضم إلى سائر أعضاء المنظمة الدولة على قدم المساواة.

وفي أواخر عهد السلطان عبد المجيد الأول، نشبت فتنة طائفية كبرى في الشام، وتحديدًا في دمشق وسهل البقاع وجبل لبنان بين المسلمين والمسيحيين عمومًا، والدروز والموارنة خصوصًا فوقعت مذابح مؤلمة وبلغ عدد القتلى اثني عشر ألفًا، وكان ممثلو بريطانيا وفرنسا يشجعون الفريقين على الانتقام ويساعدونهم على الثأر، فخشي السلطان أن تؤدي هذه الفتنة إلى تدخل الدول الأجنبية العسكري، فأوعز إلى المسئولين العثمانيين في بيروت ودمشق بوجوب إخمادها حالاً، وأوفد في الوقت ذاته وزير الخارجية فؤاد باشا الذي عُرف بالدهاء والحزم، وخوله سلطات مطلقة لمعالجة الموقف، فقام

بمهمتـه خير قيام وأعدم معظم الذين تسـببوا بالمذابح وسـجن الباقيـن ونفى بعضهم وأعاد بعض المسـلوبات إلى أصحابها من المنكوبين المسـيحيين، وجمع تبرعات كثيرة أنفقها علـى ترميم القـرى. وكانت الدول الأوروبية قد ضغطت على السـلطان وحملته على القبول بتشـكيل لجنة دولية يوكل إليهـا أمر إعادة الهدوء إلى جبل لبنان ودمشـق، وتصفية ذيول الفتنة. توفي السلطان عبد المجيد يوم ٦ يونيو سنة ١٨٦١م، الموافق فيه ١٧ ذي الحجة سنة ١٢٧٧هـ، عـن أربعين سـنة، بعد أن قـام ببعض الإصلاحـات الكبيرة في الدولـة، أبرزها فرمانه الشـهير الصادر سـنة ١٨٥٦م، الذي سـاوى فيه بين جميع رعايا الدولة مهما اختلفت عقيدتهـم الدينية، فتحسـن وضع المسـيحيين بشـكل أكبـر، وازدادت نسـبة المتعلمين منهم، الأمر الذي ساهم في إنعاش اقتصاد الدولة لاحقًا.

بويع السـلطان عبد العزيز الأول بالخلافة وعرش آل عثمان بعد وفاة أخيه عبد المجيد، وممـا يذكـر فـي عهده: افتتاح قنـاة السـويس وقيام ثورة فـي جزيرة كريت تـم إخمادها.[١١٥] وكان هـذا السـلطان كثيـر التجوال فـي البـلاد الخارجية، فزار مصروزار فرنسـا، وحـاول تقريب روسـيا إليه حتـى تخافـه دول أوروبـا، لكنـه عُزل بنـاءً على فتوى شـرعية بسـبب تبذيره أمـوال الدولة، كما تنص بعـض المصادر، وعُثر عليه ميتًـا في غرفته فقيل أنه انتحر وقيل أنه قُتل، وتولّى بعده شقيقه مراد، ولم يستمر عهده أكثر من ٣ أشهر، وتم عزله بسبب اختلال عقله.

وبعد مـراد الخامس بويع عبـد الحميـد الثاني بالخلافـة وعـرش السـلطنة، وفـي ذلـك الحيـن كانـت البلاد تمـر في أزمات حـادة ومصاعب مالية كبيرة، وتشـهد ثـورات عاتية في البلقان تقـوم بهـا عناصر قومية تتوثـبّ لتحقيق انفصالها، وتتعرض لمؤامرات سياسـية بهـدف اقتسـام تركة "الرجل المريـض". ومنذ اليوم الأول لارتقائه العرش، واجه السـلطان عبد الحميد موقفًا دقيقًا وعصيبًا، فقد كانت الأزمات تهدد كيان الدولة، وازدادت سرعة انتشـار الأفكار الانفصالية، وأصبح للوطنية معنى جديد أخذت فكرته تنمو وتترعرع في الولايات العثمانية، ووجد السـلطان نفسـه مشـبع بالثـورة والاضطراب فقد تجـددت الثورة في إقليميّ البوسـنة والهرسـك، واسـتمرت في بلغاريا، وكان الصرب والجبل الأسـود في حالة حرب مع الدولة. ولهذه الأسباب تدخلت الدول الأوروبية لاستغلال الموقف بغية تحقيق مصالحها بحجة إحلال السـلام. فشـجعت روسيا والنمسا الصرب والجبل الأسود على حرب العثمانيين، حيث رغبت النمسـا بضم البوسنة والهرسـك، بينما رغبت روسيا بضم الأفلاق والبغـدان وبلغاريا، ووعدت روسـيا النمسـا والصرب والجبل الأسـود بالوقـوف بجانبهم إذا

قامت حرب بينهم وبين العثمانيين وبالفعل قامت الحرب بين الدولة العثمانية وتلك الدول، إلا أن الجيوش العثمانية استطاعت الانتصار ووصلت إلى مشارف بلغراد، غير أن تدخل أوروبا أوقف الحرب.

قدّمت الدول الأوروبية الكبرى لائحة للدولة العثمانية تقضي بتحسين الأحوال المعيشية لرعاياها المسيحيين، ومراقبة الدول الأوروبية لتنفيذ إجراءات التحسين، فرفضت الدولة اللائحة؛ لأن هذا يعتبر تدخلاً صريحًا في شؤونها، فاستغلت روسيا الرفض واعتبرته سببًا كافيًا للحرب، وفي هذه المرة أطلقت أوروبا العنان لروسيا لتتصرف كيفما تشاء مع العثمانيين، فاحتلت الأفلاق والبغدان وبلغاريا ووصلت أدرنة وأصبحت على بعد ٥٠ كيلومترًا فقط من الآستانة، كذلك دخلت جيوشها الأناضول، وعادت الصرب والجبل الأسود لتعلن الحرب على الدولة العثمانية، فاضطرت الأخيرة إلى طلب الصلح، وأبرمت معاهدة سان ستيفانو مع روسيا، التي اعترفت فيها باستقلال الصرب والجبل الأسود والأفلاق والبغدان وبلغاريا، ثمّ تمّ تعديل هذه المعاهدة في مؤتمر عُقد في برلين تمّ بموجبه سلخ المزيد من الأراضي عن الدولة العثمانية. كشفت قرارات مؤتمر برلين عن ضعف الدولة العثمانية، فاستغلت الكيانات السياسية والقومية هذا الضعف، وقامت بانتفاضات على الحكم المركزي بهدف الحصول على الاستقلال الكامل، ودعمتها أوروبا في سبيل تحقيق ذلك، وهكذا توالت الأزمات السياسية في وجه السلطان عبد الحميد الثاني بعد الحرب العثمانية الروسية ومؤتمر برلين. انضمت تونس إلى قائمة الأقاليم التي فقدتها الدولة العثمانية لصالح أوروبا في عهد عبد الحميد الثاني عندما احتلتها فرنسا، ثم لحقتها قبرص التي احتلتها بريطانيا، وأتبعتها بمصر والسودان، بحجة حماية الدولة العثمانية من أي اعتداء.

لعلّ أهم الأحداث التي جرت في عهد عبد الحميد هي الأزمة الأرمنية وقيام الحركة الصهيونية، ويتفق المؤرخون، المسلمون منهم خاصةً، أن هذين الحدثين هما ما ساهم في تشويه صورة الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد الثاني. وتفصيل الأزمة الأرمنية أن الأرمن طالبوا بعد مؤتمر برلين باستقلالهم، خاصة أن السلطان لم يقم بتطوير يُذكر لأوضاعهم، وعملت البعثات التنصيرية الأوروبية والأمريكية على إذكاء الشعور القومي الأرمني، وفي الوقت نفسه اعتقدت الدوائر الحاكمة في الآستانة أن بعض الأرمن يعملون كعملاء لروسيا وبريطانيا، وساورها الشكوك حول ولائهم، ومن ثم نظرت إليهم على أنهم خطر يهدد كيان الدولة ومستقبلها وأمنها. وتصاعد التوتر في بلاد الأرمن، ولم تلبث أن عمّت الاضطرابات، فخرج حوالي ٤٠٠٠ أرمني عن طاعة السلطان في بدليس بعد تأخر

الإصلاحات الموعودة، فقام العثمانيون بالرد على ثورة الأرمن بأن أرسلوا جيشًا مؤلفًا بمعظمه من الأكراد إلى مناطق الثورة حيث دمّروا العديد من القرى الأرمنية وقتلوا كثيرًا من الثوّار ومن ساندهم، فيما أصبح يُعرف باسم "المجازر الحميدية"، وتطور العنف ليشمل المسيحيين بشكل عام كالسريان كما في مجازر ديار بكر. أما الحركة الصهيونية، فنشأت بقيادة ثيودور هرتزل، ودعت إلى إنشاء وطن قومي ليهود العالم في فلسطين الخاضعة للدولة العثمانية وتشجيع اليهود على الهجرة إليها، فأصدر السلطان عبد الحميد فرمانًا يمنع هجرة اليهود إلى الأراضي المقدسة، لكنه اضطر في نهاية المطاف إلى التهاون معها تحت ضغط الدول الأوروبية، وخاصةً بريطانيا[1].

خامسًا: دور الانحلال وخاتمة الدولة (١٩٠٨ - ١٩٢٢م)

كانت الأفكار القومية قد تغلغلت بشكل كبير في جسم الدولة العثمانية أواخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وأنشأ الداعون لهذه المفاهيم المؤسسات والجمعيات التي تحمل أفكارهم، وكان من أهم هذه الجمعيات جمعية تركيا الفتاة، التي تأسست في باريس وكان لها فروع أخرى في برلين، وفي أنحاء الدولة العثمانية في سالونيك والآستانة، واستطاعت أن تضع لها قدمًا في الجيش العثماني، وكان لها جناح عسكري عرف بتنظيم الاتحاد العثماني وكان لها جناح مدني هو الانتظام والترقي، واتفق الفريقان أن تكون جمعيتهم باسم "الاتحاد والترقي". وامتد نفوذ الاتحاد والترقي في الدولة، فضم إليه الكثير من ضباط الفيلق الأول المسيطر على الآستانة، وكذلك الفيلقين الثاني والثالث المرابطين في الولايات العثمانية الباقية في أوروبا. وقد حاول السلطان عبد الحميد مقاومة هذه الجمعيات، فنادى وتمسّك بفكرة الجامعة الإسلامية، لكنه فشل أمامهم، خصوصًا بعد أن سيطروا على أكثر الجيش. فرض الاتحاديون على السلطان إعلان دستور جديد للبلاد يخلف الدستور الأول أو "القانون الأساسي" الذي أعلنه سنة ١٨٧٦م، فذعن لمطلبهم

(١) قاوم السلطان عبد الحميد الثاني فكرة اليهود الهادفة إلى إقامة دولة لهم في فلسطين بما أوتي له من قوة، فرفض في عام ١٨٧٦م عروض "حاييم كوديلا" لشراء مساحات من الأراضي في فلسطين، لإسكان المهاجرين اليهود فيها، وقد لجأ اليهود إلى سفراء الدول الأوروبية وروسيا والولايات المتحدة في الآستانة لإقناع السلطان بالسماح لهم بالهجرة. ونتيجة لازدياد شعور السلطان بالتحرك اليهودي، أبلغ المبعوث اليهودي "أوليفانت" أن باستطاعة اليهود العيش بسلام في أية بقعة من أراضي الدولة العثمانية إلا فلسطين، وأن الدولة تُرحب بالمضطهدين، ولكنها لا تُرحب بإقامة دولة دينية يهودية في البلد المذكور. وقد حاول بعض اليهود تحدي قرار الباب العالي بالنزول في يافا، فتصدت لهم السلطات العثمانية ومنعت دخولهم، وبخاصة الروس منهم، إلى مدينة القدس. لكن السلطان عاد وسمح لليهود بسكن القدس لمدة شهر واحد فقط أثناء حجهم إليها، تحت ضغط الدول الأوروبية، ثم عاد وجعل هذه الفترة ٣ أشهر. وقد سافر ثيودور هرتزل إلى الآستانة وحاول الاجتماع بالسلطان، لكن الأخير رفض مقابلته، وحين تمكن هرتزل من الاجتماع به أخيرًا عرض عليه خمسين مليونًا من الجنيهات الذهب لخزانة الدولة، وخمسة ملايين من الجنيهات الذهب لخزانة السلطان الخاصة، بالإضافة إلى مشاريع أخرى كثيرة لدعم الدولة العثمانية اقتصاديًا، مقابل تنازلها عن فلسطين، لكن السلطان رفض رفضًا قاطعًا.

وأعلن الدستور، فسيطر الاتحاديون على معظم مقاعد المجالس النيابية، ووجدوا أن السلطان سيكون عائقًا في تحقيق أهدافهم، فعزلوه وولوا أخاه محمد الخامس مكانه.

تولّى محمد "رشاد" الخامس العرش والدولة في احتضار، ولكنها كانت ما تزال متماسكة، وأصبح الاتحاديون هم الحكام الفعليين للبلاد، أما السلطان فكان مجرّد ألعوبة في أيديهم، وفي ذلك الوقت كانت الدولة قد أضاعت كثيرًا من بلادها في أوروبا، والأفكار القومية تنتشر يومًا بعد يوم، والبلاد في حالة إفلاس بسبب الحروب المتواصلة، والأوروبيون قد تسلطوا على مالية الدولة لاستيفاء ما لهم عليها من ديون وفي نفس السنة لاعتلاء محمد رشاد العرش، سيطرت الإمبراطورية النمساوية المجرية على البوسنة والهرسك، وبعد ثلاث سنوات هاجمت إيطاليا ليبيا، آخر الممتلكات العثمانية الفعلية في شمال أفريقيا، فقاومها العثمانيون بكل طاقتهم، لكنهم لم يستطيعوا شيئًا، فسقطت البلاد بعد سنة من المعارك الشديدة. ثم جاءت حرب البلقان الأولى التي تولّى كبرها كل من مملكة صربيا ومملكة الجبل الأسود ومملكة اليونان ومملكة بلغاريا، وفقدت فيها الدولة العثمانية ما تبقى لها من ممتلكات في البلقان عدا تراقيا الشرقية ومدينة أدرنة، وانسحب حوالي ٤٠٠,٠٠٠ مسلم من سكّان تلك البلاد إلى تركيا خوفًا من ما قد تُقدم عليه جنود العدو وفي تلك الفترة ظهرت النزعة التركية الطورانية بقوة وعنف؛ وسعى حزب الاتحاد والترقي إلى تتريك الشعوب غير التركية المشتركة مع الأتراك في العيش تحت ظل الدولة العثمانية، مثل العرب والشركس والأكراد والأرمن وفي سنة ١٩١٣م عقد الوطنيون العرب مؤتمرًا في باريس، واتخذوا مقررات أكدوا فيها على رغبة العرب في الاحتفاظ بوحدة الدولة العثمانية بشرط أن تعترف الحكومة بحقوقهم، كون العرب أكبر الشركاء في الدولة، وطالب هؤلاء أن تُحكم الأراضي العربية حكمًا ذاتيًا وفق نظام اللامركزية، وقد وعد الاتحاديون الزعماء العرب الأحرار بقبول مطالبهم، لكن ذلك لم يتحقق بفعل نشوب الحرب العالمية الأولى.

سادسًا: الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨م)

انطلقت شرارة الحرب الأولى في ٢٨ يونيو عام ١٩١٤م عندما كان الأرشيدوق فرانز فرديناند، وليّ عهد العرش النمساوي المجري يقود سيارته في مدينة سراييفو في البوسنة الخاضعة للنمسا، فاغتاله أحد القوميين الصرب، فاعتبرت الإمبراطورية النمساوية المجرية صربيا مسئولة عن هذا الاغتيال، فتدخلت روسيا لدعم صربيامدعومة من فرنسا وتحركت ألمانيا ضدهما، وما لبثت أن دخلت بريطانيا الحرب بعد ذلك بفترة

قليلة، ومن ثم تشكلت الأحلاف، فدخلت الدولة العثمانية الحرب إلى جانب معسكر دول المحور، أي ألمانيا والنمسا وبلغاريا، بعد أن فقد العثمانيون الأمل في محاولات التقارب مع بريطانيا وفرنسا، وفشلوا في الحصول على قروض عاجلة منهما لدعم الخزينة، وعُزلت الدولة سياسيًا بعد حروب البلقان وإيطاليا؛ فلم يكن لهم سوى خيار التقارب مع ألمانيا التي رأت مصلحتها في "الانتشار نحو الشرق. وفي ١٠ أغسطس سنة ١٩١٤م، دخلت الدولة العثمانية الحرب بشكل فعليّ، بعد أن سمحت لبارجتين ألمانيتين كانتا تطوفان البحر المتوسط، بعبور مضيق الدردنيل نحو البحر الأسود هربًا من مطاردة السفن البريطانية. وخطا الباب العالي خطوة مهمة باتجاه الاشتراك بالحرب، حيث أعلن الصدر الأعظم إلغاء الامتيازات الأجنبية، ملبيًا بذلك إحدى المطالب الرئيسية للقوميين الأتراك، ثم اتخذ خطوة أخرى في طريق التحدي بإغلاقه المضائق بوجه الملاحة التجارية، كما ألغى مكاتب البريد الأجنبية وجميع السلطات القضائية غير العثمانية بعثت الانتصارات الألمانية الخاطفة على الجبهة الروسية الأمل في نفوس الاتحاديين، بشأن إمكانية استعادة الأراضي العثمانية المفقودة لصالح روسيا المهزومة، فهاجم الأسطول العثماني الموانئ الروسية في البحر الأسود، وقد شكّل ذلك أمرًا واقعًا زج بالدولة العثمانية في الحرب، فأعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية، واقتدت بها كل من بريطانيا وفرنسا، وردّ السلطان محمد الخامس بإعلان الحرب، ودعا المسلمين إلى الجهاد، إلا أن ذلك لم يتحقق، فأغلب مسلمي العالم كانوا يرزحون تحت نير الاستعمار البريطاني أو الفرنسي، وكانت السلطات الاستعمارية قد جندت بعضًا منهم أيضًا في جيوشها خاضت الجيوش العثمانية الحرب على جبهات متعددة من دون استعداد كامل، فعلى الجبهة الروسية مُنيت الحملة العثمانية بهزيمة فادحة، حيث فتك القتال والصقيع والوباء بتسعين ألف جندي عثماني، وفي الجنوب نزل البريطانيون في الفاو على الخليج العربي واستولوا على العراق، أما عملية قناة السويس فجرت قبل الموعد المحدد، وفيها اتفق العثمانيون مع المصريين على قتال البريطانيين، لكنها أسفرت عن هزيمة العثمانيين وأودت بحياة الكثيرين دون طائل. وقام أسطول الحلفاء بمهاجمة مضيق الدردنيل في خطوة للاستيلاء على الآستانة وإخراج الدولة العثمانية من الحرب، وإمداد الجبهة الروسية، لكن هذا الأسطول الضخم عجز عن اجتياز المضيق وهزم العثمانيون طاقمه هزيمة كبيرة في معركة بريّة، كانت النجاح الوحيد لهم في مقابل سلسلة من الإخفاقات، وبرز في هذه المعركة القائد مصطفى كمال.

وأثيرت أثناء المعارك، التي اندلعت على الجبهة الشرقية وهجوم الحلفاء في الدردنيل

وغاليبولي، قضية الأرمن مرة أخرى، إذ قام الاتحاديون بنقل سكان المناطق الأرمنية في ولايات الشرق وكيليكيا والأناضول الغربية إلى بلاد الشام، بهدف تأمين حياة السكان المدنيين وحماية القوات المسلحة من خيانة محتملة من جانب العناصر الموالية لروسيا وكان بعض الأرمن قد تطوعوا في الجيش الروسي، وقتلوا عددًا من السكان المسلمين في الأناضول الشرقية، ونتيجة لذلك تعرّض المرحلون لعمليات تعذيب وقتل فيما أصبح يُعرف باسم "مذابح الأرمن، بعد فشل الحملة العثمانية على مصر، جرت اتصالات سريّة بين البريطانيين في مصر والشريف حسين بن علي والي الحجاز، وبعض الزعماء العرب، وتمّ الاتفاق بين الفريقين على أن يثور العرب على الأتراك وينضموا إلى الحلفاء مقابل وعد من هؤلاء بمنح العرب الاستقلال وإعادة الخلافة إليهم. وتنفيذًا لهذا الاتفاق أعلن الشريف حسين في يونيو سنة ١٩١٦م الثورة العربية على الأتراك، فأخرجهم من الحجاز وأرسل قوّاته شمالاً بقيادة ولديه فيصل وعبد الله لتشارك القوات البريطانية في السيطرة على بلاد الشام. وفي غضون ذلك سُحقت المقاومة البلغارية في البلقان، مما أرغم حكومة صوفيا على طلب الهدنة، فأدرك الباب العالي خطورة الموقف، لأن الحرب أضحت قريبة من الأراضي التركية، ويمكن للعدو أن يتغلغل بحريّة في تراقيا الشرقية ويزحف حتى أبواب الآستانة، فأبرم العثمانيون معاهدة مودروس مع الحلفاء، خرجوا بموجبها من الحرب.

سابعًا: حرب الاستقلال التركية (١٩١٩ - ١٩٢٢م)

توفي السلطان محمد الخامس قبل أشهر من انتهاء الحرب، وخلفه أخاه محمد "وحيد الدين" السادس. وبعد مرور شهر على توقيع هدنة مودروس، دخلت البحرية البريطانية والفرنسية والإيطالية ثم الأمريكية إلى القرن الذهبي، وأنزلت قواتها في الآستانة التي حوّلتها إلى قاعدة لنشاط الحلفاء في المنطقة كلها. سيطر الحلفاء على موانئ البحر الأسود كلها، واقتسموا الأراضي التركية، فاحتل الفرنسيون مرسين وأضنة، والإيطاليون أنطاكية وكوشا داسي وقونية، واحتل اليونانيون القسم الغربي من الأناضول، بالإضافة إلى تراقيا. كان ردّ الفعل الداخلي لاتفاق الهدنة سلبيًا، فقد رفض الأتراك الخضوع للاحتلال والقبول بمشاريعه، فقامت ثورة وطنية في جميع أنحاء البلاد احتضنتها الحركة الوطنية بزعامة القائد مصطفى كمال، والتي عُرفت باسمه "الحركة الكماليّة"، لتواجه خضوع الحكومة لرغبات الحلفاء وتعاون السلطان محمد السادس مع المحتلين، ومحاولات اليونان توسيع المناطق التي احتلتها، وازدياد الثورات الأرمنية. وعقدت الحركة الكمالية مؤتمرات عديدة في طول البلاد وعرضها لاستنهاض

الوعي القومي وإنقاذ البلاد من التقسيم، وتشكّلت حكومة وطنية برئاسة مصطفى كمال بهدف إقامة دولة تركية مستقلة، ألغت جميع القوانين والتعليمات التي أصدرتها الحكومة السابقة، ووضعت السلطان وحكومته خارج إطار القانون، وقد حاول السلطان القضاء على هذه الحركة فلم يُفلح.

وفي تلك الفترة فُرضت معاهدة سيفر على السلطان، التي مزّقت أوصال الدولة، وقد وقّع عليها مرغمًا، في حين رفضتها الحكومة الكمالية، ووضعت مخططًا لإنقاذ تركيا بمعزل عن السلطان. تمكّن مصطفى كمال بعد جهود مضنية واصطدامات شديدة مع اليونانيين، من الانتصار، فاستعاد كمال الأراضي التي احتلوها، وفرض على الحلفاء توقيع هدنة جديدة اعترفت فيها اليونان بانتصارات تركيا، فأضحى مصطفى كمال بطلاً قوميًا، وبرز في الواجهة السياسية في حين ظل السلطان في الظل، فما كان منه إلا أن تنازل عن العرش واعتزل الحياة السياسية، وغادر البلاد على ظهر بارجة بريطانية نقلته إلى جزيرة مالطة، في ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢٢م، الموافق فيه٢٧ ربيع الأول سنة ١٣٤١هـ.

اعتلى عرش السلطنة العثمانية، بعد تنازل السلطان محمد السادس، وليّ العهد عبد المجيد الثاني، وبعد أن أصبح مصطفى كمال سيد الموقف، وقّع معاهدة لوزان مع الحلفاء التي تنازل بمقتضاها عن باقي الأراضي العثمانية غير التركية، ثم جرّد السلطان من السلطة الزمنية وجعله مجرّد خليفة، أي أشبه بشيخ الإسلام، ولكن من غير سلطة روحيّة أيضًا. ثم ألغى الخلافة سنة ١٩٢٤ وطرد عبد المجيد من البلاد، وبهذا سقطت الدولة العثمانية فعليًا بعد أن استمرت لما يقرب من ٦٠٠ سنة، وانهارت معها الخلافة الإسلامية بعد أن استمرت ما يزيد عن ألف سنة. وقد رثا أمير الشعراء أحمد شوقي الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية بأبيات من الشعر قال فيها:

وبكت عليك ممالك ونواح	**ضجت عليك مآذن ومنابر**
تبكي عليك بمدمع سحّاح	**الهند وآلهة ومصر حزينة**
أمحا من الأرض الخلافة ماح؟!	**والشام تسأل والعراق وفارس[1]**

واتخذ "مصطفى كمال" عدة خطوات بعد أن صار رئيسًا للجمهورية التركية وعدة إجراءات بكتابة اللغة التركية الأبجدية اللاتينية بدل الأبجدية العربية، وذلك عام ١٩٢٨م، ونبذ الطربوش لباسًا للرأس وإحلال القبعة مكانه، وتتريك الأسماء والألقاب، وصار هو

(١) أحمد شوقي بك: الشوقيات، ج١.

نفسه يعرف من عام ١٩٢٤م باسم "كمال أتاتورك"، أي أبو الأتراك، وصار اسم رفيق كفاحه "عصمت باشا" يعرف "عصمت إينونو" نسبة إلى معركة إينونو المشهورة في هزيمة اليونان بالأناضول خلال حرب التحرير.

وبتولية "مصطفى كمال" أتاتورك رئاسة الجمهورية التركية انتهى عهد الدولة العثمانية الممتد من عام ١٣٠٠ حتى عام ١٩٢٤م، ليبدأ عهد الجمهورية التركية في تاريخها المعاصر الممتد من عام ١٩٢٤م حتى الآن(١).

وهكذا سارت الأمور في الدولة العثمانية منذ تزعمها أرطغرل وابنه الأمير عثمان أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، حتى سقوطها على يد حركة الاتحاد والترقي ومصطفى كمال عقب سنوات الحرب العالمية الأولى والصراع ضد السلاطين، ثم ضد قوات الاحتلال الأوروبية.

كانت ميادين الصراع التى دخلتها الدولة العثمانية باسم الإسلام عديدة ومتنوعة في شبه جزيرة آسيا الصغرى والبلقان وشرق أوروبا حتى وسطها عند أسوار مدينة فينا، وفي بلاد فارس ضد الخطر الشيعي على الدولة العثمانية السنية وغيرها من بلاد الشام والعراق ومصر، وفي شمال أفريقيا العربية الإسلامية ضد الخطر الصليبي البرتغالي الأسباني وفرسان القديس يوحنا.

وقد استأثرت منطقة الخليج العربي باهتمام السلاطين العثمانيين ورجال الدولة رغم هذا الزخم من الميادين، وقد بدأ هذا الاهتمام منذ أوائل القرن السادس عشر لمواجهة الغزو البرتغالي الغاشم في المحيط الهندي والبحر الأحمر على الخليج العربي، ولكن الاهتمام زاد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لمواجهة الغزو والاحتلال الأوروبي: الهولندي ثم البريطاني.

ثامنًا: أحوال الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد العزيز ١٨٦١ - ١٨٧٦م:

شهدت الدولة العثمانية منذ عام ١٨٣٩م حركة للإصلاح الإداري بما يحقق حماية لجميع رعايا الدولة بصرف النظر عن انتماءاتهم العرقية أو الدينية أو الجغرافية ومنحهم حقوقًا متساوية في جميع نواحي الحياة، عرفت هذه الإصلاحيات باسم التنظيمات، وذلك تحت ضغوط أوروبية لتحقيق حماية للأوروبيين في الولايات العثمانية في شرق أوروبا والمسيحيين في البلاد العربية المشمولين بحماية ورعاية الدول الأوروبية.

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ: تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص٣٠.

كما أحدثت حركة التنظيمات بعض التغيرات الأساسية في إدارة الدولة، حيث تأسس شكل إداري يحقق السلطة المطلقة لمركز الدولة، كما اهتمت بتأسيس جامعة ومدارس أولية ومتوسطة ورشدية، إلا أنه حدثت مشكلات للدولة من جانب الدول الأوروبية التى تصارعت حول أملاك الدولة العثمانية سواء في أوروبا أو في الوطن العربي: في لبنان وسوريا والعراق ومصر.

وخلال حرب القرم (١٨٥٣ - ١٨٥٦م) مرت الدولة العثمانية بأزمة اقتصادية كبيرة اضطرتها لأول مرة للاستدانة الخارجية، وقد زاد من هذه الأوضاع الاقتصادية والمالية السيئة في الدولة، حالة الإسراف التى انتشرت بين رجال الدولة وبين الرعايا، والابتعاد عن العادات اليومية البسيطة وانتشار أنماط المعيشة ذات التكاليف الباهظة التى اتخذت من أوروبا مثالاً يحتذى به وبصدور فرمان الإصلاحات في لندن وباريس وفرض على الدولة العثمانية وهو لمصلحة الرعايا غير المسلمين الذين يعيشون في أملاك الدولة العثمانية وبالتالي تمزيق أجزاء الدولة، ومن ثم وقع المجتمع المسلم في الدولة العثمانية تحت النفوذ الاقتصادي الأوروبي، وكانت الامتيازات التى انتزعتها الدول الأوروبية في المجالات القضائية والسياسية والتعليمية والدينية من الدولة العثمانية، فاتحة ارتباط المجتمع المسلم بالمجتمعات الأوروبية[1].

وعلى المستوى الداخلي في الدولة العثمانية ظهرت أول محاولة لتأسيس تنظيم سياسي واجتماعي يعمل ضد نظام الدولة الجديد، وذلك عام ١٨٥٩م، وكان هذا التنظيم بزعامة الشيخ أحمد وهو تنظيم سري انضم إليه مجموعة من الضباط العثمانيين الكبار ومن كبار الموظفين وكبار التجار والأعيان ولكن هذا التنظيم فشل في تحقيق أهدافه بالتخلص من السلطان العثماني عبد المجيد صاحب فرماني التنظيمات لعام ١٨٣٩م والإصلاحات عام ١٨٥٦م وقد توفي السلطان عبد المجيد في ٢٥ يونيو ١٨٦١م ليخلفه السلطان عبد العزيز.

وقد حدثت خلال فترة حكم السلطان عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦م) عدة أحداث خطيرة لها انعكاساتها على المجتمع العثماني، كان منها مسألة استمرار الحركات الإصلاحية في الدولة أو عدم استمرارها، وكان منها أيضًا الصراع بين السلطان وإدارة الدولة التى تزعمها الصدر الأعظم، وكان منها كذلك مسألة كيفية تسديد الديون الخارجية التى اقترضتها الدولة سابقًا من البنوك الأوروبية.

---

(١) كمال قارباط: الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، المبحث الرابع، من كتاب دراسات في التاريخ العثماني، ترجمة وتقديم وتعليق دكتور سيد محمد السعيد، دار الصحوة، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٢٥٢ - ٢٦٨.

وكان السلطان عبد العزيز حريصًا على الإمساك بالسلطة المطلقة وعلى منع الصدر الأعظم من الانفراد بالحكم والإدارة، وقد زادت الديون الخارجية للدولة زيادة ملحوظة، بسبب تمسك السلطان عبد العزيز بالمصروفات العسكرية والكبيرة لتقوية الدولة عسكريًا، في الوقت الذي تمكنت فيه الطوائف النصرانية - عدا اليهود - التي تعيش في الدولة العثمانية من تغيير بنائها وتشكيلاتها الداخلية بسرعة، وقد تطور فكر القومية بين رعايا الدولة من غير المسلمين تطورًا معتمدًا على الدين أكثر من اعتماده على عناصر اللغة والجنس[1].

وقد ظهرت في أواخر عهد السلطان عبد العزيز حركة مناهضة لاستبداد السلطان عبد العزيز عرفت باسم "كينج عثمانلير" أي الشبان العثمانيين، وتسعى لإعطاء المسلمين العثمانيين حقوقهم كمواطنين من الدرجة الأولى، ومقاومة التدخل الأوروبي في الشئون الداخلية للدولة، كان من زعماء هذه الحركة كل من: مدحت باشا وعلى سعاوي وإبراهيم شناس وغيرهم، والذين رأوا ضرورة وضع دستور على النسق الأوروبي، والذي عرف بالمشروطية لأنه يقوم على الحد من صلاحيات السلطان ووضع نظام مراقبة جديدة في الدولة، ومحاولة حل مشكلات المجتمع العثماني الذي بدأ في التغيير.

جاء ظهور مدحت باشا إذن مع ظهور جماعة أو تنظيم الشبان العثمانيين والذي شارك في إنزال السلطان عبد العزيز من عرش السلطنة العثمانية ورفع السلطان مراد الخامس الذي ظل في الحكم لمدة ثلاثة شهور ليرتفع السلطان عبد الحميد الثاني إلى عرش السلطنة في سبتمبر ١٨٧٦م، على يد رجال الدولة من أنصار المشروطية لمعرفتهم عنه أنه مجيء للإصلاح، فنشر السلطان عبد الحميد القانون الأساسي الذي أعده مدحت باشا، وأعلن المشروطية "الدستور" أثناء انعقاد المؤتمر الأوروبي في استانبول في ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦م والذي كان يهدف إلى إعطاء الأقاليم الأوروبية - البوسنة والهرسك والبلغار - حقوقًا تصل بهم إلى الاستقلال، وبهذا نسف إعلان دستور مدحت باشا التآمر الأوروبي، حيث إن الدستور كان يؤكد على مبدأ وحدة أراضي الدولة العثمانية[2].

وإذا كان لمدحت باشا فضل إعداد المشروطية "الدستور" بتأييد من جماعة التنظيم (الشبان العثمانيين)، فإن تنفيذ الدستور بدأ بتشكيل مجلس نيابي مشترك مزدوج من الأعيان ومن المبعوثان في الدولة، وانعقاده الأول في عام ١٨٧٧م، ولكن السلطان عبد

(١) المرجع السابق: ص٢٧٠ - ٢٨٠.

(٢) المرجع السابق: ص٢٨٢ - ٢٨٣.

الحميد الثاني قام في ١٤ فبراير بتعطيل البرلمان لأجل غير مسمى بسبب الانتقادات التى وجهها بعض أعضاء مجلس المبعوثان، وقام بنفي مدحت باشا الذي لم يكن على وفاق معه عقب عزله من مقام الصدارة العظمى[1].

وفي تركية في الفترة من ١٨٧٢ إلى ١٨٧٦م كانت الحالة السياسية تتابع تدهور نتيجة سفه رجال البلاط والحكام في القسطنطينية وكذلك الحكومة في أقاليم البلقان، وقد ثبت للأتراك أن إقليم الأحساء - الذي ضمه الباب العالي للدولة في العقد الأخير - تصعب السيطرة عليه وإدارته. . إلى جانب أنه لا يفيدهم شيئًا يذكر، فرأت الحكومة التركية - خلاصًا من المشاكل والنفقات التى وجدت نفسها متورطة فيها - أن تعين شيخًا وطنيًا من أهل الإقليم حاكمًا باسم تركيا وأن تسحب معظم حاميتها، وخلال شهور قليلة بعدها قام قريب لأمير الوهابيين بغزو الإقليم وأطاح مؤقتًا بالحكم التركي، كما حاصر الشيخ الذي عينه الأتراك في حصن بعاصمة الإقليم.

لكن موقف تركيا أمكن إنقاذه بوصول ناصر باشا شيخ المنتفق من البصرة ومعه قوات كبيرة. وقد عاد الشيخ إلى البصرة بعد أن سوى الأمور في الإقليم المتمرد "تسوية لا ترحم"، وفي سنة ١٨٧٥م، أنشئت ولاية جديدة باسم ولاية البصرة وذلك باقتطاع بعض الأقاليم من ولاية بغداد، وضم إقليم الأحساء إليها، وأصبح ناصر باشا، رغم أنه عربي المولد والقبيلة، أول حاكم لهذه الولاية[2].

ولم يحل هذا الفشل بين الحكومة التركية القائمة وقتذاك وسياستها في التوسع الإقليمي، ففي سنة ١٨٧٢ استولوا على منطقة "جوف العامل" على حدود نجد بواسطة قوة صغيرة أرسلت من فلسطين، ولكنهم لم يسيطروا على تلك الواحة سوى سنتين فقط، وبدأ تآمر الأتراك على موقع عديد على حدود قطر في عمان المتصالحة، وخلال هذه الفترة كان العلم التركي يرتفع أحيانًا فوق العديد ويعتقد أيضًا أن أهلها كانوا يدفعون جزية موسمية لتركيا. . وحوالي هذا الوقت فقط بدأت الغيرة تساور الحكومة التركية في نفوذ بريطاني متوهم في قلب الجزيرة العربية[3].

---

(١) المرجع السابق، ص٢٩٣ - ٢٩٤.

(٢) لوريمر: المرجع السابق، ص٤٢٧.

(٣) موسوعة ويكيبيديا: الدولة العثمانية. http://ar. wikipedia. org.

الفصل الثاني

مشيخات الخليج العربى

مقدمة

مشيخات الخليج العربى

خبرة عرب الخليج فى الملاحة

القواسم والجهاد البحرى

عرب الخليج الآخرون والجهاد البحرى

المغامرات البحرية

مقدمة

الخليج الحائر تعبير جيد ارتبط بأشهر خليج فى قارات الكرة الأرضية، ألا وهو الخليج العربى الذى يمثل الحد الشرقى للوطن العربى، وهو تعبير ابتكره ابننا الرائد فى معالجة الموضوعات المتميزة والتى انفرد بها وارتبطت به هو الدكتور محمود رمضان عبد العزيز خضراوى، وقد ساق هذا التعبير - الخليج الحائر - بسبب اللبس الذى ارتبط باسم الخليج من التاريخ القديم حتى التاريخ المعاصر، خاصة تعبير الخليج الفارسى والخليج العربى. وأيضا تعبير الخليج الثائر الذى أطلقه الزعيم جمال عبد الناصر فى الخمسينيات من القرن العشرين فى إطار حديثه عن وحدة الوطن العربى من المحيط الهادر الأطلسى إلى الخليج الثائر العربى.

وتأتى حيرة تسمية الخليج فى رأس المؤلف الدكتور محمود رمضان - ونحن نتفق معه - من تدخلات لقوى خارجية وقوى أجنبية لها أهدافها الاستغلالية والعنصرية، فبينما نجد إيران كقوة خليجية تطلق على الخليج تعبير الخليج الفارسى وسواحلها على الخليج ٨٦٠ كيلو مترا يسكن هذه السواحل سكان من أصول عربية، فى الوقت الذى تمتد فيه سواحل الأقطار العربية المطلة على الخليج ١٣٥٧ كيلو مترا، نجد بريطانيا منذ القرن التاسع عشر تساير اتجاه إيران فى تسمية الخليج الفارسى، حيث أصبح لها مصالح فى الهند - درة التاج البريطانى - ومصالح فى جنوب إيران حينما تم اكتشاف البترول فى أوائل القرن العشرين وتكوين شركة البترول الأنجلو إيرانية.

وشاعت تسمية الخليج باسم الخليج الفارسى فى الأدبيات الأوروبية كما نقل عنها البعض من علماء الأمة العربية هذه التسمية، لأن أصحاب هذه الأدبيات من الأوروبيين انطلقوا منطلقا سياسيا لا علميا فى التسمية، لتحقيق هدف مزدوج، الأول: تحقيق مصالح اقتصادية وإستراتيجية مع إيران. والثانى: التقليل من مكانة الأقطار العربية الخليجية التى تتطلع إلى الارتباط القوى مع أمتها العربية، وتدرك أن أمن الخليج العربى مرتبط بأمن الأمة العربية كاملة.

ومن المعروف أن قبيلة القواسم فى إمارة رأس الخيمة لها تاريخها النضالى الواضح للدفاع عن عروبة الخليج ومعاداة قوة تستبيح مياهه، حتى ولو كانت هذه القوة هى بريطانيا المسيطرة على شبه القارة الهندية ابتداء من القرن السابع عشر وعمليات القواسم للجهاد البحرى العربى الإسلامى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين فى الخليج خير شاهد على المواقف العربية الواضحة للدفاع عن عروبة الخليج، كما أن مواقف القواسم فى

النصف الثانى من القرن العشرين كانت أقوى وأوضح فى الترويج لفكرة القومية العربية.

وخير دليل على ما نقول قيام إمارة الشارقة وحاكمها صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان القاسمى بجمع كل الوثائق والخرائط والتقارير والرسوم والإحصاءات والدراسات التى تؤكد عروبة الخليج، تلك المصادر التى اعتمد عليها الابن العزيز الدكتور محمود رمضان فى عرض مبادرته القيمة عن الخليج الحائر، واستفاد منها فى كتابة هذا العمل العلمى القيم.

ومن الأمور الجديرة بالتقدير أن الدكتور محمود رمضان ناقش حيرة الخليج بموضوعية ودون انحياز لعروبة الخليج أو تعصب ضد فارسية الخليج لأنه بدأ بمناقشة هذه التسميات منذ التاريخ القديم قبل مجىء الإسكندر الأكبر للمنطقة وأثناء هذا الوجود المقدونى، وبعد الإسكندر الأكبر مرورا بالعصر الإسلامى، ثم العصور الحديثة وحتى التاريخ المعاصر، انطلاقا من أن تسمية الخليج بالخليج العربى حتى وإن كانت بعد تسمية قائد جيوش الإسكندر الأكبر بناركوس عام ٣٢٥/٣٢٦ ق. م الذى أطلق اسم الخليج الفارسى على الخليج لأنه فى طريقه الى الهند اجتاز بلاد فارس وهزم إمبراطورها ولم يزر الساحل العربى الأكثر طولا، بينما جاءت تسمية المؤرخ اليونانى سترابون عام ٥٨ ق. م إلى ٢٣م باسم الخليج العربى، إلا أن تسمية الخليج بالخليج الفارسى لم تنتشر إلا عام ١٤٧٧م. بعد شيوع التسمية العربية بسنوات طويلة.

وهذا يدعونا إلى عرض لأحوال الخليج الجغرافية والتاريخية، إذا كان طول الخليج العربى ابتداء من شماله فى الفاو حتى رأس مسندم على مضيق هرمز نحو ١٣٥٧كم فإن عرضه يتراوح بين ١٨٠ و ٢٨٠كم، وتبلغ مساحته السطحية ٢٥٠ ألف كم^2 أما أعمق قسم منه فإنه يبلغ ١٠٠ متر قرب جزيرة هرمز، والسواحل الشرقية للخليج ضحلة تنحصر عنها المياه سنويا نظرا لترسبات الأنهار التى تصب فيه، وأهمها شط العرب ونهر قارون.

وتتميز مياه سواحله الغربية بكثرة الخلجان والأخوار والجزر العديدة. أما السواحل فتتكون أرضها من تلال رملية وسهول صحراوية تنتشر فيها بعض الواحات الخصبة ذات التربة الطينية الرملية الصالحة لزراعة النخيل والخضراوات والفاكهة، كما توجد الينابيع ذات المياه العذبة فى داخل مياه الخليج وعلى سواحله وخاصة فى جزر البحرين. أما الآبار الإرتوازية والينابيع فإنها تتدفق فى كثير من الإمارات على ساحل عمان وفى قطر. كما تشتهر أعماق الخليج العربى منذ القدم بأنها من أهم مصائد اللؤلؤ الطبيعى الذى ظل عماد ثروة إمارات الخليج وتجارتها حتى ظهور النفط بكميات غزيرة فى البر والبحر [1].

(١) إبراهيم الشريقي: أضواء على الخليج العربي ومسقط وعمان.

ويذكر الدكتور محمد متولى فى كتابة القيم:حوض الخليج العربى أن للخليج العربى شخصية متميزة تتمثل فى الآتى:

١) الشخصية العربية للخليج:

وهذا يعنى أن الخليج عربى فى كل مظاهره وسماته ، حقيقة أن فارس أو إيران الحديثة تطل على سواحله الشرقية ، ولكن هذه السواحل كانت يوما ما عربية ، ومازالت آثار العرب ماثلة فيها سواء فى إقليم عربستان الذى يقع عند رأس الخليج أو فى سكانه من القبائل العربية ، من أمثال قبائل بنى كعب وبنى تميم ، أو فى الأعلام الجغرافية المختلفة فى منطقة السواحل الجنوبية لإيران من أمثال المحمرة وقارون والشيخ شعيل وقيس وخورموسى ، وهى أعلام تطلق على المدن والأنهار وعلى الجزر وأشباه الجزر ، وعلى الرؤوس التى تبرز فى مياه الخليج ، وعلى الخلجان التى تتوغل فى الأرض اليابسة.

٢) الخليج العربى قديم قدم التاريخ:

شهدت شواطئ الخليج العربى أحداثا بارزة فى تاريخ البشرية ، حيث شهدت شواطئه مولد كثير من الحضارات والإمبراطوريات ، وظهرت على جوانبه الفلسفات والمذاهب الدينية وبعد أن قامت دول سومر وأكاد وبابل وعيلام عند رأس الخليج ثم زالت ، وبعد قيام إمبراطورية الفرس على شواطئه الشرقية كان الخليج منطلق الإسلام فى الشرق ، وكان بحيرة داخلية للخلفاء العباسيين ، حتى مجيء الأوروبيين إلى الشرق واحتلالهم لبلاد الهند ظل الخليج - كما كان - طريقا طبيعيا للثروات الأسطورية وممرا بحريا لتجارة البخور والتوابل والحرير عندما كانت هذه السلع أندر وأغلى من الذهب.

٣) تاريخ الخليج تاريخ متصل ذو حلقات متتابعة من الازدهار والانحلال:

يحدثنا التاريخ عن الدول القديمة التى قامت عند رأس الخليج مثل بابل وآشور وأكاد وعيلام. والتى دامت وقتا طويلا ازدهرت فيه الحياة ، فنشطت التجارة والزراعة وعم الرخاء ، وما أن أفلت ، ركدت بأفولها الحياة فى أنحاء الخليج عموما. والإمبراطورية الفارسية التى قامت بعد ذلك على الشواطيء الشرقية الشمالية للخليج ، والازدهار الذى صحب قيامها والنشاط الاقتصادى الذى عاصر هذا الازدهار ، والمدن التى شيدت والموانيء التى أنشئت. ثم زالت الإمبراطورية الفارسية فحلت النكسة أرجاء الخليج من أقصاه إلى أقصاه.

ويحدثنا التاريخ كذلك عن ازدهار الحياة فى عهد الدولة العباسية التى قامت فى بغداد وعن النشاط التجارى الذى صحب اتساع نفوذ كل من البصرة والبحرين وعمان فى منطقة

الخليج، ثم انكماشه بعد أن تقلص هذا النفوذ. ويحدثنا التاريخ أيضا عن الخليج كطريق للتجارة العالمية بين الشرق والغرب، وعن نشاط هذه التجارة حينا وركودها أحيانا، أوعما كان يصحب هذا وذاك من يسر أو عسر في حياة السكان.

والازدهار البترولى الحالى فى منطقة الخليج، وهو الازدهار الذى لايجاريه أى ازدهار فى الماضى، يرتبط ارتباطا طبيعيا بتلك الفترات الزاهرة التى كان الخليج العربى فيها ملتقى التجارة الدولية، وفى ذلك الوقت - كما هو الشأن فى الوقت الحاضر - قامت مراكز حضارية مهمة، وشيدت مدن كان يؤمها التجار والبحارة من كل أطراف العالم حيث يجد كل منهم بغيته.

يمثل الخليج العربى أقصى امتداد للعالم العربى نحو الشرق، فهو بموقعه إلى الشرق من الجزيرة العربية يمثل الأطراف الشرقية للعالم العربى، ويعتبر بحق نهاية هذا العالم الواسع من ناحية الشرق. ويجمع الجغرافيون وعلماء السلالات البشرية على أن الجزيرة العربية كانت الوطن الأول الذى نشأ فيه العرب واكتسبوا صفاتهم البشرية المميزة، وأنهم انتشروا منه تحت تأثير ظروف جغرافية قاهرة نحو الشمال ونحو الشرق ونحو الغرب فى الشام والعراق وفارس. ومن هنا فإن الجغرافيين يعتبرون منطقة الخليج العربى أقصى امتداد برى للقبائل العربية نحو الشرق، ومن ثم كانت بحق الحد الشرقى للوطن العربى. كما كانت مركزا وسطا بين بلاد العالم الإسلامى، ويعتبر بحق قلبه النابض، وهو على هذا الأساس يعتبر بحيرة عربية إسلامية معا.

٤) الخليج العربى فاصل مذهبى ولغوى:

لايعتبر الخليج العربى مجرد حد فاصل بين العالم العربى والعالم الإيرانى، وإنما ينظر إليه الجغرافيون والمؤرخون كحد فاصل كذلك بين مفهومين إسلاميين متميزين، يتركز أحدهما على ضفافه الشرقية وهو المذهب الشيعى - الذى ظهر بعد قيام الدولة الصفوية، ويتركز الآخر وهو المذهب السنى على ضفافه الغربية. أما عند رأس الخليج فى العراق وفى وسطه فى البحرين فيوجد خليط من الشيعة والسنة. وحتى الماضى القريب كانت الاصطدامات تتعدد بين أنصار هذين المذهبين، خصوصا عندما جعلت إيران قضية المذهب الشيعى قضيتها لأسباب سياسية أكثر منها أسباب دينية، وعمدت بذلك إلى انفصالها واستقلالها عن العالم العربى.

٥) الخليج العربى بلاد الفقر المدقع والثراء العريض:

يعتبر الخليج العربى من أشد جهات العالم جدبا، فسواحله غير مضيافة وهى أرض جيرية

ورملية، وتقسو البيئة الطبيعية قسوة من غير حدود، ومن ثم اتجه الناس إلى البحر للبقاء أحياء، حيث غاصوا للبحث عن اللؤلؤ وتاجروا وصاروا ملاحين وصيادين، ثم جاء القرن العشرين بخيره العارم وفيضه الواسع الذى يتمثل فى أضخم ثروة بترولية عرفها الإنسان تكمن تحت ثرى أرض الخليج المقفرة.

٦) الخليج العربى طريق مهم للتجارة العالمية بين الشرق والغرب:

لموقع الخليج العربى أهمية خاصة، فهو ذراع بحرى للمحيط الهندى يتوغل فى داخل الأرض اليابسة بحيث يقرب المسافة البرية عبر منطقة الهلال الخصيب بين المحيط الهندى وبين البحر المتوسط أو بين الشرق والغرب، ويتألف هذا الذراع البحرى من خليجين كبيرين هما:

أ - خليج عمان وهو خليج خارجى.

ب - خليج داخلى وهو الخليج العربى.

إلى جانب مضيق هرمز الذى يصل الخليجين أحدهما بالآخر.

والخليجان يفصلان بين السواحل الإيرانية من جهة والسواحل العربية من جهة أخرى، وهما فى الواقع امتداد لبحر العرب الذى يعد جزءا من المحيط الهندى.

وترجع أهمية الخليج العربى إلى موقعه المتوسط فى قلب العالم القديم بين العالم الأسيوى والأفريقى فى الشرق، وبين العالم الأوروبى فى الغرب. تمر به التجارة وتزخر به الثروة البترولية فى منتصف القرن العشرين، مما جعل الدول الغربية البحرية تعمل جاهدة على الاحتفاظ بنفوذها فى منطقة الخليج العربى.

٧) الخليج العربى مطمع الدول الغربية:

جذب الخليج العربى أنظار الدول الغربية خاصة بعد استعمار شبه القارة الهندية، حيث كان الخليج طريقا للتجارة والمواصلات بين بريطانيا ومستعمرتها فى الهند طوال العصور الحديثة، حتى إذا تفجرت الثروة البترولية زادت الدول الغربية بريطانيا - فى الأساس - ثم الولايات المتحدة الأمريكية من اهتمامها بأقطار الخليج العربية المنتجة للنفط، ومن ثم زادت مطامع تلك الدول فى ثروات أقطار الخليج وتمركزت مصالحها بحماية جيوشها لضمان استمرار تدفق النفط الخليجى لتيسير آلاتها الاقتصادية والحربية، ولإبعاد أى تهديد لهذه المصالح سواء من جانب الاتحاد السوفيتى - قبل تفككه - أو من جانب إيران.

تتميز أقطار الوطن العربى الخليجية بأنها متشابهة تشابها قل أن يوجد مثيله فى العالم،

سـواء فى السطح أو المناخ أو السكان وغيرها من الظواهر الطبيعية ، ومع ذلك فإنه يعيش تجزئة سياسية ناتجة من ميراث تاريخى وسياسى استعمارية للدول الغربية التى سعت لفرض سيطرتها على هذه الأقطار.

وأخيرا نعود إلى اسم الخليج الحائر فقد أطلقت على الخليج أسماء متعددة مثل :

"أرض الله" ، "وأرض البحر" ، "وخليج البصرة" ، كما أطلق عليه اليونانيون والرومان اسم "البحر الأسفل"شأنهم فى ذلك شأن الآشوريين والبابليين الذين أطلقوا عليه ذات التسمية على اعتبار أن البحر المتوسط هو "البحر الأعلى" ، أما المؤرخ "استرابون"فقد أطلق عليه - كما ذكرنا - اسم"الخليج العربى"فى بعض الأحيان.

ولـم يـرد اسـم الخليج فـى الكتابات الفارسية القديمة ، إلا أن تسميته باسم"الخليج الفارسى"انتقلت مـن اليونـان والرومان إلـى غيرهم من النـاس ، ومنهم بعـض العرب الذين أطلقوا عليه - جهلا - اسـم "بحر فارس" ، "وخليج فارس""والخليج الفارسى"وذلك نقلا عن قدماء الجغرافيين الذين نقلوا هذه التسمية عن اليونانية واللاتينية عندما غزا الإسكندر الأكبر بلاد فارس عام٣٣٣ق. م وهزم عاهلها"داريوس"فى معركة "إبسوس"الشهيرة. وقد عـزز الاستعمار فى العصور الحديثة إطلاق تسمية"الخليج الفارسى"على الخليج العربى لتحقيق أغراض استعمارية ضد المصلحة العربية.

وقد كشفت البعثات الأثرية الأجنبية فى الخليج عن آثار مهمة تربط الخليج بعروبته ، ومن أشهر هذه الآثار القصر التاريخى فى جزيرة"أم نار" قرب أبو ظبى ، كما كشفت بعد ذلك عـن آثار قصر آخر فى قرية "الهيلى"فى ذات المنطقة بالإضافة إلـى الآثار والحفريات الكثيرة فى البحرين وقطر وغيرهما من إمارات الخليج العربى.

وقد ثبت علميا أن الكنعانيين كانوا أول من سكن سواحل الخليج العربى ، وهم قبائل سامية يرجع نسبها إلى كنعان بن سنحاريب بن غزود الأول بن كوس بن سام بن نوح ، ثم رحل الكنعانيون إلى سورية حيث استقر المقام بهم. إلى جانب قبائل عربية عدنانية هى قبائل قضاعة وربيعة وإياد ، كما استقرت فى عمان قبائل الأزد من"كهلان"التى نزحت من اليمن بعد انهيار سد مأرب عام ١٢٠ق.م ، والنشاط الذى شهده ينتسب للعرب الذين امتهنوا الملاحة وركوب البحر ، أطلق عليهم البعض - أى على قبائل أقطار الخليج العربى - القبائل البرمائية[1].

(١) د. محمود رمضان : القصة التاريخية للخليج الحائر (٣٢٦ - ٣٢٥ق. م) ١٩٣١م ، أسماء ومسميات الخليج ، في ضوء مجموعة الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي لخرائط الخليج التاريخية ١٤٩٣ - ١٩٧١م ، تقديم أ. د. رأفت غنيمي الشيخ ، ص٩ - ١٦.

مشيخات الخليج العربى:

تتكون أقطار الخليج العربى من مسقط وعمان، والبحرين، وقطر، ومشيخات الساحل العمانى المتصالح، والكويت، وكانت تسكنها قبائل عربية تعمل بالتجارة والرعى واستخراج اللؤلؤ. وكانت عمان أكثر مناطق الخليج العربى تنظيما سياسيا بسبب وجود الإمامة الأباضية بجبال عمان الداخلية كما كانت أقرب إلى المجتمعات الحضرية. وهذا يشير إلى أن التنظيمات القبلية كانت سمة المجتمعات الخليجية حتى مجىء البرتغاليين والعثمانيين لتظهر قيادات وطنية تواجه الغزو الاستعمارى الأوربى.

فى الصفحات التالية استعراض للدور البحرى لعرب الخليج فى نقل المتاجر بين الهند وشرق أفريقيا وجنوب الجزيرة العربية وأقطار الخليج حتى العراق، انطلاقا من خبرتهم فى ركوب البحر ومن ثم سيطرتهم على مياهه والقيام بعمليات جهاد بحرى اسلامى ضد السفن البرتغالية المعادية لهم، ثم ضد جميع السفن الأوربية المارة فى مياه الخليج العربى فى مواجهة مشيخاته وموانيه.

خبرة عرب الخليج فى الملاحة:

قد يعتقد البعض أن قبائل شبه الجزيرة العربية على الإطلاق قبائل ذات صفة بدوية تمارس حياتها اليومية فى الصحراء بما تفرضه طبيعة الصحراء من أسلوب لحياة الناس، وهم فى اعتقادهم هذا لا يكادون يذكرون تأثير الخليج على القبائل العربية التى تعيش على سواحله ومن ثم فنحن مع القائلين بأن حياة القبائل العربية التى تسكن شواطىء الخليج العربى تختلف إلى حد ما عن حياه القبائل العربية الضاربة فى صحراء شبه الجزيرة العربية، كما أننا مع التسمية التى أطلقت على النوع الأول من القبائل وهى" القبائل البرمائية "تمييزا عن النوع الثانى المعروف بالقبائل البدوية أو الصحراوية.

وانطلاقا من التأكيد على دور القبائل البرمائية التى عاشت وتعيش على شواطىء الخليج العربى فى بناء حياتها كان لابد أن نشير إلى خبرة هذه القبائل فى الملاحة، تلك الخبرة التى فاقت فى شهرتها حياة القبائل البدوية، بل وساعدت على الاتصال بالعالم الخارجى بينما بقيت القبائل البدوية محصورة فى حياة البداوة بكل إيجابياتها وسلبياتها المعروفة بل إن القبائل البرمائية الخليجية تحملت الكثير للدفاع عن مياه الخليج ضد الغزاة ومن هنا نراها كما حملت رسالة الخير خارج نطاق الخليج بالعمل فى نقل المتاجر وقيادة السفن على امتدا الخليج من ميناء البصرة بشمال الخليج حتى شرق أفريقيا والهند والصين، رأيناها

تقف بصلابة ضد هجمات الاستعمار على مياه الخليج وأراضيه[1].

امتاز عرب الخليج إذن بالقدرة على ركوب البحر والطواف بسفنهم خارج نطاق الخليج وذلك قبل مجيء الاستعمار البرتغالى كأول قوة أوروبية معتدية على المياه العربية الجنوبية واشتهر من عرب الخليج ملاحون شهد لهم الأعداء قبل الأصدقاء بالمهارة فى الملاحة وركوب البحر ولعل أشهر هؤلاء الملاحين الملاح العربى الخليجى "شهاب الدين أحمد بن ماجد" الذى ولد "بجلفار" على ساحل عمان والذى قاد سفن "فاسكو دى جاما" الملاح البرتغالى من "مالندى" بشرق أفريقيا إلى الهند ببراعة سجلها له "دى جاما"[2].

وبخبرة أهل الخليج الملاحية شاركوا فى نقل متاجر الهند فى المحيط الهندى والبحر العربى متجنبين القراصنة الهنود الذين اتخذوا من جزر هذا المحيط وذلك البحر مأوى لهم، حتى تصل المتاجر إلى البحر الأحمر فمصر فالبحر المتوسط فأوروبا أو تصل إلى الخليج العربى فالعراق فالشام فالبحر المتوسط إلى أوروبا أى أن عرب الخليج المهرة فى الملاحة والتجارة ساهموا بدور لا يمكن إنكاره فى رخاء أوروبا وفى تزويدها بمتاجر الشرق بل وفى بناء الحضارة الأوربية الحديثة.

حتى إذا جاء البرتغاليون بقوتهم الصليبية ضد كل ما هو إسلامى سواء فى شمال أفريقيا ثم فى شرق أفريقيا حيث شارك عرب الخليج مع عرب الجنوب فى بناء حضارة عربية أفريقية ذات مدن مزدهرة مثل "مالندى" "وسفالة" و "كيلوة" و "ممبسة" و "دار السلام" وغيرها، وقف عرب الخليج العربى ضد التدمير والعدوان البرتغالى وشاركوا فى معركة "ديو" البحرية عام ١٥٠٩م التى لم يكتب النصر فيها للتحالف الإسلامى بسبب قوة الأسلحة النارية للبرتغاليين[3].

وتحمل الخليجيون منذ أوائل القرن السادس عشر حتى أوائل القرن العشرين دورهم التاريخى فى مواجهة الغزاة المعتدين على الخليج وأهله سواء كان هؤلاء الغزاة برتغاليين أو هولنديين أو بريطانيين، ورغم عدم التكافؤ بين قوة أهل الخليج الحربية وقوة الغزاة الحربية فإن الخليجيين استخدموا ما يمكن أن نسميه حرب العصابات أو عمليات الجهاد البحرى ضد هؤلاء الغزاة أو العمليات التى امتلأت كتب المؤرخين الأوروبيين وصفا لها بالقرصنة، وكأنما من يدافع عن دينه وأرضه وعرضه ضد عدوان غاشم صليبى يتهم بالقرصنة ويطلب من المجتمع الدولى العمل على محاربته.

---

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ: تاريخ العرب الحديث، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٢٨٦.

(٢) أحمد بن ماجد: ثلاث أزهار في معرفة البحار، القاهرة، ١٩٦٩م.

(٣) د. رأفت غنيمي الشيخ: أفريقيا في التاريخ المعاصر، القاهرة، ١٩٨٩م.

وكان البرتغاليون بقوتهم الغاشمة قد نجحوا فى الاستيلاء على جزيرة "هرمز" ١٥٠٨م ثم توالى استيلاؤهم على كل من مسقط والبحرين وبقية ساحل عمان ماعدا الأحساء، واستخدموا الوحشية أسلوبا للتعامل مع عرب الخليج ولا عجب فى ذلك فإن البرتغاليين صليبيون متعصبون ضد المسلمين أينما كانوا.

لم يسلّم الخليجيون بالغزو والاستعمار من جانب البرتغال بل وقاوموا ما وسعتهم المقاومة وشهدت الفترة من عام ١٦٤٠م حتى عام ١٦٥٠م انحسارا للوجود البرتغالى فى الخليج ساهم فيه الخليجيون بدور أساسى ومارسوا فيه عمليات الجهاد البحرى وشاركهم أيضا مغامرون أتراك مثل "بيرى بك" و"على بك" الذين وقفوا ضد البرتغال فى الخليج والبحر العربى فى المدة من عام ١٥٥١م حتى عام ١٥٨١م. ومن الإنصاف القول بأن القضاء النهائى على الوجود البرتغالى فى الخليج العربى أسهم فيه بدور كبير الإنجليز والهولنديون عام ١٦٨٩م وإن كان ذلك من أجل مصالح انجلترا وهولندا لا من أجل مصالح عرب الخليج.

تمرس عرب الخليج إذن على عمليات الجهاد البحرى بمقدم الغزاة البرتغاليين، ومن ثم فلم يصعب عليهم بعد جلاء البرتغاليين عن أراضى ومياه الخليج أن يواجهوا القوى الأوروبية التى حاولت أن ترث تركة البرتغال فى الخليج، ومن المؤسف حقا أن يتسبب الاستعمار فى تحويل عرب الخليج من بناة رخاء وحضارة لأوروبا وللعالم بنقلهم المتاجر بين الشرق والغرب ونقلهم الثقافات المختلفة إلى مجاهدين فى البر والبحر دفاعا عن دينهم وأرضهم وعرضهم وحياتهم، ومن ثم يتضاءل دورهم الحضارى العالمى وهو أمر لاشك فى أنه مخطط من جانب الاستعماريين[1].

استمرت علاقة عرب الخليج بالبرتغاليين متوترة حتى بعد إجلاء الآخرين من الخليج، فقد استطاع عرب الخليج بحملة بحرية انتزاع مدينة "ممبسة" الأفريقية العربية من أيدى البرتغاليين عام ١٦٦٠م كما استمرت عمليات الجهاد البحرى للخليجيين ضد سفن البرتغاليين فى الخليج العربى والبحر العربى والمحيط الهندى من عام ١٦٩٣ حتى عام ١٧٢٢م وشهدت مياه الخليج سواء قرب الشواطىء الشرقية الإيرانية أو فى المياه الإقليمية العربية من الخليج معارك، وكانت سفن العمانيين فى مقدمة السفن الخليجية العربية فى تلك المعارك سواء أمام ميناء "كنج" الفارسى أو مقابل "مسقط" العربية أو عند ميناء ممبسة الأفريقي أو باتجاه مدينة "سورات" الهندية وإذا لم يكن النصر حليف العرب فى كل تلك المعارك إلا أنهم قاموا بعمليات الجهاد الإسلامى ثأرا من اعتداءات البرتغاليين السابقة على أراضى عرب الخليج.

---

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ: تاريخ العرب الحديث، المرجع السابق، ص٢٨٨.

وعندما جاء الهولنديون إلى مياه الخليج اهتموا بالتجارة أكثر من اهتمامهم بالغزو والاستعمار وإن كان هذا لاينفى أنهم اشتركوا مع الإنجليز فى طرد البرتغاليين من الخليج العربى، ولعل هذا من أسباب عدم تطبيق عرب الخليج سياسة الجهاد البحرى ضد سفن الهولنديين، ومن ثم مارست تلك السفن نشاطها فضلا عن سفن الإنجليز وبعض المغامرين العرب الكارهين لكل ما هو أوروبى مسيحى.

وأما بالنسبة للانجليز فقد حرصوا على توفير الأمان لسفنهم العاملة فى الخليج العربى وفى البحر العربى والمحيط الهندى لضمان انتقال المتاجر دون عقبات بين انجلترا والهند عبر مياه الخليج العربى والمحيط الهندى، ثم ضمان المواصلات بين انجلترا ومستعمرتها فى الهند التى تكونت منذ تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية فى عام ١٦٠٠م واتسعت سيطرتها فى القرن الثامن عشر، ومن ثم دخلت انجلترا فى منافسة مع الهولنديين للاستئثار بالنفوذ والعلاقات مع عرب الخليج ولحماية التجارة والمواصلات الإنجليزية[1].

وما دمنا قد وصلنا إلى القرن الثامن عشر وإلى بداية السيطرة البريطانية على مياه الخليج العربى فيجدر بنا أن نشير إلى أن عرب الخليج كانت لهم السيطرة على مختلف ألوان النشاط البحرى فى مياههم خلال القرن الثامن عشر، حيث مارسوا صناعة بناء السفن والغوص على اللؤلؤ، كما أداروا حركة الملاحة التجارية بين موانى الخليج بعضها وبعض، وبينها وبين موانى شرق أفريقيا والهند، ومن ثم صارت لهم السيطرة على جزر الخليج وعلى أجزاء مختلفة من الشاطئ الشرقى للخليج أيضا.

كما يجدر بنا أن نفرق بين نوعين من العمليات البحرية العسكرية التى قامت بها سفن عرب الخليج، النوع الأول موجه ضد سفن الدول الغربية انطلاقا من كراهية العرب لكل ما هو أوروبى بسبب ما لقوه على أيدى البرتغاليين من وحشية وهذا النوع هو ما نسميه بعمليات الجهاد البحرى الإسلامى. والنوع الثانى من تلك العمليات التى تقوم بها سفن عربية ضد سفن عربية أخرى فى الخليج لأسباب عدائية كالتى تحدث فى الصحراء بين القبائل بعضها وبعض أو لمطامع رئيس قبيلة أو تنفيذا لسياسة قوة أخرى أكبر ومن عجب أن يطلق الكتاب الأوروبيون على النوعين من العمليات البحرية اسم القرصنة.

وعلى هذا فإننا عند الحديث عن عمليات الجهاد البحرى نجد أن السفن الإنجليزية العاملة بالخليج العربى لم تسلم من تلك العمليات على يد السفن العربية، خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فنقرأ قرارا أصدره مجلس مديرى شركة الهند الشرقية البريطانية

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ: المرجع السابق، ص٢٨٩.

المنعقد فى لندن إلى وكيل الشركة فى الخليج ما نصه: إذا فشلت جميع الجهود المبذولة لقمع اتجاهات القرصنة - يقصد الجهاد البحرى - لدى الإيرانيين والسلطات الأخرى فى الخليج فى تحصيل تعويضات عن الأضرار الناتجة عن القرصنة، فإن عليكم إبلاغ ذلك إلى الرياسة لتعرض الأمر على قائد الأسطول الملكى فى جزر الهند الشرقية لمحاولة الحصول على المعونة فى الظروف و الأحوال التى تقتضيها كل حالة بمفردها[1].

وكان ذلك نتيجة تأثر حركة التجارة الإنجليزية منذ أوائل القرن الثامن عشر بعمليات الجهاد البحرى التى قام بها عرب الخليج والإيرانيين المسلمين، وكان خط الملاحة الرئيسى فى الخليج يسير بمحاذاة الساحل الشرقى ولم تغامر سفينة أوروبية بالتوجه إلى القسم الغربى من الخليج منذ خروج البرتغاليين، وكانت تتجنب دائما هذا الجانب من الساحل لأن القليل هو ما كان يعرف عنه وكان يعتبر منطقة غير مأمونة.

القواسم والجهاد البحرى:

وفى هذا المقام سوف نناقش دور قبيلة القواسم فى العمليات البحرية ضد السفن الإنجليزية، ذلك الدور الذى بدأ عام١٧٧٨م بهجوم قامت به ست سفن تابعة للقواسم على سفينة انجليزية تحمل رسائل رسمية وأسرها واقتيادها إلى رأس الخيمة، وقيام ثمانى سفن تابعة للقواسم أيضا بمهاجمة السفينة البريطانية "سكسس" وهى فى طريقها من البصرة إلى مسقط شهر يناير١٧٧٩م ولكن هذه السفينة البريطانية نجحت فى الفرار، كما هاجم أسطول القواسم السفينة "أسستانس" فى فبراير ١٧٧٩م التى لاذت بالفرار والتجأت إلى "بوشهر"

استمرت عمليات أسطول القواسم ضد السفن البريطانية فنجح فى أسر السفينة "بكلربك" المبحرة تحت العلم البريطانى قرب "رأس مسندم" عام١٧٩٠م وفى عام ١٧٩٧م هاجمت سفن القواسم السفينة البريطانية "باسين" بالقرب من جزيرة "قيس" وأسروها وقادوها إلى رأس الخيمة، وفى نفس العام هاجم الأسطول القاسمى الطراد البريطانى "فايبر" بينما كان راسيا بالقرب من "بوشهر" وإن كان الطراد قد نجح فى الفرار إلا أنه خسر أكثر من ثلاثين من بحارته.

وخلال تلك العمليات زادت احتجاجات البريطانيين على عمليات القواسم وزادت تهديداتهم ومع ذلك كانوا يلجئون إلى دفع التعويض والفدية المطلوبة أو قبول التبريرات التى يذكرها زعيم القواسم بأنهم مثلا كانوا فى حالة دفاع عن النفس أو أنهم أخطئوا الهدف وأنهم

---

(١) لوريمر: دليل الخليج، القسم التاريخي، ط١.

يقصدون سفن العمانيين وغير ذلك من التبريرات، وفى كل الأحوال لجأت السلطات البريطانية إلى حماية السفن التجارية التى ترفع العلم البريطانى بسفن حربية مسلحة.

وعندما صار القواسم حلفاء للدولة السعودية الأولى واعتنقوا عقيدة التوحيد التى دعا إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وجدوا فى تلك العقيدة ما يوافق عملياتهم البحرية بمهاجمة السفن الأوروبية المسيحية، حيث استندوا إلى مبدأ الجهاد فى الدعوة الوهابية فباشروا عمليات الجهاد البحرى فى الخليج باسم الدولة السعودية وصارت هذه العمليات جزءا من حركة الجهاد وبالتالى فإن الأسلاب تعد غنائم حرب. كما أن هذه العمليات من الجهاد صارت أمرا لازما ضد منكرى تعاليم الوهابية.

ونتيجة لتأييد أمراء الدولة السعودية للقواسم، مد هؤلاء نشاطهم البحرى إلى المحيط الهندى حيث ظهرت سفنهم أمام ساحل "الملبار "شمال" بومباى"عام١٨٠٨م وتعرضوا للسفن الأوربية وغيرها فى إطار الجهاد الدينى حتى وصفهم الأوروبيون بأنهم يعطون مبررات دينية لكل عمل حربى يقومون به ضد السفن المعادية، وكان القواسم يرسلون خمس الغنائم التى يحصلون عليها من عملياتهم البحرية إلى السعوديين تأكيدًا لإيمانهم بدعوة التوحيد ودليلا على تبعيتهم لآل سعود.

ورغم عقد معاهدة بين بريطانيا والقواسم عام ١٨٠٦م إلا أن الخليج شهد منذ عام١٨٠٨م نشاطا بحريا للقواسم بتولية زعيمهم الجديد"حسين بن على"امتد حتى هدد سواحل الهند نفسها، بل وأخذ القواسم بقيادة زعيمهم يطوفون فى المياه العربية بأعداد من سفنهم تراوحت بين خمسة وعشرين سفينة يقود كل منها قائد مسئول أمام زعيمهم، وقد أقلقت هذه العمليات انجلترا المرة بعد المرة حتى بدأت تفكر فى اتخاذ إجراءات لوقف القواسم عن مهاجمة السفن البريطانية.

فقد عززت بريطانيا حراسة مصالحها فى الخليج العربى بعدة سفن حربية وطرادات تحمل مدافع متعددة، ومع ذلك تمكنت سفن القواسم من أسر عشرين سفينة تجارية هندية ترفع العلم البريطانى أواخر عام ١٨٠٨م وأوائل عام ١٨٠٩م فى البحر العربى والمحيط الهندى، وقد أدى هذا النجاح إلى مزيد من الجهاد البحرى قامت به سفن القواسم فى الخليج العربى والمحيط الهندى فهاجمت ٥٥ سفينة للقواسم بالقرب من رأس مسندم سفينة تجارية ضخمة انجليزية تدعى "منيرفا"فى مارس ١٨٠٨م حيث تم أسرها ومن عليها وضمها إلى أسطول القواسم، ثم أطلق القواسم أسر البحارة لقاء جزية.

وقد بلغت جرأة القواسم حدا جعلهم يهاجمون سفينة البحرية الملكية البريطانية الضخمة ذات الخمسين مدفعا خلال عام١٨٠٩م وكانت عملياتهم تقوم على محاولة الأسر بواسطة الاقتحام، فتحاول سفنهم المناورة من أجل الاقتراب من الهدف لتلتصق به وعندها يندفع مقاتلوهم إلى سطح السفينة المعادية مرددين عبارة الله أكبر، وكانت قوة القواسم قد وصلت إلى ٦٣٠ سفينة كبيرة و٨١٠ سفينة أصغر حجما، وعدد الرجال العاملين على هذه السفن ٨,٧٠٠ رجل، استند عليهم زعيم القواسم فى مطالبة حكومة بومباى بدفع إتاوة من أجل السماح للسفن البريطانية بالمرور فى الخليج بحرية.

قررت بريطانيا التدخل ضد نشاط القواسم البحرى فجهزت ١٢ سفينة حربية محملة بالمدافع والمعدات العسكرية وعددا من الجنود والضباط يقدر بحوالى ألف وخمسمائة رجل حملتهم ٤ سفن حاملة جنود وأعطى قائد الحملة التعليمات اللازمة من أجل تدمير القوة البحرية للقواسم وبعدها عليه عقد معاهدة مع القواسم لفرض الشروط البريطانية على أن يتجنب الصدام مع الدولة السعودية حليفة القواسم.

وفى ١٢ نوفمبر ١٨٠٩م بدأت عمليات الإنجليز ضد مدينة رأس الخيمة حيث مكث ضرب المدينة ثم الاستيلاء عليها والجلاء عنها بعد يومين أمام مقاومة القواسم، وبعد ذلك توجه الإنجليز فاستولوا على"لنجة"و"لافت"التابعين للقواسم ثم عادت الحملة البريطانية إلى مسقط وسجل قادتها ما يعتبر أحسن شهادة على بطولة القواسم وما يؤكد أن القواسم وإن خسروا معارك حربية فإنهم لم يخسروا روحهم المعنوية ولن يتوقفوا عن سياسة الجهاد البحرى، حيث سلمت من التدمير معظم سفنهم التى اختبأت فى الأخوار والخلجان العميقة فى الجانب الغربى من شبه جزيرة مسندم.

ومع ذلك ما كاد عام ١٨١٢م يبدأ حتى عادت السفن القاسمية إلى مهاجمة السفن الإنجليزية أو تلك التى ترفع العلم البريطانى حيث أصبح القواسم من جديد أقوى قوة على طول خطوط الملاحة فى الخليج العربى. كما ظهرت سفن القواسم مرة أخرى أمام شواطىء الهند أواخر عام ١٨١٣ وأوائل عام ١٨١٤م حيث تم أسر عدة سفن ترفع العلم البريطانى، وعندما احتج المقيم العام البريطانى فى"بوشهر"رد زعيم القواسم"حسن بن رحمة"فى مايو ١٨١٤م بأنهم لم يأسروا أية سفينة تحمل ترخيصا بريطانيا، وأنه فى حالة وقوع مثل ذلك فإنهم على استعداد لإعادة البضائع وانه قد أصدر تعليماته إلى رجال قبيلته بعدم التحرش أو الإقتراب من أية سفينة تبخر تحت العلم البريطانى[1].

(١) لوريمر: المرجع السابق.

وفى أكتوبر ١٨١٤م عقد القواسم مع المقيم العام البريطانى فى الخليج معاهدة نصت على تناسى أحداث الماضى بين الطرفين و أن يحترم القواسم العلم البريطانى فلا يهاجموا السفن التى تحمله، وأن يسمح القواسم للرعايا البريطانيين بالنزول والتجارة فى موانيهم وأيضا للسفن البريطانية، وأن ترفع سفن القواسم أعلاما مكتوب على كل منها: "لا إله إلا الله محمد رسول الله"وأن يعيد القواسم ما يغتنموه من السفن الأخرى ويخص الرعايا البريطانيين إلى أصحابها.

وقد ظلت هذه الاتفاقية سارية لمدة عام حيث لم يقم القواسم بمهاجمه السفن التى تحمل العلم البريطانى، ولكن ما كاد عام ١٨١٥م ينتصف حتى عادت سفن القواسم إلى سابق نشاطها ضد السفن الأجنبية حتى ولو رفعت العلم البريطانى، كما شهد العام التالى ١٨١٦م نشاطا متزايدا ضد السفن الأجنبية وامتد نشاطهم حتى المحيط الهندى والبحر الأحمر إلى جانب الخليج العربى، وشملت السفن التى هاجمتها سفن القواسم سفن أمريكية وفرنسية فى المحيط الهندى، وثلاث سفن هندية ترفع العلم البريطانى عند مدخل البحر الأحمر فى مارس ١٨١٦م.

حاول الإنجليز الرد على عمليات القواسم البحرية بمظاهرة بحرية لكنهم فشلوا، حيث أكد زعيم القواسم أنهم لم يهاجموا أيه سفينة انجليزية، ولم يستولوا إلا على ممتلكات تعود للهندوس ووثنيين آخرين من الهند وأنهم يحترمون اتفاقهم مع الإنجليز. وقد زاد فشل المظاهرة البحرية البريطانية أمام جرأة القواسم وازدياد نشاطهم مما دفع الإنجليز إلى مهاجمة مدينة رأس الخيمة فى عام ١٨١٩م وعندما نجحوا فى النزول إلى البر بعد تدمير المدينة فرضوا على زعماء القواسم معاهدة صارت أساسا لمعاهدات أخرى وقعها مشايخ الخليج. ثم وفد على معسكر الحملة زعماء الشارقة سلطان بن صقر، ووالد شيخ أبو ظبى المعروف طحنون شخبوط الفلاحى، وشيخ دبى القاصر محمد بن هزاع، وشيوخ عجمان وأم القيوين وجزيرة الحمراء وبحث معهم قائد الحملة عقد معاهدة لإنهاء نشاط الجهاد البحرى، ومن عجب أن هذه المعاهدات التى وقعها هؤلاء الزعماء جميعا فى شهر يناير ١٨٢٠م صارت الأساس الذى ارتكزت عليه الهيمنة السياسية والاقتصادية البريطانية على أقطار الخليج العربى، وتحددت علاقات بريطانيا بهذه المعاهدات باعتبارها جزءا لا يمكن الاستغناء عنه من إمبراطوريتها فى الهند[1].

عرب الخليج الأخرون والجهاد البحرى:

فإذا كان شهر فبراير ١٨٢٠م قد شهد انتهاء العمليات العسكرية البريطانية ضد

(١) د. رافت غنيمي الشيخ: تاريخ العرب الحديث، ص٢٩٣.

القواسم وبقية موانى الساحل العمانى التى تنطلق منها سفن الجهاد البحرى، فقد اتجهت الحملة البريطانية إلى بقية موانى الخليج التى شاركت سفنها فى مهاجمة السفن الإنجليزية ولم يكن عسيرا عليها إتمام هذه المهمة لكن رغم المعاهدات التى كبلت زعماء القبائل العربية فإن النشاط البحرى لم يتوقف تماما.

ومما تجدر ملاحظته أن البريطانيين حين اصطدموا بالقواسم ادعوا أن ذلك من أجل القضاء على عملياتهم البحرية (القرصنة) ضد الملاحة فى الخليج العربى ولكن الدافع الحقيقى للموقف البريطانى يظهر من خلال شكاوى ممثلى شركة الهند الشرقية البريطانية فى الخليج التى أنصبت على استيائهم من منافسة التجار العرب لهم، ومن ثم استندت السلطة البريطانية على الادعاءات المتمثلة فى محاربة القراصنة ومحاربة تجارة الرقيق وهى تهدف فى الأصل إلى القضاء على التجارة والملاحة العربية لأن معاهدات سنة ١٨٢٠م بين بريطانيا ومشايخ ساحل عمان كانت تمنع اشتباك سفن العرب بالسفن البريطانية أو تلك التى تحمل أعلاما بريطانية وأن المعاهدات لم تقتصد منع الاشتباكات بين سفن المشيخات العربية المختلفة فيما بينها.

ورغم معاهدات ١٨٢٠م بين بريطانيا من ناحية ومشيخات الساحل العمانى من جهة أخرى فقد حدثت عمليات جهاد بحرى قامت بها سفن عربية ضد السفن الإنجليزية كتلك التى حدثت للسفينة البريطانية المسماة"سنبرى"فى ميناء الشارقة عام ١٨٢٩م استولى العرب على حمولة هذه السفينة وإن كان شيخ الإمارة قد اقتص من المشاركين فى هذه العملية بحرق أحد قواربهم المشترك فى الحادث وجلد صاحبه.

كما حدثت عملية جهاد بحرى أخرى فى إبريل ١٨٣٥م بين ست سفن تابعة لعرب"بنى ياس"وسفينة حربية بريطانية تدعى "الفينسون" لم يكن النصر النهائى فيها للسفن العربية مما أجبرهم على قبول الشروط البريطانية المجحفة والتى تمثلت فى التعهد بتسليم ١٥ سفينة كانوا قد استولوا عليها وما بقى من حمولتها، وأن يدفعوا مبلغ ١٠ آلاف دولار كتعويض نقدى والتعهد بدفع مبلغ إضافى قدره ١٦٠٠ دولار وإطلاق سراح جميع الأسرى الذين كانوا قد أسروهم وتسليم رجلين من رجال القبيلة تزعما العملية البحرية[1].

أخذت السلطات البريطانية تستعرض قوتها البحرية فى الخليج بظهور السفن الحربية فى دوريات مستمرة وزيارة موانى الخليج. وفرض ما عرف بنظام الهدنة البحرية والتى تحظر على سائر مشايخ الساحل العمانى ورعاياهم القيام بعمليات جهاد بحرى أو مغامرات بحرية

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ: المرجع السابق.

وتعاقب من يقوم بها وقد اقتصرت تلك المعاهدات فى أول الأمر على موسم الغوص على اللؤلؤ ثم زادت لتظل سارية لمدة سنة تتجدد، وأخيرا وفى عام ١٨٤٣ تجددت لمدة عشر سنوات مرة واحدة.

ورغم أن نظام التهدئة أصبح سارى المفعول منذ عام ١٨٣٥م إلا أنه لم يشمل كل سواحل الخليج، ومن ثم وجدنا عمليات الجهاد البحرى تستمر فى المشيخات التى لم تدخل فى ذلك النظام مما دفع أسطول البحرية البريطانى إلى ضرب مدن الدوحة والوكرة والعديد عام١٨٣٦م بسبب قيام سفن عربية من تلك الموانى بعمليات جهاد بحرى ضد السفن البريطانية والهندية التى ترفع العلم البريطانى وتجددت اعتداءات البحرية الإنجليزية ضد الدوحة عام ١٨٤١م.

وعندما صار نظام الهدنة البحرية دائما بمعاهدة جديدة وقعها مشايخ الساحل العمانى وضمنتها السلطات البريطانية قلت إلى حد كبير عمليات الجهاد البحرى ولم نسمع عن عمليات كبيرة كالتى كانت تحدث قبلا. بل وجدنا فى الوثائق البريطانية تعبير الاضطرابات البحرية بدل تعبير"القرصنة"ومع ذلك حدثت عمليات فردية معظمها ضد السفن الهندية كتلك التى حدثت أمام ساحل الأحساء أواخر عام ١٨٥٤م كانت نتيجتها تدمير السفن العربية المشتركة فى هذه العملية، وتلك التى حدثت عام١٨٥٥م فى الشارقة ضد سفينة من بومباى وأيضا فى عام ١٨٥٦م وعام ١٨٦٠م فى أبو ظبى. وفى كل تلك الحالات حصلت السلطات البريطانية على تعويض لمستحقى السفن التى هوجمت كما تم توقيع العقاب على العرب المشاركين فى تلك العمليات.

ومنذ معاهدات عام ١٨٢٠م بين السلطات البريطانية ومشايخ الساحل العمانى، جعلت تلك السلطات من نفسها رجل بوليس فى الخليج يستخدم القوة لحماية مصالحه هو ويدعى أنه فى خدمة أهل الخليج والملاحة بل والمثل الإنسانية عامة. فنجد هذا الوصف للسلطات البريطانية يتجلى بوضوح فى مشروع"الكولونيل بيلى"المقيم السياسى البريطانى فى الخليج الذى قدمه لحكومة بومباى البريطانية عام ١٨٦٣م بهدف تثبيت النفوذ البريطانى وانفراده فى الخليج العربى[١].

وجاء فى هذا المشروع أن هدف التواجد البريطانى - من خلال مقيمية سياسية - فى الخليج هو مكافحة"القرصنة"ومحاربة تجارة الرقيق وتنمية التجارة"البريطانية"وأن عملية"القرصنة"قد تم كبح جماحها إلى حد كبير وإن كان الأمر يتطلب استمرار المراقبة

(١) لوريمر: المرجع السابق.

من جانب الأسطول البريطانى أما تجارة الرقيق فمازالت قائمة ومن ثم فهو يطلب جعل مقر المقيمية البريطانية فى"رأس مسندم"بدل"بوشهر"حتى يمكن السيطرة على مدخل الخليج فيمكن منع السفن المحملة بالرقيق من دخول الخليج، وكذلك السيطرة على عمليات الجهاد البحرى للعرب الخليجيين، وبالتالى مد النفوذ البريطانى فى شبه جزيرة العرب من ناحية وفى إيران من ناحية أخرى.

وثمة عمليات جهاد بحرى قامت رغم مظاهر القوة البريطانية فى الخليج من أمثال تلك العمليات هجوم سفن عربية على سفينة البريد التجارية البريطانية المسماة"كشمير"أثناء إلقاء مراسيها فى البصرة عام ١٨٧٢م وسلب ما عليها وقتل بعض رجالها وإن كانت السلطات البريطانية قد تمكنت من استعادة أغلب ما سلب على يد المهاجمين وكانوا من عربستان وإعدام سبعة من هؤلاء المهاجمين.

كما شهدت مياه إقليم الأحساء عمليات جهاد بحرى خلال أعوام ١٨٧٨م إلى ١٨٧٩م ولم تستطع السفن البريطانية العمل فى تلك المياه لأن هذا الإقليم كان بصفة رسمية خاضعا للسيادة العثمانية وإن كانت سفينة بريطانية قد استطاعت أسر سفينة عربية خارج ميناء القطيف عام ١٨٧٩م. كما شهدت مياه شط العرب عام ١٨٨٠ م عملية ضد البريطانيين كان من ضحاياها المشرف على محطة البرق البريطانية فى"الفاو"وقد تمكنت السلطات البريطانية من تحصيل التعويضات اللازمة وحملت شيخ المحمرة - على الساحل الإيرانى على توقيع عقوبات شديدة ضد بعض أهله المسئولين عن مثل تلك العمليات.

وحينما استمرت عمليات الجهاد البحرى فى مياه الأحساء أصدرت السلطات البريطانية أمرا عام ١٨٨١م لقائد بحريتها فى الخليج بدخول تلك المياه وتعقب السفن العربية وعدم الالتفات بمسألة السيادة العثمانية ومن ثم ظلت هذه المنطقة هادئة حتى عام ١٨٩٩م حينما قامت عملية بحرية عربية كبيرة قادها أحد أعضاء الأسرة الحاكمة فى البحرين والذى أفلت من المطاردة البريطانية واستمرت تلك العمليات بدرجات متفاوتة حتى عام ١٩٠٥م سواء أمام ساحل الأحساء أو على سواحل قطر.

وفى عام ١٩٠٠م شهد شط العرب نشاطا بحريا كبيرا كان موجها بالدرجة الأولى ضد السفن الإنجليزية والهندية إلى جانب إغارات متفرقة ضد سفن إيران والبحرين ولما كان شط العرب تحت سيطرة كل من إيران وتركيا - كل على جانب - فقد حاولت السلطات البريطانية مع هاتين الدولتين لكى تضمن تعاونهما ضد من يقوم بتلك العمليات البحرية كما قامت السفن البريطانية نفسها بعمليات حربية ضد السفن العربية فى تلك المياه

وحصلت السلطات البريطانية من شيخ المحمرة على وعد بإيقاف القائمين بتلك العمليات من بين عشيرته.

وشهدت سواحل قطر عمليات جهاد بحرى استاءت لها السلطات البريطانية وحاولت أكثر من مرة ضرب مدن قطر، كما هددت بالضرب وقامت بمظاهرات بحرية لإرغام الشيخ جاسم بن محمد آل ثانى ومنذ عام ١٩٠٠م على التعاون معها للقضاء على القائمين بتلك العمليات البحرية من السواحل القطرية، ومع ذلك لم تستطع السلطات البريطانية السيطرة على الساحل إلا بعد فرض الحماية على قطر عام ١٩١٦م وذلك بسبب عدم تعاون شيوخ قطر تعاونا كاملا مع السلطات البريطانية فى فرض السيطرة على القبائل التى تعيش على الأرض القطرية.

المغامرات البحرية:

إن موضوعنا يستلزم الإشارة إلى تلك العمليات التى قامت بها سفن عربية ضد سفن عربية أخرى، تلك العمليات التى أطلقنا عليها اسم الحروب البحرية بين القبائل العربية أو المغامرات البحرية للعرب.

ذلك أنه حدثت بين القبائل العربية الخليجية حروب شهدتها مياه الخليج كما شهدتها صحاريه، أى أن هذه الحروب امتدت من الداخل إلى الساحل ومن الأرض إلى البحر فهى إذن حروب لها أسبابها التى أهمها الصراع حول الامتلاك سواء للأرض أو للمياه خاصة لأماكن الغوص على اللؤلؤ. ومن هنا لايمكن أن نطلق على تلك العمليات اسم"قرصنة"لأن"للقرصنة"مفهوم آخر وليس لها من أسباب سوى الرغبة فى السلب والنهب وتتجه فى الغالب نحو السفن الأجنبية كما رأينا.

ولعل قائل يقول بان السفن العربية التى كانت تغير على بعضها البعض كانت تخرج من هذه الإغارات بمغانم وأسلاب فهى لا تفترق عن عملية القرصنة إذن. ولكننا نرد عليه بالقول أن الحروب المعلنة تعطى للمنتصر حق الحصول على مغانم من العدو بل وأسرى، وهى حروب رسمية بين طرفين يختار أحدهما أو كليهما مكانها ويحدد زمانها. بينما عمليات القرصنة غير ذلك فإنها عدوان لا مبرر له وهى سرقة فى الظلام[1].

وفى هذا المجال سوف نسوق عدة أمثلة على صحة ما ذهبنا إليه وهو أن العمليات البحرية التى قامت بها سفن عربية فى الخليج ضد أخرى عربية أيضا كانت حربا أو مغامرات فى

---

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ: المرجع السابق، ص٢٩٧.

أقل القليل منها ولم تكن أبدا فرصنة لندرك ما رمى إليه المغرضون حين ساووا فى الوصف بين تلك العمليات، وبين العمليات الموجهة ضد السفن الأجنبية المعادية.

يمكن التأريخ لتلك الحروب البحرية بين السفن العربية بعضها وبعض بدخول القواسم فى دائرة النفوذ السعودى واعتناقهم لمبدأ التوحيد الذى دعا إليه الإمام محمد بن عبد الوهاب، ذلك أن القواسم اعترفوا بسيادة الدولة السعودية على ساحل عمان أواخر القرن الثامن عشر وصاروا أتباعا لتلك الدولة يطبقون مبادئها، ومن ثم اعتبر القواسم عملياتهم البحرية ضد السفن العربية الخارجة على الوهابية جزءا من حركة الجهاد وبالتالى فإن الأسلاب تعد غنائم حرب وعليها تأدية خمسها إلى الحاكم الشرعى أى رئيس الدولة السعودية. وقد كانت معظم تلك العمليات موجهة ضد سفن سلطنة مسقط وعمان منذ أوائل القرن التاسع عشر.

كما حدثت تلك العمليات بين القواسم وبنى ياس منذ عام ١٨١٢م وعندما استطاع الإنجليز القضاء على قوة القواسم البحرية وفرضوا عليهم معاهدة عام ١٨٢٠م انضم مشايخ الساحل العمانى للمعاهدة التى فرضت عليهم عدم القيام بعمليات بحرية ضد أى سفينة بالخليج، وأن تسوى القبائل المتعاهدة الخلافات الداخلية فيما بينها، وأن تخضع السفن العربية لتفتيش السفن البريطانية، وأن تتعاون القبائل فى محاربة القبيلة التى تخرج على هذه الشروط.

كما نصت اتفاقات الهدنة التى صارت دائمة منذ عام ١٨٥٣م على أن يتعهد مشايخ القبائل العربية الخليجية باحترام أمن الملاحة فى الخليج ويقدم هذا التعهد للمقيم العام البريطانى فى الخليج وأن يقبل الرؤساء العرب بمقتضى هذا النظام الأحكام التى تصدرها بريطانيا فى حالة نقض الهدنة. ثم صارت بريطانيا حكما مستديما تفرض الغرامات على القبائل العربية التى تهاجم سفنها سفنا أخرى ومع أن هذا لا يعطى لبريطانيا حق التدخل إلا فى الاشتباكات البحرية فإنها كانت تتجاوز اختصاصها فى كثير من الأحيان وتفرض وساطتها فى مشكلات تتعلق بالمناطق الداخلية[1].

ولقد نشطت عمليات الحرب البحرية بين سفن البحر الحربية العربية بعضها وبعض خاصة فى منطقة الأحساء والبحرين وباتجاه سواحل قطر، لأن تلك المياه لم تشملها اتفاقات الهدنة وقادت قبائل بنى هاجر والعجمان وبنى مرة والمناصير وغيرهم تلك العمليات، ونجد فى كتاب دليل الخليج شكاوى من بعض الملاحين المسلمين مقدمة للمقيم السياسى البريطانى بالخليج ضد سفن قبائل عربية خليجية؛ لأنها هاجمت سفنهم واستولت على ما

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ: نفس المرجع السابق، ص٢٩٨.

فيها، وقد كثرت هذه الشكاوى خلال أعوام ١٨٦٥ - ١٨٧٠م بصفة خاصة(١).

كما انتقلت الحرب البرية بين قطر والبحرين وبين قطر وأبو ظبى إلى الميدان البحرى وصارت عملية مهاجمة سفن أى من الطرفين لسفن الطرف الآخر أمرا عاديا بحكم الحرب والعداء بين هذه الأطراف، وشهدت السنوات الباقية من القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى عمليات حربية فى البحر بين سفن عربية تابعة لمشيخة أو قبيلة وسفن عربية أخرى تابعة لمشيخة أو قبيلة أخرى.

ومما شجع على استمرار هذه العمليات وانتقالها من البر إلى البحر ضعف الحكم التركى فى الأحساء وقطر، وقيام النزاعات القبلية ودخول القبائل فى عمليات ثأرية، كالنزاع بين "بنى على" وقبيلة "العمامرة" وكانت نتائج تلك العمليات الأخلال بالأمن وإشاعة الفزع فى مغاصى اللؤلؤ؛ مما كان له أكبر الأثر على حركة التجارة العربية فى الخليج وقد فرضت انجلترا نفوذها بالقوة فى الخليج لم تعد فى وسع السفن الشراعية العربية منافسة السفن الأوروبية، ثم صارت مشيخات الخليج فى حاجة دائمة للمساعدة الخارجية وقد ضمنت انجلترا هذه الحاجة لكى تحكم قبضتها على مشيخات الخليج.

ومما هو جدير بالذكر أن القبائل الخليجية لم تكرس نشاطها للعمليات الحربية البرية والبحرية، بل أنها ساهمت بدور فعّال سواء كانت قبائل الساحل العمانى أو قبائل قطر والبحرين والكويت، وعرب سلطنة مسقط وعمان، فى أعمال الغوص على اللؤلؤ وفى نقل التجارة بين الهند والخليج وشرق أفريقيا.

ولا يمكن استكمال الموضوع دون ذكر بعض الحقائق عن نشاط غير العرب أوروبيين وهنود فى عملية القرصنة فى المياه الهندية والعربية والأفريقية؛ لتتضح لنا الصورة كاملة بين ما يدعيه المؤرخون المغرضون عن "القرصنة" العربية وبين حقيقة القرصنة الأوروبية التى اتخذت لها نشاطا فى مياه المحيط الأطلنطى، نسوق الآن فصلا عن عملياتها فى المياه الهندية والعربية.

يروى لوريمر فى كتابة دليل الخليج عن حدوث نزاع بين الإنجليز والمغول فى الهند نتيجة أعمال القراصنة الأوروبيين وغيرهم خلال الأعوام من ١٦٩١ - ١٧٠٥م فيذكر أنه فى عام ١٦٩١م قامت سفينة انجليزية بعملية قرصنة ضد السفن الهندية مما دفع بسلطات المغول إلى فرض حظر على كل السفن الأوروبية فى "سورات" وأنه وجد قرصانا دانيمركيا

(١) لوريمر: المرجع السابق.

يعمل فى المياه الهندية.

وتعـددت عمليات القرصنة الأوروبية سـواء فى المياه الهنديـة أو فى مياه الخليج العربى، ومن عجب أن نجد معظم القائمين بها انجليز يسـتخدمون سـفنا تحمل العلم الإنجليزى حتى اتفقـت الـدول الأوروبية فيمـا بينها عام ١٦٩٨م على أن تضمن انجلتـرا تطهير المياه الهندية من القراصنة وتتحمل مسـئولية حماية الملاحة فى الخليج العربى من القراصنة، كما تقوم هولندا بمتابعة القراصنة فى البحر الأحمر.

ولـم تذكـر المصادر أن الأوروبيين أبريـاء من هذه العمليات، بـل أن المصادر الأوروبية تذكر أن المغامرين الأوربيين هم الذين شـجعوا بعض المغامرين العرب من مسـقط وبعض الهنـود علـى القيـام بتلـك العمليـات، بـل إن المصادر نفسـها تذكر أن سـفنا تحمـل العلم البريطانى تهاجم سـفنا تحمـل هى الأخرى العلم البريطانى حتى صـار الإنجليز مكروهين فى تلك المياه كراهية البرتغاليين فى الهند.

ورغـم محاولات الحكومـة الإنجليزية المسـاهمة فى القضاء علـى القراصنة فى المياه الهندية والعربية، كما حدث عام ١٧٠٠م حين أعدمت تسعة من القراصنة الإنجليز ورئيسهم فإن التجارة قد تأثرت بتلك العمليات حتى أن تقارير المسئولين الإنجليز فى الخليج ذكرت أن ظهور قرصان انجليزى واحد فى مياه الخليج قد أضر بالتجارة الإنجليزية إضرارا بالغا.

الفصل الثالث

الغزو البرتغالى الهولندى الفرنسى البريطانى لمنطقة الخليج

الغزو البرتغالى للخليج العربى

ازدياد نفوذ الهولنديين فى الخليج

أعمال الفرنسيين فى الخليج

مملكة هرمز والصراع الصفوي العثمانى فى الخليج

الإستراتيجية العثمانية فى مواجهة التواجد الأوربى فى منطقة الخليج

أولا: الغزو البرتغالى للخليج العربى:

بدأ الوجود البرتغالى فى المحيط الهندى منذ عام ١٤٩٨م عندما جاء الملاح البرتغالى فاسكو دي جاما برحلته البحرية إلى مدن شرق أفريقيا واصطحب الملاح العمانى شهاب الدين أحمد بن ماجد ليوصله إلى الهند حيث منبع التجارة الشرقية التى كان العرب والمسلمون يحتكرون نقلها إلى أوروبا عبر الخليج العربى فالعراق فالشام فالبحر المتوسط إلى أوربا ، أو عبر البحر الأحمر فمصر فالبحر المتوسط فأوروبا ، وقد أرخ أحمد بن ماجد مجيء البرتغاليين إلى "قاليقوط" بساحل الهند الغربى فى "أراجيزه".

وجاء لكاليكوت خذ ذى الفايدة	لعام تسعمائة وست زايدة
وباع فيها واشترى وحكما	والسامرى برطله وظلما
وسار فيها مبغض الإسلام	والناس فى خوف واهتمام
وانقطع المكى عن أرض السامرى	وشد جردفون للمسافرى
وخبرنى ما حمله الفرنجى	من جانب السودان شط اللجى
وهو الذى قد قهر المغاربة	وأندلس فى حكمه مناسبة

هنا تصوير لشاهد عيان هو أحمد بن ماجد الذى رافق الملاح البرتغالى فاسكو دى جاما من شرق أفريقيا إلى شاطئ الهند الغربى عند مدينة كاليكوت أو "قاليقوط" ، وأرخ ابن ماجد لهذا الحادث بعام ٩٠٦ هجرية وقد وصف ابن ماجد مظالم البرتغاليين وبغضهم للمسلمين الذين انقطع سفرهم إلى الهند ، واتجهوا بتجارتهم ورحلاتهم إلى رأس جردافون بالقرن الأفريقى.

ووصف ابن ماجد البرتغاليين بأنهم حاربوا المغاربة والأندلسيين المسلمين وجاءوا إلى أفريقيا والبحر العربى والمحيط الهندى كأعداء للمسلمين.

ولكن الملاح ألفنسو ألبوكيرك هو الذى اتبع سياسة السيطرة على الخليج العربى والبحر الأحمر ، ومن ثم سارت القوة البحرية البرتغالية تحرق الموانى العربية وتغرق أساطيل العرب

التجارية تمهيدا لإقامة امبراطورية برتغالية فى الشرق، ولذلك أكثر من إقامة الحصون فى المراكز التجارية لا لحماية التجارة البرتغالية فقط، بل لفرض سلطانه على تلك البلاد.

وقد هاجم الأسطول البرتغالى فى عام ١٥٠٦م بقيادة"الفونسو البوكيرك" جزيرة هرمز الواقعة فى مضيق هرمز، والتى كانت دويلة ذات مكانة تاريخية، واستولى عليها، وبعد أن ضمن السيطرة على مدخل الخليج العربى اتجه إلى مدينة مسقط وأنزل قواته العسكرية بها بعد قصفها بالمدافع وتدمير تحصيناتها، وقد استطاعت القوات البرتغالية الأكثر قوة واستعدادا من إسكات المقاومة العمانية العنيدة، حيث تحمل أهل مسقط الاضطهاد والقتل وإحراق بيوتهم، ومن ثم أقام البرتغاليون قلاعًا وحصونًا فى المواقع الإستراتيجية فى مسقط وفى مدن وموانى سواحل عمان مثل ميناء"خورفكان" ورأس الخيمة وغيرها.

وواصل البرتغاليون تقدمهم فى الخليج بأسلوبهم التدميرى، فهاجموا جزر البحرين عام١٥١٥م واستولوا عليها وبنوا فيها قلعة ضخمة لا تزال أثرها باقية حتى الآن فى مدينة المنامة، وبذلك سيطروا على ساحل الخليج العربى حتى البحرين ولم يتمكنوا من الاستيلاء على الأحساء وفى كل موقع دخله البرتغاليون اتبعوا أساليب البطش والتنكيل والقتل مع الأهالى، وبهذا الأسلوب الوحشى قضى البرتغاليون على تجارة العرب والمسلمين فى هذه المنطقة التى ازدهرت منذ عصور مضت، وإن كان ذلك ولّد لدى العرب المرارة والرغبة في الانتقام من البرتغاليين وهنا ظهرت حركة الجهاد البحرى الإسلامى ضد السفن والوجود البرتغالى فى الخليج العربى[1].

وعندما تأسست شركة الهند الشرقية البريطانية فى الهند عام١٦٠٠م وعملت على نقل متاجرها عبر مياه الخليج العربى اصطدمت بالوجود البرتغالى، ومن ثم تحالفت قوتها الحامية لتجارتها مع المناضلين العرب بقيادة ناصر بن مرشد اليعربى حاكم مسقط، ونجح هذا التحالف فى النهاية من طرد البرتغاليين من كل أقطار الخليج العربى، وكان للفرس دور فى هذا العمل نتيجة تشجيع رجال شركة الهند الشرقية البريطانية، حيث ظهر الأسطول البريطانى فى الخليج العربى واستولى على حصن"قشم" البرتغالى، وفى النهاية نجح العمانيون فى تطهير بلادهم من الاحتلال البرتغالى عام١٦٨٩م[2].

وكان من نتائج زوال الوجود البرتغالى من أقطار ومياه الخليج العربى اشتداد حدة الصراع على النفوذ فى المنطقة بين هولندا وبريطانيا، حيث أصبح حلفاء الأمس - فى طرد

(١) خالد العزي: الخليج العربي في ماضيه وحاضره، بغداد، ١٩٧٢، ص٢٨.

(٢) د. محمود علي الداود: أحاديث عن الخليج العربي، بغداد، ص٨.

البرتغاليين من الخليج العربى - أعداء اليوم في التنافس على التجارة الهندية وطرق عبورها فـي ميـاه الخليج العربي وقـد حدث أول اشـتباك بيـن البريطانيين والهولنديين فى"شـتورا" بالهند، مما أدى إلى استسـلام الهولنديين دون قيد أو شـرط، وأخذت مراكزهم تتسـاقط فـى أيـدى البريطانيين الواحـد بعد الآخر فـى الهند وفـى الخليج العربى، حيث اسـتعملت بريطانيا نفوذها السياسـى لدى كل من الدولة العثمانية والدولة الفارسية للحد من نشـاط التجارة الهولندية فى الخليج العربى، حتى اضطر الهولنديون إلى الانسحاب من"بندر عباس" عـام ١٧٢٠م ومن البصـرة عام ١٧٥٢م ومن جزيرة"خرج" وبقية أرجـاء الخليج العربى وفارس عام١٧٦٥م، وبذلك خلا الجو للنفوذ البريطانى[١].

وقد حاولت فرنسا مد نفوذها إلى منطقة الخليج العربى عن طريق إقامة علاقات تجارية مـع العمانييـن، وتمكنت مـن عقد معاهـدة صداقة وتجارة مع"سـلطان بن أحمد" سـلطان مسقط، حيث كانت الاتصالات الرسمية بين سلطان مسقط وعمان والحكومة الفرنسية تجرى بواسطة"روسـو" القنصل الفرنسـى فى بغداد فى ذلك الوقت. وقـد اعتبر البريطانيون الاتصالات بين فرنسـا وسلطنة مسـقط وعمان خطرا يهدد مصالحهم بصورة مباشرة، ومن ثم اشـتد الصراع البريطانى الفرنسـى بشـأن الهند والطريق إليها، ومن ثم عقدت بريطانيا معاهدة مع"سـلطان بـن أحمد" فى ١٢ أكتوبـر ١٧٩٨م أنهت العلاقات مع فرنسـا وانفردت بريطانيا بهذه العلاقات بتواجد سياسى وعسكرى[٢].

وهكـذا لم يبدأ القرن التاسـع عشـر الميلادى إلا وكان النفـوذ البريطانى بل والوجود البريطانـى فـى أقطـار الخليج، وإن شـئنا الدقة فى بعـض موانى أقطار الخليـج مثل هـرمز ومسـقط، وفـى مياه الخليج حتى البصرة شـمالا قـد انفرد ولم يعدله منافـس؛ وهنا جاءت عمليات الجهاد البحرى الإسلامى من أقطار الخليج العربى ضد جميع السفن الأجنبية المارة فـى مياه الخليـج العربى تلك العمليات التى جاءت ردا على ما فعله البرتغاليون ضد سـكان أقطار الخليج العربى، ثم انسحبت ضد الهولنديين فالبريطانيين طوال القرن التاسع عشر.

كان البرتغاليون أول قوة أوروبية تدخل إلى منطقة الخليج العربى أوائل القرن السادس عشر بعد نجاحهم فى الدوران حول أفريقيا والوصول إلى شبه القارة الهندية عام١٤١٨م - كما سبق أن ذكرنا - وجاء ظهور البرتغاليين فى الخليج فى عام ١٥٠٧م على يد"الفونسو ألبوكيرك" الذى نجح فى الاسـتيلاء على كل من"قلهات" و"قريات" و"مسـقط" و"صحار" و"خورفكان" و"هـرمز"

(١) خالد العزي؛ مرجع السابق، ص٣١.
(٢) محمود علي الداود: مرجع السابق، ص٢٠.

وقد استخدم البرتغاليون أفظع وسائل التعامل مع سكان هذه المدن الذين لم يستسلموا بسهولة للعدوان البرتغالى، واستمرت ثورات الأهالى فى هرمز ومسقط وقلهات والبحرين.

بدأ الصراع السافر بين البرتغاليين والأتراك فى الخليج العربى حوالى عام ١٥٥٠م حين أعلن أهالى"القطيف" أنهم يضعون أنفسهم تحت حماية الأتراك الذين كانوا قد احتلوا البصرة منذ عهد قريب، ومن ثم بدأ الصراع بين الأتراك والبرتغاليين فى منطقة الخليج العربى، واشتد الصراع حول البصرة والبحرين ومسقط، بين كروفر بين الطرفين، وقد نجح البرتغاليون فى بناء قلعة كبرى فى مسقط عام ١٥٨٦م وقد اضمحلت قوى البرتغاليين فى الخليج فى الفترة من عام١٦٢٨م إلى عام ١٦٥٣م رغم محاولتهم الاستيلاء على ميناء البصرة أو على الأقل تأكيد نشاطهم التجارى هناك فى الفترة من ١٦٢٥م إلى عام ١٦٤٠م، وقد نجح العمانيون من طرد البرتغاليين من عمان فى الفترة من عام ١٦٤٠م إلى عام ١٦٥٠م.

لعل أهم أسباب انهيار نفوذ البرتغاليين فى منطقة الخليج العربى العنف وسوء النية فى التعامل مع جيرانهم من أهل الشرق، إلى جانب مشاعر الحسد والشقاق التى كانت فاشية بينهم - خاصة قياداتهم - على الدوام. فقد ذكر الرحالة الإيطالى"بيترو ديلافالى" فى عام ١٦٢٤م إلى عام ١٦٢٥م أن دمار أحوالنا نابع من احتكار كبرائنا لصغارنا، ومن طمع صغارنا طمعا أعماهم عن دعوة الوطن والشرق، إن البرتغاليين قادرون على استرداد ما يخسرون، ولكنهم عاجزون عن استبقائه[1].

وكان البرتغاليون ما يزالون فى الفترة من عام١٦٥٣م إلى عام١٧٢٢م يتشبثون ببقايا مصالحهم فى الخليج باستغلال وكالتهم فى"كنج" حيث كانوا منذ سنة ١٦٢٥م ينالون نصف العوائد، كما هى الحال مع الإنجليز فى"بندر عباس" وكانوا كثيرا ما يشتبكون مع الإيرانيين وفى قتال دائم مع عرب الخليج كما كانت علاقتهم مع الإنجليز علاقة غير ودية[2].

مشاكل البرتغاليين مع الإيرانيين ١٦٥٣ - ١٧٢٢:

ويبدو أن حصول البرتغاليين على نصيبهم من عوائد كنج كانت صعوباته كنفس مصاعب الإنجليز فى تحصيل نصيبهم من عوائد بندر عباس، وفى إحدى المرات قام البرتغاليون بمناورة لإظهار القوة بحرا لتحصيل متأخراتهم من العوائد، ولقد كان فى

(١) آسيا البرتغالية: مجلد ٣، ص٣٨٢ - ٣٨٣ - ترجمة ستيفن لكتاب فرياي سوما.
(٢) لوريمر: دليل الخليج، القسم التاريخي، ط١، ص١١٥.

حديث أحد وكلاء الإنجليز في تقرير له سنة ١٧٦٠ - في معرض حثه على تطبيق نفس الفكرة لتحصيل العوائد الإنجليزية المتأخرة في بندر عباس - ما أعان على معرفة تاريخ وقوع تلك المظاهرة. وفي سنة ١٦٨١ أو سنة١٦٨٢ كرر البرتغاليون المناورة البحرية نفسها، على مستوى أضيق هذه المرة - فاستطاعوا تخويف الشاهبندر وإرغامه على أن يدفع - وهو صاغر - مبلغ تسعة آلاف تومان كانت مستحقة لهم، وقيل أنه بعد سنة ١٧١١م لم يدفع للبرتغاليين شيئا من نصيبهم في عوائد كنج، وحوالي سنة ١٧٢١م كان حجم التجارة في كنج ضئيلا، وكان يقوم بها عدد من الهنود - الهندوك والمسلمين - غير أن انتعاش هذا الميناء قل إلى حد بعيد نتيجة أعمال أعراب مسقط، وكان في كنج عندئذ كنيسة واحدة فيها راهبان يعيشان على الإحسان والمنح[1].

علاقة البرتغاليين بالإنجليز ١٦٥٣ – ١٧٢٢م:

وكان في جملة الاعتبارات التي تحول دون لجوء شركة الهند الشرقية للقوة البحرية على الساحل الإيراني هو الخوف من أن يخدم الصدام بين الإنجليز والإيرانيين مصلحة الهولنديين أو البرتغاليين. لهذا لم تلجأ الشركة إلى مثل ما قام به البرتغاليون والهولنديون من قبل. وفي سنة١٦٧٦م حدث استياء شامل بين الإنجليز نتيجة رفض البرتغاليين منح أذونات مرور لسفن الأهالي التابعة لهم والمتوجهة إلى بندر عباس، وفي السنة التالية قرر الإنجليز أنه في حالة إصرار البرتغاليين على مسلكهم المعادي أن يرفضوا منح السفن الهندية المتجهة إلى كنج أذونات مرور انجليزية. ولا يعرف ما أسفر عنه هذا الخلاف. وفي سنة ١٦٨٩م قامت، كما ذكرنا سابقا، إحدى سفن القراصنة الإنجليز بنهب الوكالة البرتغالية في كنج وقد ظهرت هذه السفينة في الخليج ظهورا سريعا وفشلت سفن الشركة الإنجليزية في مطاردتها. ومنذ سنة١٦٩٥م توقفت زيارات سفن الشركة الإنجليزية لميناء كنج بسبب قلة الأرباح كما يبدو.

ويرى في الفترة التالية أن البرتغاليين كانوا يميلون للشك بأن غارات القراصنة العرب على سفنهم إنما هي شيء يتعمد الإنجليز تشجيعه والتحريض عليه[2].

علاقة البرتغاليين بعرب عمان ١٦٥٣ - ١٧٢٢م:

لقد كانت العلاقات بين البرتغاليين وعرب عمان عدائية منذ سقوط هرمز، وكانت بينهما حالة حرب قائمة بشكل دائم، وحوالي سنة ١٦٦٠م استطاع عرب مسقط انتزاع

(١) لوريمر: المرجع السابق.
(٢) لوريمر: المرجع السابق، ص١١٦.

ممبسة مؤقتا من أيدى البرتغاليين، لكن الصراع بين هذين الجانبين لم يبلغ قمة خطورته إلا فى العقد الأخير من القرن السابع عشر.

وفى سنة ١٦٩٣م استطاع عرب مسقط إلحاق خسائر جسيمة ببعض سفن البرتغاليين، وقاموا فى سنة ١٦٩٤ أو ١٦٩٥م بغارة بحرية على ميناء كنج موقعين به خسائر قدرت بحوالى ٦٠ألف تومان. وفى حوالى سنة ١٦٩٦ وافق البرتغاليون الذين تنقصهم حكمة جيرانهم الإنجليز والهولنديين وقوتهم على مساعدة الإيرانيين ضد قراصنة مسقط. وكانت النتيجة المباشرة لذلك القرار أن قسم عرب مسقط أسطولهم قسمين:

سار أحدهما على طول الساحل الأفريقى حتى دمر المستوطنة البرتغالية فى ممبسة، وانطلق الثاني إلى حيث دمر الوكالة البرتغالية في مانجالور على الساحل الهندى[1] وقد عزا البرتغاليون سنة ١٦٩٧عدوان عرب مسقط عليهم إلى إمدادات وأسلحة تلقوها من الإنجليز فى بومباى، زاعمين أيضا أن السفن العمانية كان يقود معظمها ضباط انجليز وكانت ترفع العلم الإنجليزى. وفى نفس السنة تعرضت سفن البرتغاليين أن شركة الهند الشرقية قد سمحت لهم ولسفنهم بالمرور، لكن الشركة أنكرت أية علاقة لها بهم، وتنصلت من أية مسؤولية عن أعمالهم.

وفى ١٣ مايو ١٦٩٨م هاجم أسطول عمانى مكون من ثمانى سفن فرقاطتين برتغاليتين، وكان والى مطرح يقود الأسطول العمانى. ونشبت معركة استمرت ثلاث ساعات، وانتهت بهزيمة العرب وقتل عدد كبير من رجالهم وبينهم القائد نفسه، فى حين لم يقتل من البرتغاليين سوى خمسة رجال وجرح١١. وحوالى سنة ١٦٩٩م استولى العمانيون على ممباسة، وظلوا فيها حتى استعادها البرتغاليون مؤقتا منهم فى سنة ١٧٢٨م، كما حدثت مجزرة رهيبة للبرتغاليين على طول الساحل الأفريقى.

١٧١٤ - ١٧١٩م:

ساد القتال بين الفريقين فترة سكون دامت حتى ١٩ فبراير سنة ١٧١٤م حين هاجم العرب أسطولا برتغاليا خارج سورات، لكن البرتغاليين استطاعوا صد أعدائهم إلى البحر، بعد أن قتل لهم ٢٨ قتيلا وجرح ٣٤، ويقال أن سفينة القيادة العربية قد غرقت فى طريق عودتها متأثرة بالإصابات التى أصيبت بها فى المعركة. وسرعان ما حاول العرب الانتقام فجاءوا بأسطول إلى كنج وطلبوا إلى الشاهبندر تسليمهم الوكيل البرتغالى

(١) هاملتون: التاريخ الجديد مجلد أول ص٧٥.

هنـاك، غيـر أنهـم هزموا هذه المـرة أيضا ورجعوا بخسـائر كبيرة[1]. وفى فبراير سـنة ١٧١٩ - وكانت الظروف الآن قد أصبحت أكثر ملائمة - أرسـل أسـطول برتغالى إلى الخليج، وفى ٤ أغسـطس اسـتدرج الأسطول البرتغالى أسـطولا عربيا إلى معركة خارج كنـج، وكان اليـوم الأول فـى المعركـة الذى اسـتمر فيه القتـال من التاسـعة صباحا حتـى السـابعة مسـاءا - فـى صالـح البرتغاليين. وفـى اليوم التالى اسـتمروا فـى مطاردة أعدائهـم ولم يرجع أسـطولهم إلـى كنج حتى ٨ أغسـطس. وفى هذه الاشـتباكات قتل من البرتغاليين ١٠ رجال وجرح خمسـة وثلاثون، وفى نفس الوقت تراجع أسـطول العرب عبـر الخليج إلى رأس الخيمـة. وكان البرتغاليون - الذين يظنون العرب يتلقون إمدادات من الإنجليز والهولنديين - ما يزالون يوالون البحث عنهم.

والتقوا بهم مرة أخرى فى ٢٩ أغسـطس، وبعد مزيد من القتال اسـتطاعوا أن يردوا آخر سفن العرب على أعقابها، وكان ثمة أسرى من الجانبين أصبحوا أرقاء...... لكن أسرى العمانيين لقوا معاملة أفضل من أسرى البرتغاليين على ما يقال.

ازدياد نفوذ الهولنديين فى الخليج ١٦٢٨ - ١٦٥٣م:

يجـب أن نلاحـظ أن اختفاء البرتغاليين وبعدهم عـن الميدان لم يؤد إلى خلاص الإنجليز من المنافسـة السياسـية والتجارية، لأنه مع تدهور قوة البرتغاليين - كانت قوة الهولنديين تتزايد تزايدا سريعا أصبح يتهددهم بالخطر. فقد لجأ الهولنديون فى إيران إلى إتباع مختلف أسـاليب الرشـوة ودفع أثمان مرتفعة فى السـلع الإيرانية، وثابروا على بذل المجهود من أجل إزاحة الإنجليز عن المكان الذى احتلوه بالجهد والألم، وفى سنة ١٦٣٨ - السنة التى قام بها مندلسلو بزيارة بندر عباس وكان للهولنديين كما للإنجليز وكالة فيها - كان الهولنديون يحتكـرون كل تجـارة التوابل، كما كانوا قد أظفروا بإعفائهم من ضرائب الاسـتيراد، وفى سنة١٦٣٩ - ١٦٤٠ كانت حركة سفن الهولنديين وتجارتهم مسيطرة فى بندر عباس، لكن القائمين على الوكالات الإنجليزية فى ايران رفضوا أوامر شـركتهم بإغلاق وكالة أصفهـان وأرجـأوا تنفيـذ ذلك حتى لا يتيحوا الفرصة كاملة لمنافسـيهم، وفى سـنة ١٦٤١ عمد الهولنديون لرغبتهم"فى زيادة حجم" تجارتهم من الصادرات الإيرانية أو احتكارها إلى بيع البضائع الأوروبية فى إيران بثمن أقل من ثمن التكلفة.

وفى سـنة ١٦٤٥ أرسـل الهولنديون - وقد أصبح هدفهم الآن هو بسـط نفوذهم فى إيران مسـتخدمين لذلك كل الوسـائل مهما كانت بما فيها القوة العسـكرية - أرسلوا أسطولا

(١) لوريمر: المرجع السابق، ص١١٨.

ضخما إلى الخليج يقوده القائد بلوك[1] وفى بندر عباس طلبوا إلى الإيرانيين رد مبلغ ٤٩٠٠ تومان كعوائد جمركية سبق أن دفعها الوكيل الهولندى، ومن هذا يتضح لنا أن الهولنديين لم ينجحوا نجاحا تاما فى تلافى دفع العوائد الجمركية، وأصبح التواطؤ بين الهولنديين والمسئولين الإيرانيين خطيرًا لدرجة حتمت نقل ممتلكات شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى بندر عباس إلى البصرة ضمانا لسلامتها، وكان ذلك فى يونيو سنة١٦٤٥.

وبعدها وسع الهولنديون رقعة حربهم التجارية ضد الإنجليز ومدوها إلى العراق فأرسلوا أسطولا من ثمانى سفن إلى البصرة. وأدت هذه الخطوة من جانبهم إلى تدمير مؤقت لأعمال الوكالة التجارية الإنجليزية التى كانت أنشئت هناك مؤخرا. وفى سنة ١٦٤٩، وصل نفوذ الهولنديين فى الخليج إلى قمته، وبدت طوالع لحصولهم على امتيازات أخرى من الحكومة الإيرانية التى أصبحت ترهبهم لكنها لا تحترمهم، وفى سنة ١٦٥٠، زادت كفة الهولنديين فى الخليج رجوحا، وزادها طرد البرتغاليين من مسقط، وفيها وصل أسطول هولندى ضخم مكون من عشر سفن إلى بندر عباس وأنزل حمولة ضخمة. وحوالى هذا الوقت استطاع الهولنديون كما يقول تافرنير تصريف ١,٥٠٠,٠٠٠ رطل من الفلفل فى إيران[2] دفعوا منها ثمن كل الحرير الإيرانى. وفى العام التالى وصل إلى بندر عباس أسطول هولندى مكون من ١١ سفينة يحمل شاحنة من البضائع قيمتها أكثر من ١٠٠ ألف جنيه انجليزى، وتأثرت التجارة الإنجليزية بهذا تأثرا بالغا، وفى سنة ١٦٥٢ - ١٦٥٣ أرسل الهولنديون ١٥ سفينة إلى بندر عباس تقدر حمولتها بحوالى ١٢٠ ألف جنيه انجليزى، واستطاعوا بهذا أن يكتسحوا التجارة الإنجليزية اكتساحا تاما، لكن الشاه ظل على رفضه لطلبهم التساوى فى المعاملة مع الإنجليز من حيث الامتيازات التجارية، وذلك على أساس أنهم لم يقدموا لإيران من الخدمات مثل ما قدم الإنجليز، على أنه استقبل بعثة هولندية فى أصفهان استقبالا حسنا، غير أنه برغم كل ما كان يفيده من الهولنديين وبرغم التضحيات النقدية الكبيرة من جانبهم، رفض أن يمنع الإنجليز من الحصول على قدر كبير من الحرير بشروط مناسبة[3].

الحرب الإنجليزية الهولندية فى الشرق ١٦٥٣ – ١٦٥٤م:

عقب وصول أنباء إعلان الحرب بين انجلترا وهولندا إلى الهند اقترح الهولنديون فى

---

(١) جوليات بروس: المجلد الأول، ص٤١٤.

(٢) لوريمر: المرجع السابق، ص٧١.

(٣) لوريمر: المرجع السابق.

الشـرق تحالفـا بينهم وبين البرتغاليين لتحطيم التجارة الإنجليزية. وقـد رفض البرتغاليون قبـول هـذا العـرض، كمـا رفضوا أيضـا قبول عـروض مضادة عرضهـا عليهـم الإنجليز. واستطاع الهولنديـون دون معونـة أحـد الاستيلاء على سـفن الشـركة "روبك" و "لانيربت" تجاه سـاحل جاشك، وبعدها بقليل استطاعوا أيضا الاستيلاء على السفينة "بليسنج" كما اضطـروا السفينة "سـيلاى" للهـروب جهـة السـاحل حيث أصبحت شـبه غارقة. وفـى نهاية يناير ١٦٥٤ استطاعت خمس سـفن هولندية فى معركة خارج بندر عباس إغراق السـفينة الإنجليزية "اندوفـر" والاسـتيلاء علـى السـفينة "فالكون" وأسـر حوالـى ثلاثين أسـيرا فى ظروف ليسـت مشـرفة للانجليز على الإطلاق[1]، والحقيقة أن البحارة من الجانبين جميعا كانـوا فى حالة سـكر شـديد. كذلـك بلغت سـيطرة الهولنديين على الخليـج من القوة بحيـث صـدرت التعليمات حتى لوكيل الشـركة فى البصرة بالانتقـال إلى مكان أكثر أمنـا، وظـن البعض أنه بات ضروريـا نقل الحرير الإيرانى إلى أوروبـا عن طريق أصفهان، لكـن أخبار حلول السـلام جـاءت فـى نهايـة المطـاف فرجـا مـن ذلـك الموقـف الحـرج.

تفوق التجارة الهولندية على الإنجليزية ١٦٥٤ - ١٦٨٤م:

وخـلال مـا تبقـى من هـذه الفترة، فإن مـا ذكرناه سـابقا يظهر أن سـيطرة الهولنديين على الخليج ونشـاطهم الدائب فيه ظلا مصدر قلق لشـركة الهند الشـرقية البريطانية. وما كان اقتراح إقامة محطة انجليزية فى مسـقط سـنة ١٦٥٩ ليهدف إلا إلى القيام بعمل مضاد لهذه السـيطرة. وفى سـنة ١٦٦٤ وضح أن للهولنديين السـيطرة الأولى على التجارة فى بندر عبـاس، وقـد أخذوا يرسـلون ثلاث أو أربع سـفن ضخمة موسـوقة جيـدا بالبضائع فى كل سـنة، حتى "أضحـوا مهميـن تماما لكنهـم محتقرون أيضـا" وحين زار دكتـور جون فراير بندر عباس فى سـنة ١٦٧٧ "وجد الهولنديين يسـيطرون سـيطرة مطلقة على تجارة التوابل"، وكان احتكارهم هذه التجارة قويا ومحكما حتى أنهم ذات مرة أحرقوا حمولة أربع سفن لهـم كـى يرغمون التجـار الإيرانيين على قبول الأسـعار التى يحددونها لحمولة السـفينتين الباقيتين - وكانوا قبل ذلك يتجرون تجارة واسعة فى السكر والنحاس، وقد قدر دكتور فراير "صادراتهم من المخمل والحرير الخام والمطبوع والسجاد الفارسى الفاخر، إلى جانب أطنان من الذهب والفضة فى كل سنة مما يزيد على خمسين ألف تومان".

وفى سـنة ١٦٨٢م كان الهولنديون ما يزالون يرسـلون سـفينتين كبيرتين كل سنة إلى بندر عباس، وكانت المقارنة بين سـفنهم وسـفن شركة الهند الشـرقية البريطانية ليست

(١) نفس المرجع، ص١١٠.

من صالح هذه الأخيرة بأية حال[1].

استمرار المنافسة بين الإنجليز والهولنديين بمزيد من الخسائر للهولنديين ١٦٩٥ - ١٧٠٥م:

وفى ١٦٩٥ ، ولما زادت حدة المشاكل بين الإيرانيين والعرب فى الخليج بتكرر هجوم العرب على سفن الإيرانيين ، خشى الإنجليز أن يسارع الهولنديون إلى نجدة الشاه فيكسبون بذلك حقوق الدولة المفضلة فى المتاجرة مع إيران. لكن هذه المخاوف لم تتحقق ، وكان الهولنديون فى ذلك الوقت يتمتعون بحق تصدير ما قيمته ٢٠ ألف تومان من البضائع إلى أصفهان معفاة من الضرائب كل سنة ، فى مقابل حق الإنجليز فى تصدير ما قيمته خمسة آلاف تومان فقط. وفى سنة ١٦٩٧ قدمت شركة الهند الشرقية البريطانية سفينتها "شارل الثانى" إلى الشاه كى يقوم بنقل سفيره الخاص إلى بلاط المغول فى الهند ، وذلك بهدف كسب نقطة فى صفها ضد الهولنديين. وقد أشرنا من قبل إلى أن الهولنديين قد احتجوا احتجاجا شديدا فى سنة ١٦٩٩ على دفع الإيرانيين جانبا من نصيب الإنجليز من عوائد بندر عباس حريرا ؛ لأنهم كانوا يحتكرون تصدير الحرير الإيرانى كله عن طريق البحر. ويبدو أن احتجاجهم هذا لم يثمر شيئا ، لكنهم استطاعوا أن يجدوا طريقة يستميلون بها الشاهبندر لصفهم[2] ، ويبدو أنهم قد أغروه بأن يؤكد أنه قام بدفع مبلغ ١٣٠٠ تومان زيادة فى حساب الوكيل الإنجليزى عما قرره الوكيل نفسه ، غير أن زيارة الشاه للوكالة الإنجليزية بأصفهان فى يونيو سنة ١٦٩٩ كانت ضربة حاسمة للهولنديين لأنها أدت إلى تغيير فورى فى اتجاه الشاهبندر نحوهم ، فسرعان ما أمر بإيقاف العمل فى قلعة كان الهولنديون يقيمونها لأنفسهم فى بندر عباس ، ورغم أنهم التمسوا شرف زيارة الشاه لوكالتهم أيضا ، إلا أنه لم يجبهم إلى ذلك. ويزعم الهولنديون أن الوكيل الإنجليزى قد استطاع إقناع الشاه بأن الهولنديين أمة بلا ملك ، وهى لهذا غير جديرة باهتمامه.

وفى سنة ١٧٠٥ كانت مشكلات القراصنة ما تزال قائمة ، وخشى الإنجليز أن يبادر الهولنديون إلى العمل على الخلاص منها فيقتربون بذلك إلى الشاه ، غير أن مخاوفهم هذه ، مرة أخرى ، لم تتحقق[3].

---

(١) لوريمر: المرجع السابق، ص١١١.

(٢) المرجع نفسه، ص١١٣.

(٣) لوريمر: المرجع السابق، ص١١٤.

تآمر الهولنديين ضد الإنجليز ١٦٨٦م:

وفى سنة ١٦٨٦ حاول الهولنديون جهدهم للإيقاع بين البلاط الإيرانى والإنجليزى، غير أن مترجم الشركة الإنجليزية، وهو رجل أرمنى كان يقيم فى أصفهان، استطاع إحباط هذا التآمر.

إقامة دكتور أ. كايمفر فى بندر عباس ١٦٨٦ - ١٦٨٨:

وفى نوفمبر ١٦٨٥ قبل الرحالة دكتور كايمفر وظيفة كبير الجراحين فى شركة الهند الشرقية الهولندية فى الخليج، وهو من مقاطعة وستفاليا، وكان قد جاء لإيران لأول مرة فى سنة ١٦٧٤ كسكرتير لسفير السويد فى البلاط الإيرانى، فترك أصفهان إلى بندر عباس، ورغم أنه كان يعانى من اعتلال صحته، استطاع القيام بدراسة وافية فى التاريخ الطبيعى لإقليم بندر عباس ضمنها رسما تفصيلا لأشجار النخيل.

زيادة التنافس بين الإنجليز والهولنديين١٦٨٨ - ١٦٨٩م:

وحوالى سنة ١٦٨٨ أى من الوقت الذى أصبحت فيه مصالح الهولنديين فى أوروبا خاضعة لمصالح الإنجليز، والدولتان معا فى حلف للحرب ضد فرنسا "بدأ الهولنديون يفقدون أسهمهم فى إيران، وكانوا حتى ذلك الوقت ينافسون الإنجليز فى استرداد المصنوعات الهندية" لكن الإنجليز استطاعوا الحيلولة دون حصولهم على حق احتكار الصوف فى كرمان[1].

أعمال الفرنسيين فى الخليج ١٦٥٣ - ١٧٢٢م:

أسس الفرنسيون الشركة الفرنسية لجزر الهند الشرقية فى سنة ١٦٦٤ وفى سنة ١٦٦٧ - ربما قبل ذلك - كانت لهم وكالة تجارية فى بندر عباس. وفى هذه السنة زار الدكتور فراير بندر عباس وكتب هذه الملاحظات عن التجارة الفرنسية هناك"الفرنسيون فى هذا الميناء، كشأنهم فى كل مكان آخر، ليس لهم كبير عمل يعملونه، ولولا ما يحصل عليه مترجمهم هناك من ربح من تجارة الهند(كان له امتياز التجارة فى النبيذ فى سيراس كما كانت لباقى الدول الأوروبية) لما استطاعوا تدبير قوتهم. ويعيش السيد الفرنسى هناك ناعم البال. بلا عمل سوى أن يزور وزيرا(ويعامل الجميع بود وبشاشة وآداب فرنسية أصيلة سواء كان هؤلاء مسيحيين أو وطنيين) وبهذه الكيفية ينفق أوقاته، وفى سنة ١٦٨٢ كانت للفرنسيين تجارة محدودة فى المنسوجات بالبصرة. . . . . وفى سنة١٦٩٨ - كما رأينا - ثم بين دول أوروبا الرئيسية توقيع اتفاقية اسمية، لم ينتج عنها شىء بالمرة، وبموجبها

(١) لوريمر: المرجع السابق، ص١١٢.

تعهد الفرنسيون بحماية منطقة الخليج من القراصنة[1].

مملكة هرمز ضحية الصراع الصفوى العثمانى على الخليج:

مملكــة هرمــز أسسـها أتـراك إيران فى زمن السـلاجقة فـى إحدى الجـزر القريبة من السـاحل الإيرانى أى السـاحل الشـرقى من الخليج، ولكن كما نعلم جميعا أن كل شـيء يخرج من إيران يصبغ بصبغة الفارسـية عند إخواننا العرب، هكذا حال التورك فى إيران، نعم كثيرون فى العالم يظنون أن السلاجقة والصفويين والخوارزميين والغزنويين والغوريين والأتابكـة والجلائريـين والإيلخانيـين والقرة قوينلوا والآق قوينلوا على أسـاس أنهم فرس، لكـن فـى الوقع أنهم تورك وهكذا حال مملكة الهرمز اعتبرت مملكة فارسـية مع العلم الهرامزة هم إحدى فخذ من أفخاذ التورك الياقوت الذين وصلوا إلى بلاد الرافدين ٤٠٠٠سنة قبل ميلاد المسـيح عليه السـلام وإلى سـواحل الخليج وخاصة السـاحل الشـرقى ما يسـمى إيران حاليا من آسـيا الوسـطى مع العلم أن إيران يتكون خمسين بالمئة من التورك الآذريين والتوركمانسـتانيين، هؤلاء هم من أسسـوا نواة الحضارة السومرية..... بعد هذه المقدمة أود أن انقل لكم جزء بسيط عن تاريخ مملكة هرمز.

حتـى القرن السـادس عشـر الميلادى، لم يكـن الخليج يحظـى باهتمام القـوى الدولية والإقليمية على السواء، فكانت الحياة فى الخليج ساكنة، وكان الخليج بقومياته وبنشاطه التجارى سـاد فى الاسـتقرار الاجتماعى والاقتصادى والسياسى، وكان التداخل بين العرب والفرس أمرا شـائعا على سـواحل الخليج وجزره، فثمة قبائل عربية، اسـتقرت على الساحل الشرقى، وفى المقابل ثمة مجاميع بشرية فارسية استقرت على الساحل الجنوبى الغربى.

وحين قدم البرتغاليون إلى سـواحل الخليج عام١٥٠٧م كانت هناك دولة تجارية عظيمة الثـراء، وإن كانت تفتقر إلى القوة العسـكرية والخبـرة القتالية، وهى مملكة هرمز التى تبعد نحو ١٢ ميلا عن الساحل الفارسى فى مدخل الخليج، وقد بسطت نفوذها على الساحل الغربـى مـن القطيف شـمالا حتـى رأس الحاد جنوبا، ودخلـت فى حوذتها البحرين وقشـم، وممن ممتلكات هرمز أيضا قلهات، قريات، صحار، خورفكان، مسقط، رأس الحاد.... كما شملت الأحساء والقطيف.

وكانـت مملكـة هرمز تمثـل نموذجـا للمجتمع الفسيفسـائى، فإلى جانـب العنصرين العربى والفارسـى، هناك عناصر مـن قوميات أخرى هندية وأفريقيـة متنوعة، وهذا التنوع

---

(١) المرجع نفسه، ص١١٩.

نابع من أهمية الموقع الجغرافى الذى تحظى به هذه المملكة، فقد كانت تعد حتى القرن السادس عشر الميلادى مركزا تجاريا بالغ الأهمية وقد ازدهرت فيها تجارة اللؤلؤ.

وقد أصبحت هرمز تابعة اسميا للدولة الصفوية، وبدأت هذه التبعية فى عهد الشاه إسماعيل الصفوى، ولكن خضعت هذه التبعية للظروف السياسية المحيطة، وميزان القوى الإقليمية والدولية، ففى فترة اشتداد الضغوطات السياسية والتهديدات العسكرية البرتغالية على هرمز كان يلجأ حكامها إلى إعلان الولاء للدولة الصفوية، وفى أحيان أخرى يطلبون النجدة من العثمانيين، وهذا ما دفع البرتغاليون للتفكير فى فرض إدارة مباشرة على الجزيرة عام ١٥١٥م. وقد انصرفت الدولة الصفوية خلال هذه الفترة إلى فتوحات فى الشمال وإلى حروب ضد العثمانيين، ولم تول أمور الخليج اهتماما كبيرا فكان الشاه إسماعيل يترك غالبا المناطق الساحلية الجنوبية لحكام شبه مستقلين.

وقد استغل البرتغاليون انشغال قوات الشاه إسماعيل فى شمال فارس فى الحرب ضد العثمانيين، فوطدوا نفوذهم فى جزيرة هرمز والساحل العمانى، واستولوا على القطيف والبحرين، ونكثوا بذلك عهدهم للشاه إسماعيل بمساعدته فى بسط حكمه عليها، وقد زار ألبوكيرك البحرين عام ١٥١٥م من أجل تعزيز العمل بمقتضى المعاهدات القائمة بين حاكمها المحلى وملك هرمز الخاضع من الآن للسيطرة البرتغالية. وكان الشاه إسماعيل قد حاول فى بدايات التهديدات البرتغالية لمملكة هرمز أن يحث حكامها على الثورة ضد البرتغاليين ووعدهم بالمساعدة، غير أن حاكم هرمز أظهر خطاب الشاه للبرتغاليين، فانقلب الشاه إسماعيل على موقفه سنة ١٥١٠ طالبا التحالف مع البرتغاليين ضد العثمانيين، ووقع اتفاقية معهم جاء فيها:

١ - أن تساند البحرية البرتغالية القوات الإيرانية فى الاستيلاء على البحرين والقطيف.

٢ - يتعهد البرتغاليون بمساندة الشاه فى القضاء على الحركات الانفصالية التى قامت فى إقليم مكران.

٣ - قيام حلف عسكرى بين الطرفين ضد الدولة العثمانية.

٤ - إعادة توران شاه إلى هرمز نائبا عن الملك البرتغالي عمانوئيل وهذا يعنى اعتراف الشاه بتعبية هرمز للبرتغاليين.

وفى غضون ذلك، استولى حاكم الأحساء "مقرن بن زامل" على البحرين والقطيف، وطرد النفوذ البرتغالي والهرمزى منها، ولكن البرتغاليين عادوا فسيطروا على البحرين بعد

القضاء على حركة مقرن بن زامل، وإثر سقوط البحرين بفترة وجيزة، قاد ملك هرمز عام ١٥٢٢م حركة تغيير شاملة فى كافة ممتلكاته، استهدفت بدرجة أساسية تصفية الوجود البرتغالى، واستجابت لهذه الحركة المناطق الخاضعة لمملكة هرمز، وفى مقدمتها البحرين؛ فعلى أثر اتجاه البرتغاليين عام ١٥٢٩م على التخلص من الوزير شرف الدين الذى كان يسير أمور هرمز بأسلوب متعارض والمصالح البرتغالية، أعلن سكان البحرين احتجاجهم ضد البرتغاليين وامتنعوا على دفع الجزية المقررة عليهم حيث قاد حسين ابن سعيد شيخ بنى جابر حركة التمرد الشعبى فى البحرين وقتل الحاكم البرتغالى، وكان سىء السيرة والصيت عند السكان البحارنة، ثم طردوا الحامية البرتغالية منها، التى فشلت فى قمع حركة التمرد الشعبى وإرغام السكان على دفع الجزية، بعد انتشار الأمراض فى أفراد الحامية ونقص عتادها، فاضطرت للانسحاب إلى هرمز، وهذا يمثل أول اختبار لقوة البحرين فى ميزان القوى الإقليمية، حيث بات ثابتا فى ظل المعادلة الجيوسياسية الإقليمية أن البحرين شأنها شأن الدول الصغيرة، تظل فى مسيس الحاجة إلى تحالفات إستراتيجية مع دول كبيرة لمواجهة تحديات خارجية كبيرة وخطيرة، وهذا ما أسفرت عنه نتائج الاختبار، وأهمها كما عبر عنها د. عبد العزيز عوض على هذا النحو: "كان حكام البحرين قد اعتادوا على نقل ولاءهم من جار قوى لجار قوى آخر وفقا لمصالحهم السياسية والاقتصادية فأيدوا الصفويين ثم نقلوا تأييدهم إلى العثمانيين فى فترات الخصام بينهما، كما أيدوا البرتغاليين وأية قوة إقليمية كبرى تضمن لهم الحماية وتدرء عنهم الأخطار الخارجية"[1].

وعلى أية حال؛ وجد حسين بن سعيد بعد أن استقل بالحكم فى البحرين، صعوبة بالغة فى مواجهة القوى الكبرى فى المنطقة، فعاد إلى التحالف مع البرتغاليين الذى ثار عليهم، ومكنهم من توطيد أقدامهم فى البحرين، فقاموا بتنفيذ مخطط سياسى يتسم بالخبث، ويستند على دراسة أحوال المجتمع البحرانى المذهبية، إذا لجأت السلطات البرتغالية إلى خلع حاكم البحرين وولوا بدلا منه حاكما فارسيا سنيا، حتى لا يحظى بتأييد العرب السنة أو العرب الشيعة، وقد أثار هذا المخطط الفرقة والخلاف بين طوائف السكان، ويفسر د. جمال ذكريا قاسم هذا المخطط البرتغالى بما نصه "ولعل البرتغاليين قد اختاروا حاكم البحرين على هذا النحو لانهم كانوا يهدفون بذلك أن يختلف فى جنسه عن سكان البحرين ومعظمهم من العرب، كما يختلف بحكم مذهبه مع عدد كبير من

---

(١) د. عبد العزيز المنصور: التطور السياسى لقطر.

سكانها الشيعة، وبذلك يضمن البرتغاليون عدم انضمام حاكم البحرين إلى أية حركة تقوم ضدهم فضلا عن ضمان عدم ولائه للأسرة الصفوية الحاكمة فى فارس بحكم كونها للأسرة للشيعية"[1].

على أن الحكم البرتغالى فى البحرين لم يدم طويلا، بفعل رعونة سياسة الحاكم المحلى المعين من قبل البرتغاليين، حيث قام بقتل أحد كبار تجار اللؤلؤ فى البحرين طمعا فى ثروته،

فنهض شقيقه طلبا للانتقام والثأر لأخيه، فاستولى على قلعة البحرين ونصب نفسه حاكما على الجزيرة باسم الأمير ركن الدين مسعود، وقد أثارت هذه الحركة الانقلابية حفيظة حاكم هرمز الذى ظل متمسكا بسيادته على البحرين، باعتبارها جزءا لا ينفصل عن مملكة هرمز، ولذلك شعر الأمير ركن الدين حاكم البحرين المحلى وكان يعمل لحساب البرتغاليين وكان على علاقة خاصة مع حاكم إقليم فارس"وردى خان"، شعر بخطر مملكة هرمز فطلب النجدة من حاكم شيراز، الذى سارع إلى إرسال قوة عسكرية أفلحت فى الاستيلاء على البحرين باسم الشاه عباس الصفوى، وأحبطت مساعى كل من حاكم هرمز والبرتغاليين معا فى استعادة البحرين وقتل ركن الدين مسعود.

ولا ننسى فى هذا السياق، اغتنام الصفويين فرصة موت ملك هرمز"فرخ شاه" عام ١٦٠١م، حيث تولى ولده"فيروز شاه" الحكم واستوزر شرف الدين لطف الله، الذى عين أخاه ركن الدين مسعود حاكما على البحرين، وعندما أظهر مسعود رغبته فى الاستقلال عن هرمز، أغراه حاكم شيراز وعرض مساعدته ثم انقلب عليه وقتله واستولى على البحرين باسم الدولة الصفوية.

الإستراتيجية العثمانية فى مواجهة التواجد الأوربى فى منطقة الخليج

لقد بنيت الإستراتيجية العثمانية فى منطقة الخليج العربى - كما سبق أن ذكرنا، على مبدأين أساسيين هما:

١) مواجهة القوة الاستعمارية الأوروبية الغازية والتى تهدد النفوذ العثمانى والوجود الثابت فى بلاد الرافدين.

٢) مد الوجود العثمانى فى مشيخات الخليج العربية لمساندة الوجود العثمانى فى العراق وتطويق النظام الشيعى الصفوى الإيرانى المعادى للدولة العثمانية السنية المذهب.

---

(١) د. جمال زكريا قاسم: تاريخ الخليج العربى.

وبالنسبة للغزو الاستعماري الأوروبي، البرتغالي، الهولندي، الفرنسي، وأخيرا البريطاني - فقد شعرت الدولة العثمانية من منطلق إسلامي واستراتيجي أن عليها مسئولية مواجهة هذا الغزو والدفاع عن عروبة وإسلام مشيخات الخليج العربية، وقد تمثل هذا الدفاع في مواجهات عسكرية وتواجد فعلي في بعض موانى المنطقة مثل الأحساء بمدنها القطيف والعقير وغيرها إلى جانب الكويت وقطر، وقد ربطت الدولة العثمانية مسئوليتها عن الدفاع عن مشيخات الخليج، وخاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وحتى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م - ربطت المسئولية العثمانية للدفاع عن منطقة الخليج العربي بإعلان مشروع الجامعة الإسلامية التي تتزعمها الدولة العثمانية وتحتوي جميع المسلمين في تركيا والشعوب العربية والهند وغيرهم.

وقد راقبت الدولة العثمانية من خلال رجالها في العراق وفي الأحساء والكويت وقطر الصراع الاستعماري الأوروبي فيما بين دول الاستعمار من ناحية وصراع الأوروبيين مع عرب الخليج في مشيخاتهم الذين هبوا لمواجهة هذا الغزو الأوروبي، سواء اتخذت هذه المواجهة شكلا قتاليا أو اتخذت شكل عمليات الجهاد البحري الإسلامي ضد سفن الدول الأوروبية المبحرة في مياه الخليج العربي.

راقبت الدولة العثمانية هذه التحركات في منطقة الخليج العربي من خلال باشوية بغداد، ثم باشوية البصرة، وسعت من خلال إستراتيجيتها الأساسية في مواجهة القوى المعادية سواء تمثلت هذه القوى في الدول الأوربية بأطماعها أو تمثلت في نظام الحكم الشيعي في إيران المعادي للدولة العثمانية سواء في منطقة الحدود العراقية الإيرانية، أو في منطقة الخليج والتي تسعى إيران لتحقيق ادعاءات لها في مشيخات الخليج سواء في البحرين أو هرمز أو غيرها.

ومما يؤكد اهتمام الدولة العثمانية بمواجهة أعداء الإسلام والمسلمين، من أن البرتغال والأسبان في القرن الخامس عشر الميلادي عندما صارت دولا وطنية حديثة، رفعوا شعار الاستعادة أي طرد المسلمين من شبه جزيرة أيبريا وملاحقتهم في أقطار الوطن العربي والإسلامي، بل ومحاربتهم اقتصاديا عن طريق تحويل التجارة الهندية من البحار الإسلامية (البحر الأحمر والخليج العربي) إلى طريق رأس الرجاء الصالح الذي اكتشفه الملاح البرتغالي "فاسكو دي جاما" عام ١٤٩٨م، وملاحقة المسلمين في الهند وفي شرق أفريقيا وفي أقطار الخليج العربي.

وقد تحالف البرتغاليون مع الأحباش ضد المسلمين في شرق أفريقيا والبحر الأحمر،

وحاولوا دخول مياه البحر الأحمر والاستيلاء على مملكة هرمز ومسقط والبحرين وغيرها من أقطار الخليج العربى. وقد تصدى لهم أسطول سلطنة المماليك حكام مصر والشام، ولكنهم فشلوا فى إلحاق الهزيمة بالبرتغاليين أمام جزيرة "ديو" فى ساحل الهند الغربى عام ١٥٠٩م[1].

وعندما ضمت الدولة العثمانية كلا من الشام ومصر والحجاز كان عليها مواجهة الوجود البرتغالى فى المياه العربية والإسلامية، وظهر قادة بحريون أتراك واجهوا البرتغاليين فى المحيط الهندى كان منهم "الريس بيرى" وظهر الأسطول العثمانى فى موانى البحر الأحمر ونجح هذا الأسطول فى منع البرتغاليين من احتلال ميناءى جدة والسويس وأطلقت الدولة العثمانية إعلانا دوليا، بأن مياه البحر الأحمر مياه مقدسة لأنها تطل على الأماكن المقدسة للمسلمين فى الحجاز، وكان البرتغاليون هم المعنيون بهذا الإعلان، حيث لم تكن هناك قوة أوروبية أخرى حاولت دخول مياه البحر الأحمر.

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ: أفريقيا في العلاقات الدولية، القاهرة، ١٩٧٥م، ص٣٤.

الفصل الرابع

بداية التوجه العثمانى
نحو منطقة الخليج العربى

مقدمة

لماذا التوجه العثمانى من خلال محمد على باشا وأسرته نحو مشيخات الخليج العربى؟

خطوات التوجه العثمانى نحو الخليج:

الأحساء.

البحرين.

الكويت والعراق.

قطر.

سلطنة عمان والساحل العمانى.

مقدمـة:

ترجـع علاقة العثمانيين بالخليج العربى إلى عهد السـلطان سـليمان القانونى "المشـرع" وخاصـة بعـد فتحهـم للعـراق عـام ١٥٣٤م ؛ وقد ظهـر هذا التنافـس واضحًـا عندما أنكر العثمانيون على البرتغاليين تدخلهم فى شئون الخليج، ونهضوا لرد عادتيهم، إلا أن الصراع لم يبدأ بين الجانبين إلا بعد أن أستولى العثمانيون على مصر ونزلت سفنهم فى البحر الأحمر وأتجهت إلى الخليج العربى لحماية المصالح الإسلامية من عبث الغزاة. حيث قصدت الباب العالى فى أسـطنبول وفود إسلامية تلتمس الحماية من الاستعمار البرتغالى، وكان حاكم "كوجرات"، وإمبراطور "دلهى" المسلم، وحاكم "القطيف العربى ممن اسـتجاروا بخليفة المسلمين السلطان "سليمان القانونى"، الذى أمر واليه فى مصر "سليمان باشا" بالتوجه إلى الخليج العربى لطرد البرتغاليين[1].

وصلت حملة بحرية عثمانية بقيادة "محمد فروخ باشـا" على ظهر ٧٠ سـفينة بحرية تحمل على ظهرها ٢٠ ألف جندى، اسـتطاعت أن تحرر سـواحل عدن واليمن ومسـقط، واسـتولى علـى البحرين وقطر والأحسـاء والقطيف عام ٨٥٨هـ - ١٥٥٠م من أيدى البرتغاليين، وعين ذلك القائد حاكما للأحسـاء، فبنى فى عاصمتها مسجدًا عام ٩٦٣هـ / ١٥٥٥م عرف فيما بعد بمسـجد "الدبس" وتلاه فى حكم الأحسـاء، عدد من حكام الأتراك العثمانيين كان أخرهـم "عمر باشـا" الذى أطاحت به ثورة محلية قادها "بـراك بن غرير" زعيم بنى خالد عام ١٠٨١هـ / ١٦٧٠م، الذى قام بطرد العثمانيين من الأحسـاء، وأسـس أسـرة حكمت البلاد حتى عام ١٢١٠هـ / ١٧٩٥م، حين تمكن السـعوديون من القضاء عليهم، وإدخال الأحسـاء ضمن أقاليم دولتهم الأولى[2].

وقـد اتخـذ آل سـعود مـن الأحسـاء، قاعدة للتوسـع فـى أقطـار الخليـج العربى وفى جنوبـى العـراق، ممـا أثـار حفيظـة الدولـة العثمانيـة، فحاولت اسـترجاع الأحسـاء من أيـدى السـعوديين أكثر من مرة ولكنها فشـلت فى ذلك، وأخيـرًا لجأت إلى والى مصر العثمانـى فـى ذلـك الوقـت محمد على باشـا الـذى دخل فى صـراع مع السـعوديين حتى سقطت الدرعية عاصمة آل سعود فى يد ابنه إبراهيم باشا، ومن ثم اتجهت أنظار محمد على إلى أقطار الخليج العربية.

---

(١) د. حسين مؤنس: الشرق الإسلامى فى العصر الحديث، القاهرة.

(٢) د. أحمد أبو حاكمة: تاريخ شرقى الجزيرة العربية، بيروت ١٩٦٥م ص ٦١.

التوجه العثماني: من خلال محمد على باشا وأسرته نحو الخليج العربى

يرتبط التوجه العثماني من خلال محمد على باشا وأسرته نحو الخليج العربى بالتوجه العثمانى بواسطة حملات محمد على وأبنائه على الحجاز ونجد والتى استغرقت الفترة ١٢٢٦ ، ١٢٣٤هـ الموافقة من ١٨١١ ، ١٨١٨م. وذلك أن الدولة العثمانية ضمت الحجاز إلى ممتلكاتها بعد أن غزت مصر عام ٩٣٢هـ، الموافق لعام ١٥١٧م وإن ظل يخضع لنظام الشراقة القائم هناك منذ القرن الرابع الهجرى، حتى نجح الأمير سعود الكبير فى استخلاصه من سيطرة العثمانين فى عام ١٢١٨هـ، ١٨٠٣م. بالنسبة لمكة المكرمة وفى عام ١٢٢١هـ الموافق لعام ١٨٠٦م، بالنسبة للمدينة المنورة.

وأما نجد فلم تدخلها قوات عثمانية حيث لم تكن بها من الاغراءات ما يشجع العثمانيون على اقتحامها، إذ صحراوية نجد وسيطرة النظام القبلى بها بالإضافة إلى كونها منطقة داخلية لا توجد بها تجمعات سكانية إلا حيث توجد المياه والمراعى، وقد ظلت نجد تعيش في ظل نزاعات قبلية وعدم استقرار حتى نجح التحالف بين محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر الميلادى فى توحيدها تحت حكم آل سعود وفى ظل دعوة التوحيد السلفية.

وبالنسبة للأحساء فقد دخلها جيش عثمانى قادم من البصرة عام ٩٦٣هـ الموافق لعام ١٥٥٥م فى عهد السلطان سليمان المشرع ثم استخلصها من العثمانيين براك بن غرير بن عثمان سعود آل حميد من بنى خالد عام ١٠٨١هـ الموافق لعام ١٦٧٠م وطرد الحامية العثمانية منها وظلت السلطة فى أيدى بنى خالد حتى دخلت الأحساء تحت حكم آل سعود فى ظل دعوة التوحيد الإصلاحية عام ١٢٠٧هـ الموافق لعام ١٧٩٢م.

وهكذا نجد أن التوجه العثمانى من خلال محمد على وأسرته نحو الجزيرة العربية والخليج العربى جاء بعد أن انتشرت دعوة التوحيد السلفية المعروفة بالدعوة الوهابية فى الأحساء والحجاز، ومن ثم كان على العثمانيين التعامل مع هذه الدعوة ورعاتها آل سعود.

وعندما فشل باشوات بغداد ودمشق فى القضاء على دولة آل سعود الأولى نظرًا لقوتها الروحية لجأ العثمانيون إلى مصر وإلى محمد على باشا، لكى يقوم بهذه المهمة وذلك منذ عام ١٢٢١هـ الموافق لعام ١٨٠٦م، وكان هدف العثمانيين ضرب عصفورين بحجر واحد بالتخلص من محمد على الذى اختاره زعماء الشعب المصرى التقليديين وأعنى رجال الأزهر والأعيان، والتخلص من الدولة السعودية العربية راعية دعوة التوحيد السلفية.

وقد استمرت حملات محمد على باشا وأبناؤه طوسون وإبراهيم على الحجاز ونجد فى

الفترة من عام ١٢٢٦/ عام ١٢٣٤هـ الموافق لعام ١٨١١، ١٨١٨م كما ذكرنا، وانتهت بسيطرة محمد على باشا - باسم السلطان العثماني، على كل من الحجاز ونجد وسقوط الدرعية عاصمة ملك آل سعود فى يد إبراهيم باشا وانتهاء الدولة السعودية الأولى التى استمرت قرابة ٧٥عامًا من ١١٥٧هـ الموافق لعام ١٧٤٣م - وهو عام التحالف بين محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود - حتى عام ١٢٣٤هـ الموافق لعام ١٨١٨م.

كان لنجاح حملات محمد على باشا فى الحجاز ونجد فى تحقيق مطالب السلطان العثماني بإسقاط دولة آل سعود فى الجزيرة العربية عدة نتائج منها ما هو خاص بمحمد على نفسه حيث زادت مكانته واتسعت آماله فى ضم الشام إلى ملكه، ومنها ما هو خاص بمشيخات الخليج العربى حيث تطلع الباشا العثمانى حاكم مصر بأنظاره تجاه هذه المشيخات، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أن التوجه العثماني من خلال محمد على نحو مشيخات الخليج العربى كان نتيجه منطقية وثمرة من ثمار الوجود العثماني فى الحجاز ونجد.

لماذا التوجه العثمانى نحو الخليج العربى؟ (١)

إن تساؤلنا وهو لماذا حدث التوجه العثمانى من خلال محمد على نحو الخيج العربى؟ يتطلب منا مناقشة الأهداف الى سعت إليها الدولة العثمانية فى هذا الوقت المبكر من القرن التاسع عشر الميلادى، وذلك أن الدولة السعودية الأولى نجحت قبل هذه السنوات فى نشر مبادئ دعوة التوحيد السلفية فى أنحاء متفرقة من الجزيرة العربية.

ولم تكن الدولة العثمانية تهتم بما حدث داخل الجزيرة العربية حيث لم تكن لها ممتلكات هناك، ولكن عندما امتد النفوذ السعودى إلى شواطئ الخليج العربى وجنوب العراق، بدأ القلق يحرك الدولة العثمانية نحو طموح الدولة السعودية فكلفت سليمان باشا الكبير (بيوق) والي العراق بمحاربة السعوديين فأرسل حملتين لمحاربة آل سعود فى الأحساء عام ١٢١٧هـ الموافق ١٨٠٢م، وحملة ثالثة ضدهم فى القصيم.

وعندما امتد نفوذ آل سعود إلى الحجاز أوائل القرن التاسع عشر - كما سبق وأن ذكرنا - فى عهد الأمير سعود الكبير ازداد قلق الدولة العثمانية خاصة وأن السلطان العثماني يتخذ لنفسه لقب خليفة المسلمين وحامى حمى الحرمين الشريفين (بمكة المكرمة وبالمدينة المنورة).

وإزاء القلق العثماني من الوجود السعودى بمنطقة الحجاز فقد كلف السلطان العثماني

---

(١) د. رأفت الشيخ: بحث تمت مناقشته فى مؤتمر رأس الخيمة عام ١٩٨٨م بعنوان العثمانيون والخليج العربى.

والي مصر محمد على باشا بالتعامل مع السعوديين لكسر شوكتهم ولاستخلاص منطقة الحجاز منهم وإعادتها مرة أخرى تحت السيطرة العثمانية. كما أنه إزاء التوسع السعودى فى منطقة الخليج العربى ما دفع العثمانيون إلى القلق من ناحية السعوديين. ذلك أن الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود غزا الأحساء فى عام ١١٧٦هـ الموافق لعام ١٧٦٢م حيث حقق من ورائها عدة مكاسب عسكرية ومالية ، ولكن الصراع استمر بين آل سعود وبين بعض زعماء الأحساء وجيشًا من باشوية بغداد ، كان النصر فى النهاية لصالح آل سعود الذين أكدوا سيطرتهم على الأحساء حتى مجئ قوات محمد على باشا.

وأما قطر فإن أهلها وخاصة من قبائل آل مسلم وآل حسن والمعاضيد وغيرهم رحبوا بدعوة التوحيد السلفية المعروفة بالدعوة الوهابية. عندما قام القائد السعودى إبراهيم بن عفيصان فى عام ١٢٠٧هـ الموافق لعام ١٧٩٢م بغزو قطر ومعه جماعة من أهل الخرج والفرع[1].

كما رحب سكان واحة البريمى فى عمان بدعوة التوحيد السلفية ، وقد لقيت قوات آل سعود المتجهة إلى عمان التأييد من جماعتين: الجماعة الأولى بعض القبائل التى تقبلت تعاليم المذهب الوهابي (دعوة التوحيد السلفية) والجماعة الثانية الزعماء المعارضون لحكم دولة البوسعيد فى عمان. وقد اعتنق مبادئ الدعوة الوهابية قبائل القواسم وبنى النعيم وبني كعب وبني قتب وأن ظلت قبيلة بني ياس متمسكة بمذهبها المالكى.

وعندما وصل إبراهيم بن سليمان بن عفيصان لعام ١٢١٠هـ الموافق عام ١٧٩٥م رسول آل سعود إلى البريمى رحبت به قبائل بنى النعيم حيث اعتبرت البريمي قاعدة ينطلق منها نشاط رسول آل سعود لنشر نفوذ الدولة السعودية فى بقية مشيخات الخليج حتى جزر البحرين ، وإن كان آل سعود قد فشلوا فى إخضاع الكويت لسيادتهم بعد معارك بين الطرفين امتدت من عام ١٢٠٨هـ الموافق لعام ١٧٩٣م إلى عام ١٢١٩هـ الموافق لعام ١٨٠٤م[2].

وبالنسبة لعلاقة آل سعود بآل سعيد فى مسقط، فقد اتسمت بالعداء حيث دارت معارك دامية بين سلطان مسقط (سعيد بن سلطان) وبين قائد آل سعود وممثلهم فى البريمي مطلق المطيرى استغرقت السنوات من ١٢٢٦ - ١٢٢٨هـ الموافق من ١٨١١ - ١٨١٣م. وإذا كان مطلق المطيرى قد نجح فى غزو سلطنة عمان واكتسح أقاليم مسقط وشرقى صحار وجعلان وضم إلى جانب الدولة السعودية قبيلتين من القبائل الكبرى فى شرق عمان هما القواسم وبنو على بعد أن اعتنقت هاتان القبيلتان دعوة التوحيد السلفية ، فإن هذه الانتصارات انتهت

(١) حسين بن غنام: تاريخ نجد ص ٨٠.
(٢) أرنولد ويلسون: ترجمة عبد القادر يوسف: الخليج العربى ص ٣٢١.

دون عائد كبير، إذ لقى مطلق المطيرى مصرعه نهاية عام ١٢٢٩ هـ الموافق لعام ١٨١٣م. كما توفى أمير الدرعية سعود الكبير عام ١٢٣٠ هـ الموافق ١٨١٤م الذى كان زعيمًا ذا كفاءات سياسية وإدارية كبيرة [1].

أما البحرين فقد أرسل الأمير سعود الكبير جيشًا بقيادة إبراهيم بن عفيصان لمساعدة آل خليفة فى تخليص البحرين من صاحب مسقط، وقد نجحت قوات إبراهيم بن عفيصان فى استردادها من سعيد بن سلطان صاحب مسقط عام ١٢٢٤هـ الموافق لعام ١٨٠٨م، ولكن هذا القائد السعودى لم يسلم زمام أمورها إلى آل خليفة بل أعلن ضمها لسلطان آل سعود حتى عام ١٢٢٦هـ الموافق لعام ١٨١٠م عندما ساعدت الحكومة الفارسية آل خليفة على استرداد الجزر من سيطرة آل سعود وعندئذ اضطر الأمير سعود إلى إطلاق سراح المعتقلين من آل خليفة فى الدرعية وسمح لهم بالعودة إلى البحرين، وبهذا نجد أن الدولة السعودية لم تتمكن من ضم البحرين إلى ممتلكاتها.

وهكذا كان التوسع السعودى فى منطقة الأحساء ومشيخات الخليج العربى وجنوب العراق ومنطقة الحجاز هو السبب فى التوجه العثماني نحو الجزيرة العربية بدءًا من سواحلها على البحر الأحمر حتى سواحلها على الخليج العربى. وكان الهدف العثماني هو التخلص من هذه القوة العربية التى كان المأمول أن تسيطر على المنطقة العربية وتستخلصها من الحكم العثماني المتهاوى.

ومن ثم جاء تكليف محمد علي باشا بالتعامل مع هذه القوة العربية الفتية، ومن هنا وبهذا التكليف، قام محمد على وأبناؤه طوسون وإبراهيم بما طلب منهم واستخلصوا الحجاز من آل سعود ثم غزوا نجد، ومن هناك جاء التوجه إلى منطقة الخليج العربي.

ومما يلاحظ أن التوجه الذى قاده محمد على فى الجزيرة العربية كان عثمانيًا فى التخطيط والتنفيذ والأهداف، ولم يكن لمصر البلد أو الشعب صلة بهذا التوجه سوى خروج الحملات العسكرية - العثمانية الصرفة - من أرض مصر وموانيها باتجاه الحجاز ونجد.

وكانت قيادة تلك الحملات تركية بل كان الضباط بل والجنود الذين شاركوا فى هذه الحملات أتراكًا من الأرناؤوط والإنكشارية ممن تمردوا على محمد علي وأراد التخلص منهم.

ويؤيد ذلك تسمية هؤلاء الجند فى كتب مؤرخي نجد باسم الترك والروم ولم يذكر

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن: الدولة السعودية الأولى ص ٨٧ - ٨٨.

اسم المصريين[1]. ويذكر ابن عمر الفاخري في كتاب الأخبار النجدية في تاريخه لسنوات ١٢٣١هـ الموافق لعام ١٨١٥م وما بعدها ما نصه:

وفيها سار عسكر الترك الذى فى الحناكية فقدموا (الرس) و(الخبر) واستوطنوهما بموافقة أهلها وملكوا أطرافها وثبتت بقية القصيم.... وفى عام ١٢٣٣هـ الموافق لعام ١٨١٧م فملكها - أى الدرعية - العسكر صبيحه اليوم السابع - من ذى القعدة - وبقي الطريف (مساكن آل سعود فى الدرعية) فيه عبد الله بن سعود فحاربوا يومين ثم صالحوا وسلم عبد الله إلى الباشا "إبراهيم بن محمد علي" وبقى عبد الله بعد ذلك يومين ثم سيره الباشا إلى مصر ثم إلى الروم وقتل هناك رحمه الله تعالى.

كما ذكر صاحب تحفة المستفيد أن الدولة التركية جمعت من آلات الحرب ومن المدافع والقنابل والذخائر والأموال عددًا كبيرًا من الجنود إلى الديار المصرية وأمرت محمد علي باشا والي مصر بحرب الإمام سعود.

ويذكر ابن بشر أنه فى سنه ١٢٢٦هـ الموافق لعام ١٨١١م أجمع أمراء الروم على المسير للحجاز وأعدوا جميع آلات الحرب من السفن والمدافع والقنابل والبنادق وجميع آلاتها وما يحتاجون إليه من الأموال والذخائر من الطعام وغيرها. فأجمع العساكر من اسطنبول ونواحيها وما دونها إلى الشام ومصر والرئيس المقوم بهذا الأمر من جهة الروم صاحب محمد علي باشا، فسير هؤلاء العسكر برًا وبحرًا.

خطوات التوجه العثماني فى الخليج:

على الرغم من سقوط الدرعية وانتهاء الدولة السعودية الأولى عام ١٢٣٤هـ الموافق لعام ١٨١٨م، فإن التواجد السعودي ما لبث أن استعاد شيئًا من مكانته في نجد ومنطقة الخليج العربي، فقد قام الأمير تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود الدخول إلى الدرعية عام ١٢٣٦هـ الموافق لعام ١٨٢٠م، ثم الاستيلاء على الرياض واتخاذها عاصمة للدولة الجديدة، واعترف بسيادة اسمية للدولة العثمانية، وقد ساعد ذلك على السيطرة على نجد وامتداد نفوذه إلى الخليج وفي عام ١٢٤٤هـ الموافق لعام ١٨٢٨م وصل إلى الرياض وفد من أهل عمان يطلب مساعدة عسكرية سعودية مقيمة في عمان وتعيين وال وقاض، وقد استجاب الأمير تركي لهذه المطالب فأرسل عمر بن محمد بن عفيصان على رأس قوة كافية لينصب عبد الله بن سعود من (القويعية) واليًا على

(١) عثمان بن بشر: عنوان المجد في تاريخ نجد، جـ١، ص ١١٧.

الاقليم، على أن يتخذ مركزه في البريمي وعين ذلك الشيخ محمد بن عبد العزيز العوسجي قاضيًا، ولدى وصولهم الظاهرة استقبلتهم وفودها مع عناصر أخرى من (البطينة) الواقعة في المنطقة الساحلية من عمان بمظاهر الترحيب والتكريم.

وعندما قتل الأمير تركي عام ١٢٥٠هـ الموافق لعام ١٨٣٤م تولى زعامة آل سعود ابنه الأمير فيصل الذى ما لبث أن أثار شكوك محمد علي فبدأت الاشتباكات من جديد بين محمد علي وفيصل، وقرر محمد علي إرسال حملة عسكرية عام ١٢٥٢هـ الموافق لعام ١٨٣٦م، بقيادة إسماعيل أغا وأرسل معها الأمير خالد بن سعود الكبير شقيق الإمام عبد الله بن سعود.

كان الأمير خالد بن سعود ضمن آل سعود الذين رحلوا إلى مصر عقب تدمير الدرعية وأمه جارية حبشية فنشأ في كنف محمد علي وجاء يحكم نجد حكمًا عصريًا فنفر منه النجديون، ولكنه حازرضا الأتراك ووالي مصر فاندفع يحاول استعادة نفوذ الدولة السعودية فى الخليج، وأنها لحركة بارعة من محمد علي أن يشرك معه في مشروع الإغارة على نجد والامتداد إلى الخليج شخصًا يعتبره معظم النجديين الوارث الشرعي لأمجاد البيت الحاكم[1].

ونتيجة لفشل حملة إسماعيل أغا ضد الأمير فيصل بن تركي أمر محمد علي واليه على الحجاز خورشيد باشا بأن يتوجه إلى نجد على رأس حملة عسكرية انتهت بقبول خورشيد باشا ما عرضه عليه فيصل بن تركي بأن يستلم نفسه بشرط أن يعفو القائد العثماني - خورشيد باشا - عن الأهالي ويؤمنهم على أرواحهم وأموالهم. وفي ٢٣ رمضان ١٢٥٤هـ الموافق ١٠ ديسمبر ١٨٣٨م سلم فيصل ما كان معه من عتاد الحرب إلى أهل الخرج، ثم سلم نفسه إلى خورشيد باشا الذى بر بوعده إذ عفا عن الأهالي كما أحسن معاملة الأمير فيصل فاستصحبه إلى مصر وولى مكانه خالد بن سعود الذي انفرد بزعامة آل سعود.

وقد أقام خورشيد باشا احتفالاً كبيرًا بتنصيب الأمير خالد بن سعود رئيسًا للدولة السعودية، وخلع عليه ثوب الشرف، وأكد محمد علي للدول الأجنبية أن وجود قواته فى الجزيرة العربية إنما هو بقصد ضمان حقوق الأمير خالد الشرعية فى الحكم، وهذا لا ينفي أن خورشيد باشا تولى بنفسه إدارة شئون نجد وما وصل إليه نفوذ محمد علي في ساحل الخليج.

وعندما عادت الأحساء إلى سلطة الأمير خالد بن سعود ونفوذ محمد علي برحيل فيصل

---

(١) فيلبي (ستت جون) تعريب عمر الديراوي: تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية، ص ١٩٩.

بن تركي إلى مصر ، أرسل خورشيد باشا إليها - إلى الأحساء - محمد أفندى لسن الضرائب وترتيب طرق الجباية التى لم تكن معروفة ولا مألوفة في تلك البلاد ، واستمرت الحال على ذلك إلى شهر شعبان عام ١٢٥٥هـ الموافق لعام ١٨٣٩م[1].

ورغم انتشار قوات خورشيد باشا في موانى القطيف وسيهات والعقير بساحل الخليج ، فقد ظل الأمير خالد رئيسًا للدولة السعودية حتى قام عبد الله بن الثنيان وهو من أبناء عمومة الأمير خالد بن سعود بثورة ضد الأخير انتهت بالخلاص منه وقد وجد مساعدة من معظم أهالي نجد خاصة أنه أعلن بأن حكمه للبلاد سيكون نيابة عن الإمام فيصل بن تركي. ومن ثم انتهى الأمر بفرار خالد بن سعود من الرياض إلى الأحساء عام ١٢٥٧هـ الموافق لعام ١٨٤١م.

وقد ساعد على نجاح عبد الله بن الثنيان انسحاب قوات محمد علي من شبه الجزيرة العربية بناء على اتفاقية لندن لعام ١٢٥٦هـ الموافق لعام ١٨٤٠م وفي ذلك يذكر صاحب الأخبار النجدية ، وفي سنة ١٢٥٦هـ سارت العساكر المصرية من نجد من (ثرمدا) والقصيم وارتحلوا شيئًا فشيئًا حتى ارتحل كبيرهم خورشيد باشا في ربيع الأول وبقي الأمر لخالد بن سعود. ثم نجاح الأمير فيصل بن تركي من العودة من مصر عام ١٢٥٩هـ الموافق لعام ١٨٤٣م إلى الرياض واعترافه بالسيادة الاسمية للأتراك.

ويستدعي حديثنا عن التوجه العثماني من خلال محمد علي نحو الخليج العربي أن نتناول هذا التوجه في أجزاء الخليج الطبيعية المعروفة لنقف على المدى الذي وصل إليه هذا التوجه ، وموقف عرب الخليج منه.

أولاً: الأحساء:

تطلع إبراهيم باشا بن محمد علي إلى إقليم الأحساء كمنفذ على الخليج العربي لإقليم نجد بعد أن سقطت الدرعية في يد قواته عام ١٢٣٤هـ الموافق لعام ١٨١٨م ، ومن ثم اعتمد على عدو سابق لآل سعود هو (رحمة بن جابر) وهو من الجلاهمة العتوب الذى يمارس مغامراته البحرية من خور حسان فى قطر ، فى الاستيلاء على القطيف ميناء آل سعود في الأحساء فى نظير مساعدة إبراهيم باشا له لكى يعود إلى الاستقرار في الدمام وفي إعادة بناء حصنه القديم الذى كان آل سعود قد دمروه ولكن تطلعات إبراهيم باشا تقلصت في عنيزة بوسط شبه الجزيرة العربية ، مع الاعتماد على شيوخ بنى خالد أعداء آل سعود

---

(١) محمد عبد الله الأنصارى: تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء فى القديم والجديد القسم الأول ص ١٥٤.

للحصول على أموال الزكاة من قبائل الأحساء.

وفي عام ١٢٥١هـ لعام ١٨٣٥م عاد التوجه العثماني من خلال محمد علي وأبنائه إلى الأحساء، وتمثلت هذه العودة في وصول (عبد الله بن مشاري) التاجر البحريني إلى المنطقة حاملاً رسائل من أحمد باشا حاكم الحجاز من قبل محمد علي إلى كل من سلطان عمان وشيخ البحرين وأمير الوهابيين(السعوديين). من أجل مساعدته باسم محمد علي على جمع الزكاة، ورغم أن هذا المبعوث لقي الترحيب والمساعدة من سلطان عمان فإنه ما لبث أن اختفى من القطيف أمام تقدم قوات فيصل بن تركي أمير آل سعود الجديد التى وصلت الإقليم[1]. ولكن خورشيد باشا قائد قوات محمد علي في نجد قرر، بعد أن استقر له الوضع في الخرج واتخذ من (ثرمداء) قاعدة له، أن يبدأ في تحقيق سياسة محمد علي بالسيطرة على مناطق شرقي شبه الجزيرة العربية بدءًا بالأحساء بما في ذلك الكويت والعراق؛ كي تلتحم هذه المناطق ببلاد الشام لتصبح وحدة تحت سيطرة محمد علي. وقد تمكن خورشيد باشا من تنظيم أمور الأحساء الإدارية تحت حماية جانب من قواته عسكرت في كل من الهفوف والقطيف وسيهات والعقير، وهي أهم مدن وموانئ الأحساء وعَنَّ محمد رفعت أفندي حاكمًا على الأحساء واتخذ من مدينة الهفوف مقرًا ومركزًا يباشر منه حكمه. ومن ذلك أن خورشيد أعطى الأمان لعمر بن عفيصان ورؤساء الأحساء وأمرهم بالقدوم إليه ويحفظون بيت المال وأذن لهم بالرجوع إلى بلادهم وذلك فى شهر شوال ١٢٥٤هـ الموافق لعام ١٨٣٨م وبعد رحيل أهل الأحساء عين خورشيد باشا أحمد بن محمد السديري أميرًا على الأحساء ومعه من العسكر مائة وثلاثون خيالاً رئيسهم رجل من المغاربة يقال له (أبو خزام) ثم أرسل خورشيد بعد ذلك بحوالي شهر إلى الأحساء خمسين رجلاً من العسكر والعرب رئيسهم رجل من المغاربة اسمه (محمد الفاخري).

وأما محمد أفندي رفعت فقد كان مبعوث خورشيد باشا إلى البحرين وفارس، حيث حمل رسائل إلى آل خليفة بالبحرين، ثم انتقل إلى فارس لشراء مواد غذائية (بر وشعير وغير ذلك) إلى القوات المتمركزة بالأحساء، وعند عودته من البحرين - بعد اتفاقه مع آل خليفة عينه خورشيد باشا أميرًا على الأحساء بدلاً من أحمد بن محمد السديري الذي أوكل إليه بيت المال ويعلق عثمان بن بشر على ذلك بقوله (هذه عادة ولاية الترك: أولها مطر وآخرها برد وصواعق)[2].

---

(١) لوريمر: المرجع السابق ص ١٤٣٥.

(٢) عثمان بن بشر: المرجع السابق.

ولكن محمد أفندي رفعت أساء استخدام سلطاته في الأحساء؛ حتى دبروا له مقتلة في غزة شعبان ١٢٥٥هـ الموافق لعام ١٨٣٩م، ولما بلغ الخبر إلى خورشيد باشا جزع عليه جزعًا شديدًا وأمر أفندي عنده اسمه محمد شرمي وجهز معه عسكر وأرسل بدله، ثم جهز بعدهم عسكرًا آخر فجلسوا بعسكرهم في الأحساء.

وقد ظلت الأحساء تحت سيطرة قوات محمد علي بفضل التنظيم الذي وضعه محمد أفندي رفعت للإقليم وخاصة القطيف لقربها من جزر البحرين ولصلاحية ميناها للملاحة، ومن ثم بدأ محمد رفعت وبأوامر من خورشيد باشا يخطط لتنفيذ المرحلة الثانية من سياسته الرامية للتوجه إلى البحرين. ولم يوقف هذا التخطيط سوى انسحاب قوات محمد علي لا من الأحساء فقط بل ومن شبه الجزيرة العربية نتيجة لاتفاقية لندن لعام ١٨٤١م.

وعند انسحاب قوات محمد علي من شبه الجزيرة العربية من الأحساء ونجد خاصة دعمت الأمير السعودى خالد بن سعود - الموالي لمحمد علي - ببعض الضباط الذين أسهموا في تدريب قوة عسكرية منظمة بلغت ٨٠٠ جندى تحت إمرة خالد، ولكن هذا الأمير لم يستطع الصمود طويلاً بعد انسحاب قوات محمد علي حيث فر من الرياض أمام تقدم عبد الله بن ثنيان[1].

ثانيًا: البحرين:

ترتبط البحرين بإقليم الأحساء ارتباطًا وثيقًا، ومن ثم لا نعجب أن يكون من مخطط خورشيد باشا مد نفوذ محمد علي باشا إلى البحرين عبر الأحساء وكان آل خليفة زعماء جزر البحرين، وكان على رأسهم في سنوات تخطيط خورشيد وخاصة بين سنتي ١٢٥٤ - ١٢٥٦هـ / ١٨٣٨ - ١٨٤٠م الشيخ عبد الله آل خليفة.

جاءت علاقات خورشيد باشا مع الشيخ عبد الله آل خليفة عن طريق حاكم الأحساء ووكيل الباشا هناك محمد أفندي رفعت، والذى زار جزر البحرين مبعوثًا من خورشيد باشا فى غرة ذى الحجة عام ١٢٥٤هـ الموافق ٢٢ فبراير عام ١٨٣٨م، وقدم تقريرًا حمل تاريخ ٨ ذى الحجة عام ١٢٥٤هـ الموافق ٢٢ فبراير عام ١٨٣٨م أوضح فيه أن البحرين ذات أهمية قصوى لاستقرار الأحوال في الأحساء والقطيف، فميناؤها هو الميناء الوحيد ذو الأهمية في المنطقة ولذلك اعتبرت جزيرة البحرين ميناء للأحساء والقطيف وسببًا في رواج المنطقة اقتصاديًا.

---

(١) لوريمر: المرجع السابق ص ١٤٣٨.

وعندما رأى الشيخ عبد الله نجاح قوات محمد علي في شبه الجزيرة العربية وتوجه خورشيد باشا إلى جعل البحرين منطقة نفوذ لدولة محمد علي، ومحاولة سلطان عمان ضم البحرين إلى سلطنته بطريقة مباشرة أو لحساب محمد علي كأسلوب غير مباشر، لجأ الشيخ عبد الله إلى الإنجليز في الهند ومقيمهم العام في منطقة الخليج لحمايته من هذه الأطماع.

ولما لم يجد الشيخ عبد الله من حكومة الهند البريطانية وممثلها المقيم العام في الخليج كابتن هينيل أية استجابة عملية حتى شهر المحرم ١٢٥٥هـ الموافق مارس ١٨٣٩م فيما عدا ما يصرح به الإنجليز عن عدم رضاهم عن تطلعات محمد علي في الخليج، اتجه الشيخ عبد الله إلى طلب الحماية من حكومة فارس.

ولما كان للفرس مطامعهم الخاصة في البحرين ومطالبهم المالية نظير وجود مبعوث فارسي هناك، ولما كان الشيخ عبد الله آل خليفه يعاني مصاعب داخلية فإنه استقبل محمد أفندي رفعت مبعوث خورشيد باشا في عام ١٢٥٥هـ الموافق مايو ١٨٣٩م مزودًا بتعليمات من خورشيد وواضعًا في الاعتبار أهمية البحرين لاستقرار منطقة الأحساء بل ونجد أيضًا إلى جانب رواج الناحية الاقتصادية في هذه المناطق وواضعًا في الاعتبار أيضًا مطامع الإنجليز ومواقعهم المعادية لمشروعات محمد علي وكذلك مطامع حكام فارس وسلطنة عمان.

وبعد مفاوضات بين محمد أفندي رفعت مبعوث خورشيد باشا والشيخ عبد الله حول وضع البحرين وعلاقاتها في المستقبل مع دولة محمد علي، تم الاتفاق بين الطرفين ينص علي تعهد حكومة محمد علي بتأييد ومساندة الشيخ عبد الله آل خليفة فى حكم جزر البحرين مقابل أن يقدم زكاة تقدر بألفي (روبية) سنويًا وبعض السفن لمساعدة قوات محمد علي العسكرية علي الانتقال إلى ساحل عمان إذا احتاج الأمر إلى ذلك، واشترط الشيخ عبد الله أن تبقى السلطة الداخلية في الجزر كلها بين يديه، وألا يرسل خورشيد باشا ممثلاً له يقيم في البحرين.

وقد كتب الشيخ عبد الله آل خليفة رسالة إلى خورشيد باشا عقب توقيعه للاتفاقية مع محمد أفندي رفعت بتاريخ ٢٣ صفر عام ١٢٥٥هـ الموافق ٨ مايو عام ١٨٣٩م يؤكد فيها التزامه بما جاء في نصها بأن (نعادي من عاداكم ونوالي من والاكم وأنتم كذلك، ونؤدي لجنابكم الزكاة...... صار حالنا معكم حال واحد).

ومما يلاحظ أن الاتفاقية بنصها على عدم إرسال مبعوث يمثل محمد علي مقيم في البحرين وترك أمورها الداخلية بيد شيخها، تنفي الاتهامات البريطانية باتجاة تطلعات

محمد علي استعمار البحرين وإرسال قوات عسكرية؛ لاحتلال تلك الجزر لحساب محمد علي، وهو أمر كان بعيد الاحتمال، لأن أي هجوم على الجزر في رأي لوريمر يعتبر خطيرًا في جرأته، وكان احتمال أن تقوم به قوات محمد علي احتمالاً ضئيلاً[1].

وقد تعرض اتفاق الشيخ عبد الله آل خليفة مع خورشيد باشا لانتقادات عنيفة من جانب حكومة الهند البريطانية التى لم تسمح بنجاح أية محاولة عثمانية أو فارسية تهدف إلى فرض السيادة على البحرين محتجة في ذلك بمعاهدة عام ١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م التى جعلت البحرين إمارة مستقلة مرتبطة ببريطانيا بتعهدات.

والتى ما إن أعلن عن الاتفاقية حتى وجهت الإنذارات ومارست الضغوط ضد الشيخ عبد الله الذى حاول تبرير موقفه بأنه لم يتلقى تأكيدات بريطانية عندما طلبها، وبأن هذا الاتفاق مقرر قبل التوقيع بزمن طويل، وبأن هذا الاتفاق ليس موجهًا ضد الحكومة أو المصالح البريطانية[2].

وقد وصل الكابتن (هينيل) المقيم العام البريطاني في الخليج إلى البحرين في ١٥ جمادى آخر ١٢٥٥هـ الموافق ٢٨ يوليو ١٨٣٩م وسلم للشيخ عبد الله آل خليفة احتجاجًا على هذه الاتفاقية، ولم يقبل أبدأ تبريرات الشيخ عبد الله، وكان قد سبق للكابتن هينيل تقديم إنذار إلى خورشيد باشا في أول أبريل يحذره من الامتداد عسكريًا إلى جزر البحرين. ولما لم ينجح هينيل في إقناع الشيخ عبد الله بنقضه اتفاقه مع خورشيد باشا، كما لم ينجح كذلك احتجاجه الذي قدمه لخورشيد باشا في فض عرى هذا الاتفاق، وعندما ظل الشيخ عبد الله صامدًا أمام تهديدات الإنجليز إلى أن انسحبت قوات محمد علي من شبه الجزيرة العربية نتيجه لمعاهدة لندن لعام ١٨٤٠م ففقد بذلك سندًا في مقاومة تهديدات ومؤامرات الإنجليز.

وعندما حدث كل ذلك اجتمعت اللجنة السرية لمديرى شركة الهند الشرقية البريطانية وبحثت إمكانية استبدال الشيخ عبد الله آل خليفة بشيخ آخر أكثر استعدادًا للتفاهم مع الإنجليز. ومن ثم لا نعجب أن نسمع اضطرابات وفتن في البحرين منذ عام ١٨٤٠م لا تهدأ إلا بعزل الشيخ عبد الله من حكم البحرين عام ١٢٥٩هـ الموافق لعام ١٨٤٣م، أي بعد أن حققت المؤامرات البريطانية أهدافها.

وفي ذلك يقول عثمان بن بشر: وفي جمادي الأولى ١٢٥٨هـ الموافق ١٨٤٢م وقع بين عبد

---

(١) لوريمر: المرجع السابق ص ١٣٠٨.

(٢) د. رأفت الشيخ: العرب، دراسات فى التاريخ الحديث المعاصر ص ٨٧.

الله بن أحمد بن خليفة صاحب البحرين وابن أخيه اختلاف، ثم وقع بينهم الحرب العظيم من قتل الرجال ونهب الأموال وسبي النساء والأطفال، واستلحق عبد الله عريان آل مرة ونهبوا البحرين، ثم هرب محمد بن خليفة من البحرين لما أجهضته الحرب وقتل كثير من رجاله.

ثالثًا الكويت والعراق:

جاء التوجه العثماني من خلال محمد علي إلى الكويت في إطار نفس التوجه إلى بقية مشيخات الخليج العربي وخاصة البحرين، حيث سعى خورشيد باشا قائد قوات محمد علي في نجد أن يرتبط مع الشيخ جابر آل صباح حاكم الكويت باتفاق يؤمن لقوات خورشيد الحصول علي المؤن والعتاد باستخدام سفن الكويت، وفي الوقت نفسه التطلع من هناك إلى جنوب العراق.

وعلى هذا فقد سجلت المصادر المعاصرة أن خورشيد بعث وكيلاً له يدعي محمد أفندي إلى الشيخ جابر آل صباح توصل إلى اتفاقية شبيهة بالاتفاق الذي عقد بين محمد رفعت والشيخ عبد الله آل خليفة حاكم البحرين، يقضي هذا الاتفاق بدفع زكاة لخورشيد باشا وتقديم التسهيلات في مياه وموانئ الكويت لقوات خورشيد وخاصة استخدام السفن الكويتية لنقل الأسلحة إلى ميناء القطيف بالأحساء حيث تتواجد قوات خورشيد، وهذا في نظير عدم تدخل خورشيد باشا في الأمور الداخلية بالكويت وعدم وجود مبعوث لخورشيد مقيم بالكويت.

ونتيجة لهذه الاتفاقية استطاع محمد أفندي أثناء وجوده بالكويت أن يرسل من هناك عدة سفن محملة بالأغذية وخاصة الشعير، كما استطاع أن يجمع معلومات عن الكويت والجنوب العراقي المطل على الخليج، كما استطاع هذا المبعوث أن يحصل على تقدير حاكم الكويت حتي أنه كان يأخذ مكان الصدارة في مجالس الشيخ جابر آل صباح. كما استخدمت قوات خورشيد المتواجدة بالأحساء سفن الأسطول الكويتي الكبير والمجهز تجهيزًا جيدًا في نقل شحنة من الأسلحة والأعتدة العسكرية من ميناء الحديدة باليمن إلى ميناء القطيف بالأحساء في نوفمبر ١٨٣٩م[1].

وكان من الطبيعي أن ينعكس هذا التقارب بين الشيخ جابر آل صباح ورجال محمد علي باشا على العلاقة بين الكويت وحكومة الهند البريطانية، فيروي لنا لوريمر أن حاكم الكويت الشيخ جابر استقبل مبعوثًا بريطانيًا في نوفمبر ١٨٣٩م بطريقة غير لائقة وغير متوقعة، ويبرر لوريمر تصرف حاكم الكويت بأنه حدث بسبب فزع الشيخ جابر من نجاح

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ: المرجع السابق ص ٩٠.

قوات محمد علي في الجزيرة العربية، وقد تناسى لوريمر أن محمد علي كان آنذاك يعيش أزمة دولية ولم يكن في مخططاته القيام بعمليات عسكرية ضد حاكم الكويت أو أية مشيخة في ساحل الخليج[1]. ورغم استياء حكومة الهند البريطانية من استقبال الشيخ جابر آل صباح لمبعوث خورشيد باشا المدعو محمد أفندي منذ عام ١٨٣٨م، وأنه لم يستقبل الملازم (إدموندز) مساعد المقيم العام البريطاني في الخليج الاستقبال الودي المعهود عندما وصل إلى الكويت في نوفمبر عام ١٨٣٩م كما ذكرنا، فإن البريطانيين لم يوجهوا إنذارًا لشيخ الكويت على غرار الإنذارات البريطانية لحاكم الشارقة وشيخ البحرين، بل التمسوا له العذر بأن مسلكه مع (إدموندز) لم يكن صادرًا عن نوايا سيئة نحو البريطانيين لكنه كان يهدف إلى خداع مبعوث خورشيد عن حقيقة العلاقة القائمة بينه وبين السلطات البريطانية.

وقد ظل التعاون بين الشيخ جابر آل صباح ومبعوث خورشيد باشا رغم معارضة السلطات البريطانية في الخليج، بل تروي الوثائق أن الشيخ جابر قدم التسهيلات اللازمة للقوات العثمانية التي هربت من البصرة تحت قيادة (محمود أغا المورة) وأرادت الالتحاق بقوات خورشيد باشا في نجد، حيث أركب هذه القوات سفينة وصلت بها الأحساء ورفض طلب سلطات البصرة في إلقاء القبض علي هؤلاء الهاربين وإعادتهم إليها.

وبالنسبة للعراق فقد جاء التوجه العثماني من خلال محمد علي مختلفًا حيث جاء اتجاه أنظار محمد علي إلي العراق عندما حدث الصدام بين محمد علي والدولة العثمانية، ومن ثم أراد محمد علي أن يستكمل سيطرته علي منطقة الهلال الخصيب بضم العراق بعد أن نجح في ضم كل بلاد الشام، وبعد أن سيطرت قواته على معظم شبه الجزيرة العربية وامتد نفوذه إلى بعض مشيخات الخليج العربي.

ولذلك عندما كانت قوات محمد علي قد استقرت في بلاد الشام سادت العراق بعض القلاقل والاضطرابات، وانتهز محمد علي فرصة هذه الاضطرابات ومارس ضغوطًا من سوريا للوصول إلى العراق بأن أخذ يساند القبائل العربية الثائرة في جنوب العراق ضد الباشوات العثمانيين من أجل ضم العراق إلى الكتلة العربية التى حرص علي إقامتها في المنطقة[2].

ورغم اهتمام خورشيد باشا بضرورة غزو جنوب العراق والاستيلاء على البصرة لتأمين قواته فى الأحساء ونفوذ محمد علي في البحرين والكويت، والحصول علي المؤن والإمدادات

(١) لوريمر: المرجع السابق ص ١٥١٤.

(٢) د. رافت غنيمى الشيخ: في تاريخ العرب الحديث، ص ٧٠.

اللازمـة لقواته ، فـإن مناداته ليأذن له محمد علي في التقـدم بقواته لغزو البصرة جاءت في وقت كان الموقف البريطاني بصفة خاصة والدولى بصفة عامة معاديًا لمشـروعات محمد علي التوسـعية ، وهذ يفسـر اهتمام وزارة الخارجية البريطانية التى كان على رأسـها اللورد (بلمرسـتون) الذى ظهرت معارضته لمشـروعات محمد علي في الخليـج العربي وخاصة في الفترة من عام ١٨٣٨م إلى عام ١٨٤٠م.

رابعًا: قطر:

تقع شـبه جزيرة قطر في وسـط الخليج العربي، وتسـكنها عدة قبائل منها ، بني النعيم وقبائـل البوكـواره، وكانـت قبائل بني نعيم تعـارض امتداد نفوذ محمـد علي وجاءت هذه المعارضة لأن رجال محمد علي اعتمدوا على سعد بن مطلق المطيري في امتداد نفوذ محمد علي، وسعد بن مطلق عدو لقبائل بني النعيم ومقرهم الرئيسي واحة البريمي.

وعندمـا رفضت بعض عشـائر بني النعيم دفـع الزكاة التى طلبها منهم الشـيخ عبد الله آل خليفـة لحسـاب قوات محمد في الخليـج في أوائل عام ١٨٤٠ أرسـل محمد أفندي رفعت حاكم الأحساء بعض القوات النظامية يعاونها بدو (المخضبة) من بني هاجر لإخضاع قبائل بني النعيم، ولكن مصرع محمد أفندى رفعت في الأحسـاء بالقـرب من الهفوف قد أوقف هذه الإجراءات[1].

وبالنسبة لقبائل (البوكواره) فقد كانوا يقيمون بمدينة (الفويرط) كغيرهم من القبائل التى تسكن شبه الجزيرة القطرية كانوا يدفعون الزكاة للشيخ عبد الله آل خليفة حاكم البحرين لحسـاب قوات محمد علي فى المنطقة ، ولكن عندما اشـتد جباة شيخ البحرين عليهـم فـي جمع الزكاة تحولـت قبائل (البوكواره) للبحث عن حماية لهم من هذا العسـف المحسوب على محمد علي، وكان طبيعيًا أن يتقدم الإنجليز بهذه الحماية.

وهـكـذا لـم تدخل قوات خورشـيد باشـا الأرض القطريـة ، كما لم يكن هنـاك مبعوث خاص من خورشيد باشا إلى قطر نظرًا؛ لأنه لم تكن قد تكونت بها وحدة وطنية تحت زعامة واحـدة، حيـث كانـت قطر تعيش في ظل انقسـامات قبليـة ، تخضع بعض القبائـل القطرية للبحرين، والبعض الآخر يخضع لآل سعود. وغير هؤلاء وهؤلاء قبائل لا تدين بالولاء لأحد.

خامسًا: سلطنة عمان والساحل العماني:

حـكـم محمـد علي مصر اعتبارًا من شـهر مايـو عام ١٨٠٥م عندما صـدر له أول فرمان

---

(١) لوريمر: المرجع السابق ص ١٢٠٧.

سلطاني، ثم صدر له في عام ١٨٠٦م ما عرف بفرمان التثبيت من سلطان الدولة العثمانية، وفي نفس هذا العام الأخير تولي سعيد بن سلطان البوسعيدي حكم سلطنة عمان مسقط، وفي الوقت الذي أتجه فيه محمد علي بأنظاره إلى مشيخات الخليج العربي أواخر الثلاثينيات من القرن التاسع عشر كان سعيد بن سلطان يتجه لبناء ملك له ولأسرته في ساحل الزنج (زنجبار) بشرق إفريقيا......

ورغم أن المراسلات بين الرجلين محمد علي وسعيد بن سلطان كانت قليلة، ولم يحدث لقاء بينهما، فإنه كان هناك تعاون محدود في عدة مجالات كاستعانة سعيد بن سلطان ببعض الخبرات العسكرية من مصر للخدمة في مسقط وعدم اصطدام مطامع الطرفين بالنسبة للبحرين موضع اهتمام كل منهما، ومهادنة سعيد بن سلطان لآل سعود واستخدام محمد على لبعض أمراء آل سعود وبعض رجالهم لتحقيق مطامحه.

وقد اعتمد خورشيد باشا في تحقيق مطامع محمد علي على رجل السعوديين هناك سعد بن مطلق المطيري والذي يعمل باسم خالد بن سعود أمير الدولة السعودية المشمولة بحماية ونفوذ باشا مصر. وقد حمل سعد بن مطلق رسائل إلى زعماء ساحل عمان وإلى سلطان مسقط بهدف تقديم الزكاة والاعتراف بنفوذ آل سعود بالتعاون مع خورشيد باشا.

ولكن سعيد بن سلطان رغم أنه أظهر رغبة في السيطرة علي البحرين ومال إلى تنسيق سياسته مع سياسة والى مصر محمد علي في الجزيرة العربية إلا أنه تراجع عن ذلك بسبب موقف العداء الذي أظهرته السلطات البريطانية نحو تواجد قوات محمد علي في منطقة الخليج العربي وعندما أيقن من موقف بريطانيا المعادي لنفوذ محمد علي في شرقي الجزيرة العربية أخذ موقفها وبالنسبة للساحل العماني فقد سعى سعد بن مطلق المطيري من مقر أقامته بواحة البريمي أن يمد نفوذ خالد بن سعود المشمول بحماية قوات محمد علي إلى مناطق الساحل العماني خاصة أبو ظبي والشارقة ورأس الخيمة وقد رحبت مشيخات القواسم في الشارقة ورأس الخيمة بسعد بن مطلق كنائب عن والي مصر لأنها كانت تميل منذ عهد الدولة السعودية الأولى إلى الدعوة الوهابية[1].

وتبعًا لذلك فقد سمح الشيخ سلطان بن صقر القاسمى حاكم الشارقة لسعد بن مطلق المطيري أن يقيم في الشارقة بعد وصوله إليها في مارس عام ١٨٣٩م وقد وضع الشيخ سلطان تحت إمرته بيتًا حصينًا وقلعة ليقيم فيها.

---

(١) د. صلاح العقاد: مرجع سابق ص ١٢٨.

ومن الشـارقة أخذ سـعد بن مطلق المطيري يباشر نشاطه لخدمة أهداف محمد علي في منطقة الخليج فاسـتطاع عقد تحالف مع الشـيخ خليفة حاكم أبوظبي الذي رحب بالتعاون مع رجال محمد علي رغم معارضته السابقة لتقدم السعوديين إلى البريمي.

ومن الشـارقة أيضًا حاول سـعد بن مطلق المطيري اسـتخدام وسـاطة حاكم الشـارقة الشـيخ سـلطان لفتح صفحة جديدة مع قبائل (بني النعيم) فـي البريمي لينضموا إلى منطقة نفوذ محمد علي، ولكن بسبب وجود خلافات شخصية بين بني النعيم وبين سعد بن مطلق الذي اتهمهم بقتل والده - مطلق المطيري - لم تنجح الوساطة واستند بني النعيم على تأييد الإنجليز في وقوفهم ضد نفوذ محمد علي الذي يسعي نشره عدوهم سعد بن مطلق[1].

وكان لأسلوب سعد بن مطلق في إنذار القبائل التى ترفض الأنصياع لأوامره نتائج واضحة في فشـل مهمته في منطقة السـاحل العماني ذلك إن الإنجليز تدخلـوا لحماية قبائل بني النعيم وغيرها لحمايتها من تهديدات سعد بن مطلق فقد قام (ميتلاند) قائد عام البحرية البريطانية في الخليج بزيارة للساحل العماني المتصالح في فبراير عام ١٨٣٩م وحصل على تعهدات من شيوخ قبائل الساحل بعدم إقامة أية علاقات ودية مع مبعوث قوات محمد علي (سعد بن مطلق).

كمـا أن المقيـم العام البريطاني في الخليج العربي الكابتن (هينيل) زار سـاحل عمان فـي يوليـو ١٨٣٩م، وأدرك أن شـيوخ أبو ظبي ودبي وأم القوين والشـارقة يميلون إلى التعاون مـع محمـد علي وحصل علـى تعهدات خطية من شـيوخ أبوظبـي ودبي وأم القوين والشـارقة وحاكمها سـلطان بن صقر القاسـمي الذي كان أكبر ميلاً للتعاون مع مصر محمد علي، كمـا حصل على تأييد السياسـة البريطانية الرامية إلى الأنفـراد بالنفوذ في الخليج العربي ومحاربة التوجه العثماني باسم محمد علي.

ونظرًا لتخوف (هينيل) من سـلطان بن صقر القاسـمي من أن ينقلب لمناصرة نفوذ محمد علـي فقد كبله بشـروط أخرى أكثـر صرامة، كعدم إجراء أية علاقات أو مراسـلات أو اتفاقيـات مـع محمد علي باشـا والى مصـر أو أنصاره أو أيـة قوة أجنبية أخـرى قبل موافقة الحكومة البريطانية. كما أظهر استعداد انجلترا لحماية هذه المشيخة وغيرها وإمدادها بالأسـلحة والذخائر بشـرط اسـتخدامها ضد تقدم قوات محمد علي، وكل ذلك دليل على خشية الإنجليز من الخطر المصري المزعوم في الجزيرة العربية.

وقـد نجـح الكابتن(هينيل) في ذو القعدة ١٢٥٥هـ الموافق يناير ١٨٤٠م في إقناع شـيوخ

(١) د. رأفت الشيخ: العرب دراسات فى التاريخ الحديث والمعاصر ص ٨٤.

الظواهـر بالتجمـع فـي تحالـف دفاعي مـع الشـوامس وآل نعيم وجميـع القـوى المحلية في المنطقـة ، كمـا نجح في تصفية الخلافات فيما بينهما لتتفرغ للوقوف ضد سـعد بن مطلق وسـادته مـن آل سـعود وباشـا مصر، وعندئذ أدرك سـعد بن مطلـق المطيري أنـه لا قبل له على مواجهة الموقف، فأرسـل إلى خورشـيد يخطره بحقيقة الموقف، ويخطره بأنسـحابه إلـى الأحسـاء ولم ينتظر وصول الأمـدادت التى طلبها والتى كان خورشـيد قد أعدها فعلاً لإرسـالها لتحقيق أهدافه في سـاحل عمـان. وهكذا بدأ التوجـه العثماني من خلال محمد علي وأسـرته في الجزيرة العربية بناء على طلب الدولة العثمانية خلال عشـرين سـنه تقريبًا مـن ١٢٢٦ - ١٢٤٧هـ الموافق لأعـوام ١٨١١م - ١٨٣١م، عندما بدأ الصدام بين محمد علي والدولـة العثمانيـة علي أرض الشـام، ومن ثم بدأ توجه محمد علي فـي الجزيرة العربية وفي سـاحل الخليـج العربي يأخذ اتجاهًا شـخصياً لتحقيـق أهداف محمد علي لحسـاب ملكه هـو لا ملـك الدولـة العثمانية والسـلطان العثماني وكان يمكن أن يقـدر لتوجه محمد علي في الجزيرة العربية أن يسـتمر لولا موقف انجلترا بصفة خاصة والتى سـعت حتى أنهت على كثير من مناطق سيطرته فانسحبت قواته من الشام ومن كل شبه الجزيرة العربية بموجب معاهدة لندن عام ١٨٤٠م.

الفصل الخامس

مدحت باشــا

نشأته وأفكاره الإصلاحية.

الفكر الاستراتيجى عند مدحت باشا.

مدحت باشا فى العراق:

أعمال مدحت باشا في العراق.

حملة مدحت باشا على الأحساء.

مدحت باشا نشأته وأفكاره الإصلاحية

ولـد مدحت باشـا في اسـطنبول في شـهر صفر سـنه ١٢٣٨هــ الموافـق ١٨٢٢م، والده القاضي الحاج حافظ محمد أشرف، وقد سماه والده اسمًا تغير فيما بعد. كان الاسم الذى سـمي به هو أحمد شـفيق، وقد حفظ القرآن الكريم وهو في سـن العاشـرة، فصار اسمه بعـد ذلك حافظ شـفيق، وقد تعلـم مبادئ الإنشـاد، فأدخله عاكف باشـا رئيس الكتاب وناظـر الخارجيـة إلى الديـوان الهمايونى فتعلم الخط الهمايونـى المخصوص بهذا القلم في ستة أشهر. وكيف أصبح اسم أحمد شفيق أو حافظ شفيق إلى اسم مدحت؟

لقـد كانت العادة المتبعة بالنسبة للذين يتخرجـون من الديوان الهمايونى بتوسـيم المتخرج باسـم خاص، فسـمي حافظ شفيق باسـم مدحت الذي غلب على الاسـم القديم من عام ١٢٥٠هـ الموافق ١٨٣٤م، وقد درس مدحت العلوم العربية والدين الإسلامى واللغة العربية واللغة الفارسية في مسجد الفاتح باسطنبول وغيره من الجوامع، إلى جانب النحو والمنطق والفقه والحكمة[1].

وقـد شـغل مدحـت عدة وظائف فـي الحكومـة، كان منها وظيفة في قلـم مكتوبجى الصدارة، ووظيفة رفيق لكاتب تحريرات الشـام، وفي عام ١٢٦١هـ الموافق ١٨٤٥م، عين كاتبًا لديوان سـامى باشـا بولايـة قونية، وقد حصل في عام ١٢٥٩هــ الموافق ١٨٤٣م على رتبة خوجة وتدرج في الوظائف وترقى بها حتى صار عام ١٢٦٧هـ الموافق لعام ١٨٥٠م رئيسًا للخلفـاء وهـي رتبة التمايز، وقـد عينه الصدر الأعظم في عـام ١٢٦٩م الموافق لعام ١٨٥٢م رئيسًـا لمجلس "الوالا" فأثبت في هذه الوظيفة كفاءته وحبذه رشـيد باشـا، وعالى باشـا، ورشدى باشا، وأمثالهم من أقطاب الدولة ووزرائها.

وقد لاقى مدحت العنف من بعض المسـئولين مثل محمد باشـا القبرصلى الذي تعين في منصـب الصدر الأعظـم عام ١٢٧٠هـ الموافـق ١٨٥٣م، فأبعد مدحت إلـى البلقان لمواجهة عصابـات الأشـقياء التى مـلأت ولايات الروميلـى، ثم عاد إلى اسـطنبول بعد عـزل الصدر الأعظـم محمد باشـا القبرصلى وتعيين رشـيد باشـا ومع ذلـك وجهت إليـه اتهامات كاذبة أثبتت التحقيقات براءته منها.

وبعـد ثبـوت بـراءة مدحت أفنـدى تم تكليفـه بالتحقيـق فـي مخالفات بعـض الولايات العثمانيـة، سـواء في حلب، والبلغار، ونجح مدحت فـي تحقيق الأمن والاسـتقرار في تلك

(١) يوسف كمال بك حتاتة؛ ود. صديق الدماوجي: مدحت باشا: حياته - مذكراته - محاكمته، الدار العربية للموسوعات، بيروت ٢٠٠٢م. ص ٩ - ١٠.

البـلاد بعد إزالة المظالم التى اشـتكى منها الأهالى وتحقيق العدالـة. وقد لقى التقدير من الـوزراء، ممـا أثار عداء البعض من الـوزراء ضد مدحت، مما أثر في نشـاط مدحت أفندى وثبـط همته، وتوفي رشـيد باشـا وتأثر مدحت أفنـدي لوفاته أيضًا وعزم على السـياحة في أوربا عام ١٢٧٤هـ الموافق ١٨٥٧م. وقد تعلم اللغة الفرنسـية أثناء زيارته لباريس ثم زار لندن وفينـا وبلجيكا. ووقف على أسـرار ترقـى الأوربيين وتقدمهم. ثم عاد إلى اسـطنبول وترقى رئيسًـا لمجلس "الوالا". وفى عام ١٢٧٧هـ الموافق ١٨٦٠م طلب محمد باشـا القبرصلى الذي عـاد صدرًا أعظم من السـلطان عبد المجيـد توجيه رتبة الوزارة لمدحت أفنـدي وعين واليًا لولاية " نيس" وكانت هذه بادرة من الصدر الأعظم طيبة تجاه مدحت، وقد أصدر السلطان القـرار المطلـوب. وقد نجـح مدحت في وظيفته نجاحًـا كبيراً حيث أفشـل إلى حد كبير دسائس روسيا في بلاد البلغار وغيرها من بلاد البلقان.

وفـى عهـد السـلطان عبـد العزيز(سـنه ١٨٦١، ١٨٧٦م) توالـت على الدولة المشـاكل الخارجية والدخلية وقد أستعان السلطان عبد العزيز برجله محمود نديم باشا صدرًا أعظم. وكان الناس يعزون إلى محمود نديم باشـا المسـاوئ والمظالم التى يعيشـون فيها، وكان السلطان يؤيده مما دفع الناس إلى المطالبة بخلع السلطان عبد العزيزلإنهاء استبداده وبسبب مساوئ حكم الصدر الأعظم، وفى نفس الوقت اشتعلت الثورات ضد الحكم العثماني في كل من أدرنة والبوسنة والهرسك والبلغار. أين مدحت باشا في خلال هذه الأحداث؟ عندما ثـارت ثائـرة الناس ضد محمود نديم باشـا لجأ إلى الفرار فصدر قرار السـلطان عبد العزيز بعزله وتعيين رشدى باشا الكبير صدرًا أعظم وصدرت إرادة سلطانية أيضًا تقضي بإحضار حسـين عوني باشـا من مدينة "بروسـة" وتعينه بوظيفة سـر عسـكر وتعين مدحت باشا في الـوزارة بوظيفـة عضو فـي المجالس العالية ومع ذلك فإن السـلطان عبد العزيز في السـنين الثـلاث الأخيرة لم يسـمع نصيحة مخلص ومن هنا انتشـرت الشـائعات بعـزم الأمة على خلع السلطان عبد العزيز فأرسلت والدته "جوهرأغا" إلى مدحت باشا تطلب منه المشورة.

كانت تلك الاستعانه من أم السلطان عبد العزيز دافعًا لمدحت باشا لكي يقدم أفكاره الأصلاحية. فأسـرع بكتابة لائحة ضمنها الأسـباب التى أوقعـت الدولة في مأزق الأزمات، وختمها بوجوب أصدار قانون يكفل للأمة حق المساواة ويجعل النظار مسئولين عن أعمالهم لتلافي وقوع الثورة، ولكن السـلطان عبد العزيـز رفض هذه الأفكار، مما جعل كلاً من مدحت باشا، وحسين عوني باشا ورشدى باشا وخير الله أفندي على أحضار ولي العهد في التاسـع من شـهر جمادى الأولى عام ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م إلى الباب الهمايوني لإجلاسـه

على العرش. باسم السلطان مراد ، وقد انتحر عبد العزيز في اليوم السادس لخلعه وكانت فرصة مدحت ورفاقه من الاصلاحيين لتخليص الدولة من أزمتها واتخاذ مسلك ثابت للإدارة والدواء الوحيد لهذا الداء هو اتباع قواعد الشورة بتأسيس حكومة دستورية يعيش فيها أفراد الأمة أحرارًا متساويين. ويذكر مدحت أن هذه المسألة قد ارتسمت في فكرى حين كنت واليًا على "الطونة" فكتبت قانونًا موافقًا لروح العصر، وحان وقت العمل به وقد جلس السلطان على كرسى أجداده وهو عازم على تأسيس حكومة شورية فزاد أنتشار فكرة الشورة بين الأحرار، وقررنا تشكيل مجلس بعد الانتهاء من حفلات الجلوس والعمل بقراراته بعد البت فيما يجب أجراءه لإعلان الشورى.

ويضيف مدحت باشا بأن خطبة السلطان الجديد (مراد) ذكرنا فيها أن الحكومة تفكر في احلال الشوري محل الاستبداد وإن أفراد الدولة العلية سيتساوون في الحكومة الدستورية. والدستور يعلنه الملوك، ولكن السلطان (مراد) قد أصيب بمرض خطير، فلم نتمكن من إعلان الدستور، ورغمًا عن كل هذا فقد اشتغل موظفو الحكومة بالتخلص من الكوارث الداخلية والخارجية ، وكنا نعلم أن الخلاص من المشاكل متوقف علي وضع القوانين الدستورية. وقد انتهزت فرصة اجتماعنا في الباب العالي الوزراء وعدد من العلماء فأخرجت من جيبي صورة القانون الأساسي وعرضتها عليهم فقرروا باتفاق الآراء تبديل بعض مواده وجعلهاموافقة لروح العصر وإناطة أمر تبديلها بلجنة تكون تحت رئاستي. وكان بعض أعضاء البيت المالك حاضرين فأعطينا لكل واحد منهم صورة من هذا القانون[1].

وفى يوم الخميس الموافق للحادي عشر من شهر شعبان عام ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م قرر النظار والعلماء بالاتفاق معًا تولية عبد الحميد عرش الخلافة والسلطنة باعتباره كان وليًا للعهد للسلطان مراد ، وقد رحب عبد الحميد الثاني بالقانون الأساسي "الدستور" وأعلن أن تخليص الدولة من مشاكلها يتم من خلال إعلان الدستور وتنفيذه، وكان هناك معارضون لإعلان الدستور. بينما كان الاصلاحيون ومنهم مدحت باشا يسعون لإعلانه خاصة بعد أن تحقق النصر فى الصرب في الخارج ضد الصرب.

وفي ١٩ يناير عام ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م أصدر السلطان عبد الحميد الثانى قرارا بتعيين مدحت باشا صدرًا أعظم، وتمت مراجعة مواد القانون الأساسى "الدستور" وأرسل المشروع للسلطان عبد الحميد الثانى الذي أصدر الإرادة السنية فصدر الخط الهمايوني القاضي بإعلان الدستور في السابع من شهر ذي الحجة سنة ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م في

(١) المرجع السابق ص ٢٢ - ٣١.

ميدان الباب العالي بحضور الجموع المحتشـدة، ووزعت نسـخ من الدستور في جميع أنحاء الدولة مما أثار الفرح في نفوس الناس.

وقـد بدأت الانتخابات النيابيـة في الولايات، وقد ابتهج النـاس بالانتخابات وتطلعوا إلى مجلـس المبعوثـان، ولكن حدث في عام ١٢٩٤هـ الموافق٢٤ ينايـر لعام ١٨٧٧م صدر قرار السـلطان بخلع مدحت باشا من منصب الصدارة العظمي وإبعاده إلى أوربا في لندن، باريس فينـا حتى صدر عفو سـلطاني عن مدحت باشـا والسـماح لـه بالإقامة مع عائلتـه في جزيرة كريـت الذي وصلها مع العائلة في غرة من شـهر شـوال عام ١٢٩٥هـ الموافق ١٨٧٨م. ومن كريت صدر قرار سـلطاني بتعيين مدحت باشـا واليًا على سوريا لإصلاح الأحوال بها كما سـبق وأصلح أحـوال ولايات الطونة وبغداد وقد أدى الدور الاصلاحـي المنوط به خير أداء، ولكن الوشـايات والدسـائس سـواء في بلاد الشـام أو في اسـطنبول، فصـدر فرمان بنقل مدحت باشا من بلاد الشام إلى أزميرفي أواسط شهر رمضان سنة ١٢٩٧هـ الموافق ١٨٧٨م. حتى تم القبض على مدحت باشا في يوم الاثنين ٤ مارس وحوكم في السراى وصدر الحكم عليه بالموت، وصدر قرار بنفيه ورفاقه رشـدى باشـا ومحمود جلال الدين باشا ونورى باشا إلى سجن مدينة الطائف حيث تم التخلص منهم هناك[١].

هل كان مدحت باشا مصلحا حقًا لأحوال الدولة العثمانية؟

اختلـف المؤرخون حول شـخصية مدحت باشـا وسياسـته الإصلاحية سـواء فـي "نيس" بالبلقان أو في العراق والخليج العربي أو حتى في اسطنبول مركز الدولة العثمانية.

فيذكر عباس الغزاوى في كتابه: تاريخ العراق بين احتلالين، وأن مدحت باشـا كان توجيهـه للإصلاحـات كان مرضيًـا، ويكفـي أنه وجّـه وعمل واسـتخدم المواهب، كما حاسـب علـى الإهمال والتراخي، وتغلب علـى الأهواء والتيارات المتعارضـة فاخذ بناصيتها وعمل بما لم يسبق إليه[٢].

ويذكـر الدكتـور عبـد العزيز نوار: إن مدحت باشـا أحيـا روح الإقبال علـى العمل في ميادين لـم تكن مطروقة من قبل، وأطلق بذلك طاقات كانت مكبوته، وكشـف للناس عن أمكانيات كانت واسـعة احتاجت إلى الحل وإلى المتابعة، ونتيجة لذلك ظلت ذكراه عطرة إلى أيامنا هذه.

ويضيـف الدكتـور عبـد العزيـز نوار بـأن مدحت باشـا قـام بتطبيـق النظـم الحديثة،

(١) المرجع السابق ص ٣٧ - ٦٢.

(٢)عباس الغزاوى: تاريخ العراق بين احتلالين، ص ٧ بغداد ١٩ ص ١٦٦.

وهذه وحدها مشكلة استعصت على معظم الولاة من قبله، ونظم الإدارة، وضرب على يد المرتشين، وعنى بالحياة الاجتماعية والصحية، وكانت من الأمور المهملة، فضرب مثلاً في هذه الناحية بأن الشرقي لا يقل عن الغربي إقبالاً على هذه الأساليب من الحياة المتطورة، وكما قام بواجبه - على قدر استطاعته - نحو أهل العراق وفي حكومته حقها، فقدم لها مبالغ من الأموال لم يقدمها وال من قبل[١].

أما آن وولفرد بلنت An and Wifred Blunt فى كتاب تاريخ الاحتلال الإنجليزى لمصر. فقد وجها نقدًا شديدًا لمدحت باشا حيث أنه وضع من الخطط مالم يكن هو بقادر على تنفيذها... كما أن مدحت باشا في رأى ويلفرد بلنت، لم يكن ممتازًا بأي شئ في مظهره سوي أنه كان فخورًا مختالاً، ولم أجد فى محادثتى معه أثناء لقائنا بدمشق عندما كان واليًا عليها، فى موضوع تجديد تركيا وإصلاحها أى عمق في أفكاره، والواقع أنه كان أكثر من الأتراك في اسطنبول احتقارًا لكل ما هو عربي[٢].

ونحن نعتقد أن هجوم آن وولفرد بلنت على مدحت باشا مرجعه أنه كان من أشد أعداء النفوذ الأجنبي في ولايات الدولة العثمانية، بينما دائرة المعارف البريطانية أشادت باصلاحات مدحت باشا، حيث أن إصلاحات مدحت باشا في العراق مثل إصلاحاته في "نيس" كانت ذات نتائج حاسمة، وأنه لقي من المتاعب في العراق ما لقيه فى "نيس"[٣].

ويرى الدكتور عبد العزيز نوار: أن النقد الرئيس الذى يوجه إلى مجهودات مدحت هو أنه كان تركيًا في تفكيره، وكانت إصلاحاته تستهدف إنقاذ رعية الدولة العثمانية والحكومة في اسطنبول من الهاوية التى كانوا ينحدرون إليها، ولكن لم يعن باشراك العرب والأكراد إشراكًا فعليًا في توجيه أمور البلاد أو في تدريبهم على مسئوليات الحكم، فظلت الإدارة تركية، وظلت المدارس تعلم بالتركية، حيث أن بواكير الحركة العربية في العراق أخذت تظهر في البلاد لافي أواخر القرن التاسع عشر - كما هو معروف - ولكن منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر[٤].

ومهما يكن فإن لمدحت باشا سمعة كبيرة في العراق، وأهمية لدى مؤرخي تاريخ العراق، فضلاً عن أن مدحت نفسه شخصيته لعبت دورًا كبيرًا في تاريخ الدولة العثمانية أبتداء من النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وقد وصفه البعض بأنه مصلح العراق،

(١) د. عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث ص ٤٤١.

(٢) ولفرد بلنت ترجمة: تاريخ الاحتلال الإنجليزى لمصر، القاهرة ١٩ ص ١٢٢.

(3) The Encyclopedia Brittanica, 14ed, Vol. 51, P. 456.

(٤) د. عبد العزيز نوار: المرجع السابق ص ٤٤١.

كما وصفه آخرون بأنه أبو الدستور العثماني[1].

وهذا يسوقنا إلى ذكر حقيقة عن الحكم العثماني عامة وسياسة مدحت باشا للبلاد التى تولي عليها، حيث كان اهتمام الحكم العثماني عسكريًا أكثر منه مدنيًا واقتصرت عناية العثمانيين على بعض المدن الساحلية أو الكبيرة التى تدر دخلاً كبيرًا، ولذلك لم تنتعش الولايات في أيامهم، بل بالعكس تجمدت حيث كانت مما جعلها مسرحًا للفوضي وسوء الحكم، ولما ضعفت الدولة العثمانية إلى حد استئثار الكثيرين في ولايات الدولة العثمانية بالسلطة محليًا قامت الثورات والحركات العصبية والقبلية التى تطالب بالاستقلال عن الدولة العثمانية.

ويذكرأنصار مدحت باشا أنه لو بقى مدحت باشا في خدمة الدولة العثمانية ولم يعزل ولم يحاكم ولم يقتل، لأصبحت تركيا اليوم من أكبر بلاد العالم من حيث العمران والثروة والقوة والمنعة؛ لأن الرجل كان يشبه "اللورد كرومر" و "غمبتا" و "بسمارك" وغيرهم من عظماء الرجال، ولوقسنا أعماله وأعمال غيره من الرجال لرأينا الفرق كبيرًا.

ويضيف هؤلاء المناصرون قولهم: إن مدحت باشا كان إذا فكر في أمر أقدم عليه من أول يوم، وابتدأ بإجرائه بعكس رجال الدولة العثمانية الذين يقضون أوقاتهم بإحضار اللوائح وشرب القهوة والشاي، ولا يعملون عملاً إلا بعد مذكرات طويلة، والقرارات التى تجلب الصداع.

وأضاف هؤلاء المناصرون لمدحت باشا تقريظا في أوصافه ومناقبه، بأنه لم يسمع أحد أن مدحت باشا مكث شهرًا أو شهرين لإحضار لائحة، بل رأى الناس السفن تملأ بالأسلاك بعد توليته مسند الصدارة بأسبوعين، وسألوا عن السبب فقيل لهم أنه عازم على مد خط التلغرافي بين الشام والحجاز، ورأوا بعد ذلك بأسبوع المهندسين يتوجهون إلى طرابلس الشام وإلى بغداد لترسيم خريطة خط بغداد الحديدى.

رأى الناس رجلاً فى يده المسبحة، يقرأ الأوراد، ويصلي الأوقات الخمس، ولم يتعلم اللغة الفرنسية بعد أن جاوز سن الأربعين، وتعلم في أيام صباه في مدارس الفاتح، وقرأ دروسه على المشايخ، ولكن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء[2].

وجاء مقتل مدحت باشا في سجن الطائف بالحجاز من السلطان العثماني عبد الحميد

(١) د. عبد العزيز نوار: نفس المرجع، ص٢٥٣.

(٢) مدحت باشا: حياته / مذكراته/ محاكمته: المرجع السابق ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

الثاني في ليلة الخميس ١٢ رجب ١٣٠١هـ المرافق ٢٠ أبريل ١٨٨٤م[1] وبذلك أسدل الستار على حياة رجل من رجالات الدولة العثمانية الإصلاحيين، بل أظهر هؤلاء الرجال وأقدرهم، ولكن الوشايات والاستبداد كانا من وراء التخلص منه، وبذلك فقدت الدولة العثمانية تنفيذ الاستراتيجية الواضحة التى تبناها مدحت باشا ليس في اسطنبول أو في أوروبا فقط، بل وفي المشرق العربي، الخليج، والجزيرة العربية، والعراق، والشام.

مدحت باشا: حياته - مذكراته - محاكمته

قال نجل المرحوم مدحت باشا علي حيدر بك ما ستأتي ترجمته بالحرف الواحد "بعض كلمات"

أقدم إلى أبناء وطني في يوم عيدنا الملي أثر والدي وقد ذكروه بعض الذكر أو لم يذكروه ليكون عبرة لهم.

لما تمايل الوطن إلى سقوط في دركات الحضيض لفقدان العدل وسوء الإدارة حاول بتأسيس حكومة الاخوة والمساواة فجاهد ٤٥ سنة إلى أن أفنى حياته وسكن لحده.

هذا الكتاب هو أول خطوة أخطوها لإثبات براءته التى سأسعى لتحقيقها رسميًا.

كتب والدي هذا الأثر في قلعة الطائف أمام مشكل وهو محاط بالجواسيس فكان يكتب السطر أو السطرين ويترك الكتابة إذا سمع وقع قدم أو صوت إنسان.

كتبه وليس معه رفيق يستشيره أو كتاب يلجأ إليه ورغما عن فقدان كل الوسائط اللازمة لكتابة التواريخ خدم به وطنه أيضًا في أواخر أيامه وأودعه وقائع حياته السياسة والإدارية وبرأ نفسه من الحكم الذي ألصقه به الملك المستبد وأعوانه الأراذل الجبناء وكان قد أرسل قسما من هذا الأثر إلى عائلته في أزمير فحفظته عندي كتذكار مقدس واستخرجت منه الكتاب الذي قد نشرته في أوربا وعدد صفحاته (١٤٣) وزدت عليه بعض المواد المأخوذة من غيره.

وكان - رحمة الله - قد صرف النظر عن إرسال متمماته لانقطاع الرسائل المنيئة بوصول ما بعث به من مقدمات ومع كل ذلك فقد رأى وجوب إيجاد نسخ متعددة منه فاستكتب خير الله أفندى نسختين وحفظ النسخة الأصلية في بعض خبايا السجن ولكنه أخرجها قبل قتله بلية لسبب لا أعلمه فأخذها الجلادون ولعلهم أرسلوها إلى عبد الحميد وأرسلت إحدى النسخ المكتوبة بخط خير الله أفندي إلى كمال أفندي شيخ تكية (بلاط) بواسطة

---

(١) نفس المرجع ص ١٤٩.

طوغلـه جى زاده مصطفى أفندي فلم يسـلمها الأول إلى الثاني لليوم وسـلمت الصورة الثانية إلى وصفي أفندي مدير أوراق الطائف بواسـطة فخري بك فوضعها في صندوق من الحديد ودفنها إلى يوم إعلان الدستور.

أنشر اليوم أثرًا كتب بمهمة عالية وحفظ بشجاعة نادرة. أنشر منه اليوم (تبصرة وعبرة) وأذيله بملحق فمن المحررات المرسـلة إلى عائلته يعلم القارئ ما قاسـاه المرحوم في سجنه وقد أضفنا إلى هذا القسم ما التقطاه من أفواه رفاقه الذين لا يزالون في قيد الحياة.

اعتمدنا في تفصيل مسـألة خنقه على رسـالة لرفيقه في سـجنه خير الله أفندي (شيخ الإسـلام الـذي اصدر فتوى خلع عبـد العزيز) وعلى أقـوال المابينجي الثاني للسـلطان عبد العزيز الذي قد رافق الفقيد وعايشه في سجنه وخلص من الأسر وعاد بعد إعلان الدستور.

اليوم أنشـر أثر رجل قد خنق بأمر السـلطان عبد الحميد في غيابة سـجن الطائف لأعيد ذكره المنسـي بين محافل سـرور الشـعب. واشـرك روحه فـي فرح الأمة التـى كان يحبها ويفديها بالنفس والنفيس

علي حيدر مدحت باشا

١٠ تموز ١٣٢٥

مقدمة مدحت باشا

قال المرحوم عن نفسه في مقدمة كتابه المكتوب بخط يده.....

طلب الكثيرون من محبي الوقوف على نشأة مدحت باشا ترجمته فنشرها مرارًا باللغتين التركية والعربية ولكنها لم تكن وافيه لأن قسمًا منها كتب عن أحوال سنة ١٢٨٢ والقسم الثاني كتب عن الأحوال سنة ١٢٩٠ على أن خدمات مدحت باشا المشهورة قد ابتدأت بعد ذلك الزمان وخصوصًا سنة ١٢٩٣ أي من خلع السلطان عبد العزيز إلى سنة ١٢٩٩ ففيما بين هذين التاريخين تنحصر أهمية صحائف أحواله ولذلك قد طلب منه العديدون من رفاقه في سجن قلعة الطائف كتابة هذه الأسطر فلبى طلبهم وكتب ترجمته من يوم ولادته سنه ١٢٣٨ إلي سنة ١٣٩٨ ضمن هذه الترجمة وقائع الدولة السياسية وسمي الكتاب المحتوي على التفصيلات الشامل لأعظم الوقائع السياسية تبصره وعبرة.

فالواقع المسطور في هذا الكتاب يعرفها الواقفون على حركاته وأحواله وهم إلى اليوم في قيد الحياة والأوراق الرسمية الموجودة إلى يومنا في سجلات الحكومة تثبت ما له من الأيادى في خدماته المشهورة التى قد خدم بها الحكومة ٤٥ سنة بلا فاصلة فمن اشتبه في بعض محتويات هذا الكتاب فليراجع الأوراق الرسمية ليظهر له الحق.

وهنا مسألة يجب النظر إليها وهي أن ما كتب في السجن لم يحتوى على النمر الرسمية والتواريخ بالضبط لأن الأوراق الرسمية إذ ذاك بعيدة عن الكاتب وليت الخطب قد بقي عند هذا الحد فقد كانت الكتب الدينية وأمثالها ممنوعة عنه وعن رفاقه وكانت مخابرة أولادهم وعائلاتهم ممنوعة أيضًا فضلاً عن التضييق والتعذيب فليعذر القارئ إذا وقف على بعض الخطأ والقصور.

مدحت باشا

الفكر الإستراتيجى عند مدحت باشا:

يتضمن الفكر الاستراتيجى لمدحت باشا ناحيتين، ناحية عسكرية، وناحية إدارية، وكلا الناحيتين متكاملتان، باعتبارهما ناتجتين من فكر واحد هو فكر مدحت باشا رجل الإصلاح في الدولة العثمانية، والذي تولى عدة وظائف قيادية في حكومة الدولة، وفي الولايات العثمانية في البلقان حتى تولى وظيفة ولاية العراق، ومن ثم اتجهت أنظاره نحو منطقة الخليج العربي لتنفيذ فكره الاستراتيجى الذي يخدم الدولة العثمانية في مواجهة النفوذ البريطاني الممتد من شبه القارة الهندية إلي مشيخات الخليج العربية، مستندًا إلى اصلاحات حققها في العراق، سواء في مجال الأراضي الزراعية، أو في مجال التنظيم الإداري، أو في مجال استخدام شط العرب كشريان للنقل البحري من العراق إلى مياه الخليج فالبحر العربي والمحيط الهندي، ثم إلي المحيطات المفتوحة.

قام الفكر الإستراتيجى لمدحت باشا في الناحية العسكرية على إيمانه بأن تنفيذ أية سياسة على الأرض يستلزم احتلالاً عسكريًا لتلك الأرض، ومن ثم وضع مدحت باشا خطته للقيام بحملة عسكرية لاحتلال الأحساء، وإذا تم له احتلال الأحساء ينطلق منها إلى بقية مناطق الخليج وإماراته، تعويضًا عما فقدته الدولة العثمانية في أوروبا من جراء حرب القرم التى انتهت سنة ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م.

قامت خطة مدحت باشا العسكرية بإعداد حملة عسكرية تتوجه من البصرة الميناء العراقي على شط العرب للتوجه نحو الأحساء، وقد حرص مدحت باشا على تحقيق هذا الغرض بعد توفر عدة عوامل هى:

١) إعداد القوة العسكرية من حيث الرجال والعتاد.

٢) اللجوء إلى السرية التامة سواء في مرحلة الإعداد أو مرحلة التنفيذ.

٣) الاستعانة بالكويت، حاكما وموانئ، وسفنًا.

٤) جمع المعلومات عن منطقة الأحساء، شعبًا، وإمكانات اقتصادية.

كان اختيار مدحت باشا للقائد العام للحملة العثمانية إلى الأحساء القائد "نافذ باشا" بما يملكه من قدرات عسكرية وخبرات حربية، في حروب الدولة العثمانية في ميادين كثيرة في أوروبا وفي غيرها دفاعًا عن الدولة ثم جاءت الخطوة الثانية في تكوين الفرق والألوية التى ستشارك في الحملة والتى بلغ عدد أفرادها حوالي أربعة آلاف جندى، مزودين

بأسلحة متنوعة من بنادق ومدفعية، وخيول وغير ذلك من الأسلحة، إلي جانب إعداد البواخر التى ستبحر من البصرة في اتجاه الأحساء مرورًا بميناء الكويت.

الفكر الاستراتيجى لمدحت باشا في الخليج العربي:

إذا كان لمدحت باشا استراتيجية نحو الخليج العربي امتدادا من ولايته على العراق، فإن تلك الإستراتيجية هى إستراتيجية الدولة العثمانية وما هـو إلا أداه وصاحب فكر أخذت به الدولة في الآستانة وكلفته بتنفيذه، ومن هنا ارتبط الفكر الاستراتيجى لمدحت باشا في الخليج العربي برغبة الدولة العثمانية لتحقيق طموحاتها في تلك المنطقة خاصة وأن فكرة الجامعة الإسلامية بزعامة الدولة العثمانية - السلطان العثماني - التى روج لها السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وانطلقت من مصر في ستينيات القرن التاسع عشر كانت مبررًا لأن يتبنى السلطان العثماني الفكر الإستراتيجي لمدحت باشا في الخليج العربي[1].

ويقوم الفكر الإستراتيجى لمدحت باشا نحو الخليج العربي والجزيرة العربية على الأسس الآتية:

١) تطويق الجزيرة العربية من الجهة الشرقية بعد أن سيطرت على كل من الحجاز وعسير واليمن، لكي تضمن سيطرتها المنفردة على كل شبه جزيرة العرب ولا تترك منه فراغا تتسلل منه قوة أجنبية مثل بريطانيا امتدادا من الهند، التى حاولت منذ أوائل القرن التاسع عشر السيطرة على مشيخات الخليج العربي وإماراته بتوقيع معاهدات الهدنه أو المعاهدات المانعة التى وقعها شيوخ الأمارات الخليجية مع ممثلي بريطانيا في الخليج وقبلوا فيها بشروط بريطانيا في عدم التسلح أو الاتجار بالرقيق أو القيام بعمليات الجهاد البحري الإسلامي ضد السفن الاجنبية، أو التنازل لأية قوة غير بريطانيا عن أرض تمتلكها تلك الأمارات على الساحل العربي للخليج[2].

٢) الاستفادة من افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية العالمية عام ١٨٦٩م (١٢٨٦هـ)، في الربط بين العراق وإمارات الخليج العربية وبين اسطنبول ربطًا بحريًا يسهم في احكام السيطرة العثمانية على بلاد العرب امتدادا من البحر الأحمر إلى الخليج العربي، بما فيها العراق ومصر واليمن وسلطنة مسقط وعمان إن أمكن لإبعاد التنافس الأوربي المتجه لبسط نفوذ الدول الأوربية في المنطقة بكاملها بالاستفادة

---

(١) إلياس الأيوبي: تاريخ مصر في عهد الخديو اسماعيل باشا، القاهرة، ١٩٢٣، ص٢٣٦.

(٢) د. رأفت الشيخ: تاريخ العرب الحديث، القاهرة ٢٠٠٠م.

من افتتاح قناة السويس للملاحة[1].

٣) تعيين مدحت باشا، رجل الدولة القوى والطموح واليًا علي العراق العثماني مع إطلاق يده بكل حرية في بسط نفوذ الدولة العليا في الاتجاه الذي يراه مدحت باشا مناسبا لاستراتيجية الدولة في المنطقة[2]، خاصة بعد أن ظهر الصراع واضحًا في الإمارة السعودية بنجد والممتدة إلي الأحساء بين ابناء فيصل بن تركي آل سعود: عبد الله وسعود، ومن ثم يعمل مدحت على أن يحل النفوذ العثماني المباشر محل آل سعود في حكم كل من الأحساء ونجد. حيث تعتبر الدولة العثمانية نجد وملحقاتها جزءًا من الدولة العثمانية المتسعة الأرجاء كالحجاز وعسير واليمن، ومن ثم فعلى مدحت باشا منذ تولى حكم العراق أن يتبنى فكر رجال الإصلاح العثمانيين - وهو منهم - الذين كانوا يدعون إلى التوجه بأنظارهم إلى الأقطار الآسيوية؟ لكي يعوضوا ما خسرته الدولة في البلقان[3].

٤) قامت الإستراتيجية العثمانية في الخليج والجزيرة العربية التى ينفذها مدحت باشا باحتلال الأحساء بمنتهى السرعة، خوفًا من التدخل البريطاني في المنطقة، خاصة بعد أن تقدم البريطانيون من الهند بمساعدة الأميرسعود بن فيصل آل سعود في صراعه مع أخيه عبد الله، عن طريق حاكمي مسقط والبحرين، وأن نجاح البريطانيين في هذا المسعى سيضر بالاستراتيجية العثمانية في الخليج بل وفي العراق، إلى جانب ادعاء مدحت باشا بأن نجد والأحساء تعيش حالة من الفوضي السياسة مما دفع بالأمير سعود بن فيصل إلى الأعتداء على القوافل التجارية العثمانية[4].

كما قامت إستراتيجية مدحت باشا بالاستيلاء على الأحساء وغيرها من إمارات الخليج العربي، بالاعتماد على العيون "الجواسيس" في معرفة أحوال أهل الأحساء، وتحركات الأمير سعود بن فيصل آل سعود في المنطقة ومراكز تجمع قواته وتحصيناتها، حتى يستفيد من هذه المعلومات في اختيار طريق القوة العثمانية البرية المتجهة إلى الأحساء برًا، وتجنب غارات البدو، ومجاهل الصحراء في تلك المنطقة، وكذلك معرفة الموانى التى يمكن أن ترسو فيها سفن حملة مدحت باشا.

كما أن مدحت باشا في إستراتيجيته في منطقة الخليج العربي كان يدرك أن

(١) محمد عرابي نخلة: تاريخ الأحساء السياسي ١٨١٨/ ١٩١٣م، الكويت ١٩٨٠ ص ١٤٩.
(٢) عباس الغزاوى: تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧ بغداد ١٩٤٩م ص ٢٧١.
(٣) د. عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث.
(٤) د. عبد الفتاح أبو علية: دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، الرياض ١٩٨٦ ص ١١٣.

البريطانيين لهم نفوذ كبير في البحرين وقطر وإمارات الساحل العماني المهادن وسلطنة مسقط وعمان، ذلك النفوذ المعتمد على الاتفاقات مع تلك الإمارات العربية، ولم يبق من ساحل الخليج العربي إلا سواحل الأحساء بمدنها وإمارة الكويت، حيث كانت هذه غير مرتبطة بالبريطانيين بأية معاهدات، وبالتالى يمكن لمدحت باشا أن ينطلق من الكويت إلى الأحساء لتوسيع نفوذ الدولة العثمانية في منطقة الخليج العربي والجزيرة العربية، ومن ثم نجده يعلن في أبريل عام ١٨٧١م أن السيادة العثمانية أصبحت ممتدة لتشمل نجد، وأن حملة عثمانية ستزحف لتثبيت الأمير عبد الله بن فيصل آل سعود بصفته قائمقام عثماني، وأعلن مدحت باشا أن الهدف من الحملة ليس الاستيلاء على نجد، بل لتوثيق الروابط القائمة بينها، بين نجد، وبين الدولة العثمانية، وكبح جماح الأمير سعود بن فيصل آل سعود، المتحالف مع البريطانيين - وإنهاء أعماله العدائية[(١)].

٥) تمثلت الإستراتيجية العثمانية نحو الخليج العربي التى ينفذها مدحت باشا أيضًا فى مد نفوذ الدولة من الأحساء إلى قطر التى كان آل ثانى يحكمونها بصفة شبه مستقلة عن أدعاءات البحرين عليها، بموجب معاهدة عام ١٨٦٨م التى وقعها الشيخ محمد بن ثانى "شيخ الدوحة" مع المقيم البريطاني في الخليج بأن شيوخ القبائل القطرية يتعهدون بدفع ما قيمته ١٥ ألف "قران" للمقيم البريطاني ليقوم بتسليمها لحاكم البحرين حتى يتوقف عن ادعاءاته بالسيادة على قطر، ومن ثم رأى مدحت باشا أن قطر لم تكن ضمن الإمارات الخليجية التى وقعت على اتفاق السلم الدائم مع البريطانيين عام ١٨٥٣م، ومن ثم أرسل مدحت باشا قوة تركية نزلت إلى شبه جزيرة قطر عام ١٨٧١م واعترفت بالشيخ قاسم "جاسم" بن محمد آل ثانى حاكما لقطر، وتم تعيين الشيخ قاسم بوظيفة قائمقام عثماني، مع تعهد العثمانيين بعدم التدخل في الشئون الداخلية في قطر تلك الشئون التى كان يتولاها الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى والاعتراف بآل ثانى حكاما لقطر. [(٢)]

٦) واجه مدحت باشا المستبدين من الحكام في الأحساء، حيث كان هؤلاء الحكام يحكمون حكمًا استبداديا يتسم بالظلم والجور، حيث استغل الموظفون العثمانيون السلطة في أيديهم وكبدوا الأهالى دفع ضرائب باهظة، وكان مدحت باشا - لكي يكسب الأهالي في الخليج - كان يقف في وجه هؤلاء الحكام المستبدين، ويحقق

---

(١) د. جمال زكريا قاسم: الخليج العربي، القاهرة ١٩٦٦ ص ١٨١.

(٢) د.رأفت غنيمى الشيخ: العرب، دراسات في التاريخ الحديث والمعاصر القاهرة ١٩٨٤م، والقران عملة فارسية خليجية.

في كل صغيرة وكبيرة، ولذلك استثنى القبائل من دفع الضرائب فيما عدا ضريبة العشور، ولذلك فإنه بعد رحيل مدحت باشا عاد الظلم والاستبداد من قبل الموظفين العثمانيين.

٧) ونتساءل ما هو موقف أهالي الأحساء وبقية إمارات الخليج من الاستراتيجية العثمانية التى رسمتها الدولة العثمانية ونفذها مدحت باشا في منطقة الخليج العربي. الأجابة أن الاستراتيجية العثمانية لم تكن موفقة لسببين رئيسيين هما:

أ) أن الدولة العثمانية لم تفي بوعدها للأهالي في منطقة الخليج العربي، مما أفقد الدولة ثقة الأهالي في سياستها، ومن ثم كان استياء الأهالي كبيرًا وفرحوا كثيرًا بانسحاب العثمانيين من الخليج.

ب) اعتماد الدولة العثمانية على القوة العسكرية، وأهملت تحقيق العدالة الاجتماعية، وتحقيق مطالب الأهالي في توفير التعليم والصحة، أي أن الحكم العثماني اتصف بالعسكرية وليس بالحضارة التى لا توجد في القاموس العثماني آنذاك. مما جعل الأهالي ينفرون من هذه السياسة العثمانية. [١]

٨) جاء تعيين مدحت باشا لتنفيذ الاستراتيجية العثمانية نحو منطقة الخليج والجزيرة العربية بعد أن أدركت الدولة العثمانية أن التوسع غربًا في أوروبا لم يعد ممكنا، وأن السبيل الوحيد أمامها هو تقوية نفوذها في الخليج، خاصة بعد هزيمتها في بلاد البلقان أمام روسيا القيصرية. وهنا تبرز قيمة الدور الذي لعبه مدحت باشا كمنفذ لهذه السياسة العثمانية، خاصة وقد اكتسب خبرة كبيرة من تجربته الإدارية والعسكرية في بلاد " الطونة " إضافة إلى ما اكتسبه العراق في عهد ولاية مدحت باشا من استقرار. ومن المعروف أن العثمانيين كانوا يعتمدون في سيطرتهم علي هذه المناطق على الوجود العسكري فبها، وكان مدحت باشا من مؤيدي ذلك الأسلوب. [٢]

مدحت باشا في العراق:

كان العراق قد سقط في يد الصفويين[٣] عام ١٥٠٨م وهم شيعة، وصادف هذا تطلع

---

(١) عبد العزيز بن عبد الرحمن الشعيل: الوجود العثماني في منطقة الأحساء ١٨٧١ - ١٩١٤م، رسالة ماجيستير غير منشورة ص ٢٨٨ كلية الآداب جامعة الزقازيق، عام ١٩٨٨م.

(٢) محمد بن عبد الرحمن عبد المحسن الأحسائي: تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد، ص ١٦٨ الرياض ١٩٨٢.

(٣) ينتسب الصفويون إلى الشيخ صفي الدين صاحب طريقة صوفية في أردبيل بأذربيجان من بين عدة طرق صوفية انتشرت هناك أثناء الاضطراب الذى عم إيران والعراق عقب سقوط دولة المغول الكبرى. وقد أصبح لهذه الحركة قوات عسكرية تتخذ لباسا للرأس عبارة عن تاج أحمر ذا اثنى عشر ذؤابة كناية عن الاثنى عشر إماما، ولهذا أطلق عليهم العثمانيون « قزل باش» أي الرءوس الحمراء د. محمد انيس. الدولة العثمانية والشرق العربي.

العثمانيين إلى الشرق بعد أن اتسعت فتوحاتهم في الغرب، في أوربا عبر البلقان، ووصلت إلى مداها، ومن هنا حدث الصدام بين الصفويين الشيعة والعثمانيين السنة على أرض العراق عام ١٥١٤م، وكانت العراق بذلك أول قطر عربي تدخله القوات العثمانية غازية.

وكان سقوط العراق في يد الصفويين على يد زعيمهم الشاه إسماعيل الصفوى الذي يعتبر المؤسس الحقيقى للدولة في إيران والذي استمر في الحكم من ١٥٠٠ إلى ١٥٢٤م. ويذكر بعض المؤرخين وعلى رأسهم المؤرخ البريطانى أرنولد توينبي Toynbee أن الشاه إسماعيل الصفوى مسئول عن تحول العثمانيين في فتوحاتهم نحو الأقطار العربية وهو التحول الذي أدى إلى صدام بين الصفويين الشيعة والعثمانيين السنة، وذلك بمحاولات إسماعيل إثارة العثمانيين بشتى الطرق.

ورغم انتصار القوات العثمانية بقيادة السلطان سليم الأول على القوات الصفوية بقيادة إسماعيل الصفوي في سهل جالديران عام ١٥١٤م ودخول السلطان سليم إلى العاصمة تبريز واستيلائه على أموال وكنوز الشاه ونسائه، فإن هذا الانتصار لم ينه العداء بين الفريقين، بل استمر طويلاً وكان العراق ميدانا للصراع والمعارك بين الطرفين: مما جعل العراق موزعا توزيعًا متوازنا بين السنة والشيعة.

ورغم حملة السلطان سليم الأول لم يخضع العراق كله للحكم العثماني، بل خضع شماله فقط في الموصل ودياربكر، وحتى فى هذه المناطق لم يكن الحكم العثماني مستقرًا كل الاستقرار. أما العراق الأوسط والجنوبى فقط ظل في يد الإيرانيين[1] وكان هذا الانقسام من أسباب استمرار الصراع بين الأتراك العثمانيين والصفويين، واستفاد المغامرون وقبائل الأكراد وحكام الولايات التركية المجاورة للدولتين من هذا الصراع لمصالحهم الشخصية، وفى عام ١٥٢٣م قاد السلطان سليمان القانوني العثماني حملة عسكرية استولى فيها على بغداد وانضمت البصرة آنذاك إلى العثمانيين طواعية حتى عام ١٦٢٣م عندما أعاد الصفويون الكرة واستولوا عليه وبقوا به لمدة خمس سنوات وبذلك أصبح العراق كله تقريبًا خاضعًا للدولة العثمانية إلى أن قام السلطان العثماني مراد حملة عسكرية عام ١٦٣٨م استولى بها على العراق وأعاده إلى حظيرة الدولة العثمانية[2].

ولم تكن حملة مراد على العراق آخر مراحل الصراع بين الايرانيين والعثمانيين حول العراق، إذ أنه بعد سقوط الأسرة الصفوية في إيران علي يد نادر شاه عام ١٧٢٣م حاول هذا

---

(١) د. محمد أنيس: الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر ص ٣٨.

(٢) رأفت الشيخ: في تاريخ العرب الحديث، القاهرة ١٩٧٥ ص ٦٢.

الشـاه الجديد الاسـتيلاء على العراق ولكنه فشـل، ثم أعاد الكرة من عام ١٧٤٣ إلى عام ١٧٤٧م عندما توفي نادر شـاه، وعقدت بين إيران وتركيا معاهدة حددت الحدود التقليدية بين الدولتين مع دخول العراق في حوزة الدولة العثمانية، وبهذه المعاهدة انتهت فترة الصراع الطويلة بين الإيرانيين والعثمانيين والتى كان العراق ميدانها.

ومما يجب الإشـارة إليـه أن البصرة كان لها وضع خاص، فقد اسـتولى عليها الفرس، الصفويون، أولاً في سنه ١٦٩٦م ثم تركوها بعد عامين، ثم أغار عليها نادر شاه عام ١٧٤٧م ثم ارتد عنها[1]، وكانت البصرة بحكم موقعها على شـط العرب على رأس الخليج مصدر اهتمـام الدول الأوروبية، وقد اسـتفادت العشـائر العربية هناك من هـذا الاهتمام إلى جانب استفادتها من الصراع الإيراني العثماني.

وفـي ظل الصراع الإيراني العثمانـي حول العراق كانت حاجة الدولة العثمانية إلى إقرار الأمورفـي العـراق دافعا لكي تظهر أسـرة حاكمة تحكم العراق منذ أوائـل القرن الثامن عشـر وتسـتمر حتى عام ١٨٣١م. هذه الأسـرة هى أسرة حسن باشـا الذي عين واليًا في عام ١٧٠٤م، وقد نجح حسـن " في اخضاع القبائل العربية المتمردة ومن ثم لم يعد في اسـتطاعة الباب العالى أن يستغنى عن خدماته" [2].

ظل حسـن باشـا في الحكم متخذًا من بغداد مقرًا له ونادرًا ما كانت كل أقاليم العراق تخضع لحكمه، إذ كانت الموصل والبصرة كثيرًا ما يعلن حكامها عدم خضوعهما لباشوية بغداد، ويقى حسن باشا في الحكم حتى عام ١٧٣٤م حيث خلفه ابنه أحمد في الباشوية.

عـاش العـراق بعد حكـم المماليك تابعا تبعيـة كاملة للدولة العثمانيـة، وحرص الولاة الذيـن حكمـوه باسـم السـلطان العثمانـي من عـام ١٨٣١ إلـى ١٩١٤م على اخضـاع العراق للحكومة المركزية باسـطنبول والقضاء على آثار استقلال العراق الذي عمل له الباشوات المماليك وقد أدت سياستهم هـذه إلى أن تصبح سلطتهم على العراق وهمية وضعيفة عجزت عن القضاء على القبائل العربية المتحاربة فيما بينهم أو المحاربة للباشـوات الأتراك، وهذه القبائل سـاندت محمد علي والي مصر الذي كان يطمع في ضم العراق إلى الكتلة العربية التـى حـرص على إقامتهـا في هذه المنطقة بعد أن ضم بلاد الشـام والحجاز والسـودان إلى مصر بصفة خاصة.

وكانـت سـلطة الباشـوات الأتراك ضعيفـة أيضًا في مواجهة أكراد شـمال العـراق الذين

(١) د. أحمد عزت عبد الكريم وآخرون: دراسات في النهضة العربية الحديثة، القاهرة ص ٢٣٠.
(٢) د. محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي القاهرة ص ١٥.

يؤيدهم شاهات إيران، وقد استمرت الحرب دائرة بين الباشوات الأتراك وبين الأكراد من عام ١٨٣١ إلى ١٨٤٢م حتى عقدت في مايو عام ١٨٤٢ معاهدة أرضروم الثانية بين تركيا وإيران. حددت الحدود بين الدولتين تنازلت بمقتضاها إيران عن السليمانية ومناطق أخرى مقابل تنازل تركيا لإيران عن الساحل الأيسر لشط العرب ومناطق أخرى، ولكن هذه المعاهدة لم تنه الانتفاضات الكردية ضد الحكم التركي المباشر الذي بقيت سلطته وهمية.

وطبقًا لمنشور التنظيمات الخيرية الذي صدر في يونيه ١٨٥٦م انقسمت العراق إلى ثلاث إيالات: ولاية بغداد وولاية البصرة التى أنشئت عام ١٨٠٤م، وولاية الموصل التى أنشئت عام ١٨٧٩م[1] وأعادت هذه التنظيمات تنظيم جهاز الدولة ولكنها لم تنه إساءات الموظفين وابتزازهم الأموال لمصالحهم الخاصة.

وقد شهدت العراق عهدا من الإصلاح في عهد ولاية مدحت باشا (١٨٦٩، ١٨٧١م)[2] حيث شمل الإصلاح نواحى متعددة كالتعليم ونظام الحجر الصحى، ومع ذلك بقى نظام "الطابو"[3]. أو إدارة تسجيل الأراضي، من أهم الأعمال التى تمت على يد مدحت باشا وهو نظام كان يهدف إلى استقرار القبائل في الأراضي الزراعية هذا إلى جانب اهتمامه بربط العراق بحريًا بكل من اسطنبول ولندن بعد أن فتحت قناة السويس للملاحة العالمية، وغير ذلك من مشروعات المواصلات لربط أجزاء العراق بعضها ببعض وربطها مع سوريا وتركيا، وإدخال الخدمة العسكرية، ولكن هذه المشروعات لم يقدر لها التنفيذ حيث نقل مدحت باشا عام ١٨٧١ إلى أدرنة.

وقد استمر الوضع غير مستقر في العراق بسبب إنقسام العراق إلي سنة وشيعة استغله سلاطين آل عثمان لبقاء نفوذهم فى العراق مع محاباة للسنة العراقيين، وانقسام العراق إلى عرب وأكراد على استعداد للثورة مستمدين التأييد من قوى خارجية، وانقسام العراق إلى حضر وبادية مع اختلاف التكوين الثقافي والاجتماعى بين سكان المدن والقبائل

---

(1) Longrigg. Iraq 1900 - 1950, p. 10

وأربعة قرون من تاريخ العراق الحديث تأليف لونجرج، د. محمد أنيس الشرق العربي ص ١٣.

(٢) كان مدحت باشا في رئاسة شورى الدولة يسن القوانين ويحدث اللوائح، وكان من الواجب على الحكومة إحالة كل شئ على هذا المجلس، ولكنها لم تفعل بل كانت تصدر بعض النظامات قبل عرضها على شورى الدولة، فلم يقبل مدحت باشا أعمالها، وعزم على التوجه إلى إحدى الولايات، وصادف عزل تقي الدين باشا والي بغداد، فأظهر مدحت باشا ميله إلى تلك الولاية، فوجهت إليه وظيفة والي بغداد مع نظاره الفيلق السادس. مدحت باشا: حياته - مذكراته - محاكمته، إعداد يوسف كمال بك حتاته ود. صديق الدملوجى، بيروت ٢٠٠٢م، ص ٢٢٣.

(٣) يعنى الطابو قيام إدارة التسجيلات ببيع أراضى الحكومة بأقساط صغيرة سهلة الدفع ومنح هذا الحق بصفة خاصة لشيوخ القبائل بحيث تسع قطعة الأرض القبيلة التى يتولون رئاستها وقد أدى هذا النظام إلى أن أصبح الكثير من شيوخ القبائل ملاكا زراعيين وإقطاعيين كبارا.

والعشائر العربية المتمسكة بتقاليدها البدوية الراسخة في القدم.

حاول الولاة الأتراك اقتفاء أثر مدحت باشا ولكنهم فشلوا فى تحقيق أية برامج إصلاحية في العراق، وذلك لانشغال الدولة بأحداثها الداخلية المتمثلة في الصراع بين السلاطين وبين العثمانيين الجدد(مكى عثمانلر) وهم جماعة من الضباط الأتراك والموظفين والمثقفين الأحرار، ذلك الصراع الذي انتهى بحدوث انقلاب مايو عام ١٨٧٦ ضد السلطان عبد العزيز، وانقلاب أغسطس من نفس العام ضد مراد الخامس وكانت نتيجته المناداة بعبد الحميد سلطانًا في ظل دستور وضعه مدحت باشا الذي اختاره السلطان وزيرا. ثم انقلاب عبد الحميد عام ١٨٧٧م ضد الدستور ونفي مدحت باشا.

وترك العراق نهبًا لأطماع الدول الأوربية وصراعهًا، فبينما حصل الألمان على مد خط سكة حديد بين برلين إلى بغداد، وقفت انجلترا أمام هذا المشروع؟ لأنه يهدد المصالح البريطانية في العراق والخليج والهند، وحصلت إنجلترا على احتكار التجارة مع العراق، واحتكار نقل البضائع بين العراق وانجلترا.

استمر الوضع فى العراق على هذا النحو في ظل حكم السلطان عبد الحميد الذي حاول التأثير فى الأقطار العربية عن طريق الترويج لفكرة الجامعة الإسلامية التى تعيد له السيطرة الكاملة على تلك الأقطار لتقف ضد النفوذ الأجنبي المتزايد في ولايات الدولة وخاصة الولايات العربية.

استمر هذا الوضع حتى ثورة ١٩٠٨م بقيادة جماعة الاتحاد والترقى أو تركيا الفتاة ضد استبداد السلطان عبد الحميد، ورغم فرح العراقيين وبقية العرب بهذه الثورة ومؤازرة العرب للقائمين بها، إلا أن العراقيين شاركوا مع إخوتهم العرب في تشكيل الجمعيات السرية المناهضة لسياسة التتريك التى اتبعتها حكومة الاتحاديين والمعادية للعروبة. . تلك كانت مقدمات لصدام بين العرب والأتراك في الحرب العالمية الأولى انتهت بانحسار الحكم التركى عن العراق وغيره من أقطار المشرق العربي.

ومما يجب ملاحظته، أنه مع اتساع الدولة العثمانية في شرق أوروبا على حساب الامبراطورية البيزنطية وفى أقطار الوطن العربي، خاصة في القرن السادس عشر فقد وضع السلطان سليمان القانونى ١٥٢٢م لحكم الولايات العثمانية، ومنها الأقطار العربية، نظامًا للحكم يقوم على توزيع السلطة بين ثلاث قوى كانت على النحو الآتى:

أولاً: الوالى: ويلقب بالباشا وهو نائب السلطان في حكم الولاية وله سلطة تنفيذ أوامر

السلطان والرئاسة على جميع الموظفين العثمانين في الولاية وإن كانت سلطته مقيدة بوجود قوى أخرى تشاركه في السلطة مثل رؤساء الجند والعصبيات المحلية، كما أنها محدودة بفرمان يصدر من السلطان لمدة سنة قابلة للتجديد.

ثانيًا: رؤساء الجند: وهم قادة الفرق أو الأوجاقات. تلك الفرق الموكول إليها الدفاع عن الولاية ضد الغزو الخارجى وحفظ النظام والأمن الداخلى وخاصة بالتصدي للثورات التى قد يقوم بها أهالى الولاية ضد الحكم العثماني، ومن اجتماع قادة الفرق يتألف مجلس شورى الوالي المسمى بالديوان الذي له السلطة الكبيرة في إدارة الحكومة حيث لا يستطيع الوالى أن يبرم أمرا إلا بموافقة أعضائه، فهم بمثابة سلطة رقابة وإشراف على السلطة الوالى، وحتى عندما انقسم الديوان إلى ديوان كبير وديوان صغير ظل لسلطة قادة الجند القوة في مواجهة الوالى.

ثالثًا: العصبية المحلية: خير مثل للعصبية المحلية وسلطتها في حكم الولاية، المماليك في مصر حيث أصبح لهم حكم الإقاليم المختلفة بحكم أنهم أعرف بأهل البلاد وظروفها، وفي وقت ضعف الدولة وجندها تقوى شوكة العصبية المحلية حتى يصير في إمكانهم عزل الوالى أو الاستئثار بالنفوذ دونه. هذا إلى جانب القبائل العربية ذات الشوكة في الأقطار العربية كالعراق والشام.

وكان يساعد هذه القوى الثلاث مجموعة من الموظفين يعينهم السلطان العثماني مثل الكتخدا أى وكيل الوالى والدفتردار المسئول عن الشئون المالية والسلاح دار (السلحدار) المسئول عن أمور التسلح والخازن دار(الخزندار) المكلف بالخزانة العامة للولاية.. إلخ.

وهكذا أصبح العراق ولاية عثمانية يتولاها باشا يتم تعيينه من مركز السلطنة العثمانية في اسطنبول، وكانت بغداد مقر الوالى يدير منه أمور الولاية في النواحى الداخلية، والنواحى الخارجية. وكان مدحت باشا أظهر الولاة في العراق، حيث تمكن من إقرار النظام والأمن والاستقرار، وأجرى بعض الاصلاحات التى لا يزال يذكرها العراقيون[1].

أعمال مدحت باشا في العراق

كان مدحت باشا معنيًا بإصلاح أمور الدولة العثمانية، منذ أن أسندت إليه بعض المهام الرئيسية في الدولة، وكانت أهدافه تتمثل في الآتى:

١ - المساواة بين رعايا السلطان أتراكًا وغير أتراك.

(١) عباس الغزاوى: تاريخ العراق بين احتلالين جـ٧ بغداد ١٩٤٩ ص ٢٧١.

٢ - تركيز السلطة الإدارية والقضائية في يد رجال الحكومة.

٣ - إعداد الموظف الأمين الذي يستطيع أن يلائم بين مصالح حكومته والرعية.

٤ - اشتراك الرعايا مع الإدارات المختلفة في إصلاح أمور البلاد.

٥ - سد الثغرات التى تنفذ منها الدول الأجنبية للتدخل في أمورالولايات العثمانية. [١]

وقد نجحت إصلاحات مدحت باشا في ولاية "الطونة"[٢] بعد أن وضع قانون الولايات عام ١٨٦٤م. وذهب إلى الطونة لتطبيقه في النواحى الإدارية والاقتصادية، زراعية وصناعية، وفي النواحى التعليمية، ثم عاد إلي اسطنبول لتسند إليه منصب رئاسة مجلس الشورى، وعندما اختلف مع الصدر الأعظم نديم باشا عام ١٨٧٨م، أسند السلطان العثماني لمدحت باشا ولاية بغداد لأنه كان على مقدرة كبيرة في التعامل مع الأجانب، خاصة مع البريطانيين الذين كانوا يسيطرون على مقدرات مشيخات الخليج العربي، ولأن مدحت باشا بشخصيته القوية أقدر علي توجيه أمور العراق وفق أهداف الدولة نحو تقوية قبضتها إلى طول السواحل العربية، وفي جعل العراق طريقًا عالميا ينادد قناة السويس المقرر افتتاحها للملاحة العالمية عام ١٨٦٩م [٣].

صدر فرمان تعيين مدحت باشا واليًا على العراق ١٨٦٩م، ونص الفرمان على تكليف مدحت باشا بتطبيق قوانين الأراضى والبلديات والولايات، وتطوير أمور العراق الانتاجية، وتقوية قبضة الحكومة على العشائر ضمانا للاستقرار في الأراضي الزراعية. وقد سعي مدحت باشا بالفعل في العمل على تطبيق تكليفات السلطان العثماني في فرمان التعيين، وكان بما يتحلي به من أدراك لأهمية الاصلاحات الإدارية والقضائية والاقتصادية، عمل على إشراك الأهالى في إدارة أمور البلاد بالتعاون مع السلطات الحاكمة والهيئات الإدارية المختلفة، وربط الإدارات الفرعية في الولاية بمقر الوالي[٤].

ولسنا هنا بصدد تسجيل أعمال مدحت باشا الإصلاحية في العراق في مدة ولايته (١٨٦٩ - ١٨٧١م)، لكننا نكتفي بتلك الاصلاحات المتصلة بتقوية العراق في الداخل لينطلق منها لفتح الأحساء وليحقق فكره الاستراتيجى في منطقة الخليج العربي كاملة.

بالنسبة لتطبيق قانون الولايات في العراق، فقد وضع مدحت باشا تنظيما جديدًا

---

(١) د. عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث، من نهاية حكم داوود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا، القاهرة ١٩٦٨ ص ٣٥٣ - ٣٥٤.

(٢) بانضمام إقليم «سلسترة» و «ودين» و «نيش» تكونت ولاية الطونة في البلقان.

(٣) د. عبد العزيز نوار: المرجع السابق ص ٣٥٥.

(٤) مدحت باشا، حياته - مذكراته - محاكمته، إعداد يوسف كمال بك حتاته، ود. صديق الدملوجي بيروت ٢٠٠٢ م، ص ٢٢٣ - ٢٣٨.

للتقسيم الإدارى للعراق، حيث شكل العراق ولايتين هما ولاية بغداد وتضم البصرة، وولاية الموصل، وقسمت هذه الولايات إلى أولوية، كان منها متصرفية البصرة وتتبعها الأقسام الإدارية: البصرة - المنتفق - العمارة - الكويت - نجد، وكانت نجد تضم الكويت والأحساء، عندما أصبحت البصرة ولاية أصبحت نجد والأحساء من سناجقها(١).

وكانت العقبة الكبرى التى تواجه مدحت باشا في تطبيق قانون الولايات فى العراق وجود عشائر عربية قوية تعارض بشدة إدخال هذه النظم الإدارية الجديدة ولكن تطبيق قانون الأراضي (الطابو) كان الأسلوب العلمى لإنفراد العشائر وتوجيهها إلي الإنتاج الزراعي، خاصة بعد الاهتمام بحفر الترع والقنوات وإقامة السدود وربط مدينة بغداد الواقعة على نهر دجلة بنهر الفرات لتكون على صلة مستمرة بخطوط البواخر التى قرر أن يمدها في نهر الفرات.

كما اهتم مدحت باشا بمدينة بغداد بتوفير المواصلات والخدمات الاجتماعية والعمرانية والصحية، كما عني بمدينة البصرة والموصل، واهتم بالثقافة والتعليم بإنشاء مدارس رشدية مدنية وعسكرية، ومدارس إعدادية عسكرية إلى جانب مدرسة الفنون والصنائع، وفي إطار إدراك مدحت باشا بأن القوة العسكرية المسلحة هى آداة الحكومة العثمانية لتقوية قبضتها على أجزاء العراق، ولبسط السيطرة العثمانية خارج العراق، فاهتم بالتجنيد الإجباري لأبناء العراقيين، وبذلك بلغ الجيش في عهده درجة لم يبلغها من قبل من حيث العدد والتجهيز(٢).

وقد استخدم مدحت باشا البواخر العديدة لتعمل بين البصرة والسويس والآستانة وأوربا بالمواجهة نحو التجارة المتبادلة بين العراق من جهه وأوروبا والهند من جهه أخرى وعمل على أن يجعل من نهرالفرات طريقًا ينادد طريق قناة السويس، ويربط بين الساحل السورى وبغداد والبصرة (٣).

حملة مدحت باشا علي الأحساء وأقطارالخليج

عندما تولى مدحت باشا ولاية بغداد عام ١٨٦٩م، وجه أهتمامه إلى بسط نفوذ الدولة العثمانية على كامل أقطار الخليج العربي بالاستيلاء على الكويت والبحرين وقطر والأحساء، والخطوة التالية هي الاستيلاء على إمارات الشارقة وعجمان ورأس الخيمة وأبو ظبى ودبي ومسقط وعمان، كما أشارت إلى ذلك جريدة "الزوراء" الناطقة

---

(١) عباس الغزاوى: المرجع السابق حـ ٧ ص ١٦٨.

(٢) د. عبد العزيز نوار: المرجع السابق، ص ٣٨٩.

(٣) عباس الغزاوي: المرجع السابق حـ ٧ ص ٢١٩.

بلسان مدحت باشا[1].

وكان مدحت باشا يرغب في أن يسبق بريطانيا في هذا المضمار، لأن نشر النفوذ البريطاني في إمارات الخليج العربي فيه تهديد للعراق العثماني وفيه انتقاص من المجال الحيوى والاستراتيجى للوجود العثماني في العراق ومن ثم بدأ مدحت باشا بالكويت، إذ أنه عند زيارته لها عام ١٨٧٠م أى في العام التالى لولايته على العراق اتفق مع الشيخ عبد الله الصباح شيخ الكويت على أن تكون الكويت قائمقامية تتبع ولاية البصرة، ويصبح الشيخ عبد الله "قائمقام" يقوم بتنظيم شئون الدولة الداخلية وترفع السفن الكويتية العلم العثماني، وأن تكون الكويت سنجقا مستقلاً استقلالاً ذاتيًا تحت حكم وراثي لآل صباح.

وقد رحب آل صباح بهذا التوجه العثماني من منطلق إسلامي في إطار الجامعة الإسلامية بزعامة الدولة العثمانية، كما كان لشيوخ آل صباح أراضي في البصرة ويرغبون في الحفاظ على ملكيتهم لها في ظل الحكم العثماني للعراق، كما أن مدحت باشا استفاد من تعاون آل صباح في الحملة المزمع إرسالها للاستيلاء على الأحساء نظرًا لما تملكه الكويت من سفن كثيرة ذات إعداد حربي وتجاري واضح، حيث أن الكويت تنعم بالاستقرار ويطبق الشريعة الإسلامية في أحكامه، ومن ثم فإنه ليس بحاجة إلى قوة عسكرية عثمانية [2].

وقد اشترك حاكم الكويت بقوات برية وبحرية في حملة مدحت باشا إلى الأحساء، وقد نجحت الحملة في الاستيلاء على القطيف والأحساء والهفوف التى أصبحت مركز "لواء نجد" الذي يضم إلى جانب الهفوف، قضاء القطيف، وقضاء قطر، وتعين على قضاء قطر الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى برتبة قائمقام يعاونه قائد عثماني يشرف على حامية العثمانيين هناك [3].

وبعد أن تم لمدحت باشا الاستيلاء على الأحساء من يد آل سعود، عين عبد الله الفيصل آل سعود قائمقام على نجد، وعسكرت قوة عثمانية في منطقة الأحساء مما اضطر عبد الله الفيصل إلى الهرب، ومن ثم استقرت القوات العثمانية في الأحساء، وزار مدحت باشا الأحساء في شهر شعبان ١٢٨٨هـ الموافق لعام ١٨٧١م بهدف الاطمئنان على أحوال القوات العثمانية هناك، وينظر في إمكانية إرسال قوة تتجه إلى مدينة الرياض للاستيلاء عليها، وقد غادر مدحت باشا الأحساء بعد أن أقام فيها شهرين، ثم توجه إلى بغداد.

---

(١) خالد العزى: المرجع السابق ص ٤٠.

(٢) د. عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث. ص ٤٣٢، ومذكرات مدحت باشا ص ١٨١.

(٣) د. مصطفى النجار: التاريخ السياسى لعلاقات العراق الدولية بالخليج العربي، بغداد ١٩٧٥م ص ٣١٢.

وكان مما ساعد مدحت باشا في نجاح حملته على الأحساء الصراع بين كل من عبد الله بن فيصل بن تركي آل سعود وأخيه سعود، كما أن الأحساء كانت من المناطق التى قاومت حكم آل سعود لأن المؤثرات الشيعية فيها قوية، كما أن بنى خالد - حكام الأحساء خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر - كانوا يسعون لدي الدولة العثمانية ولدي حكومة محمد علي في مصر لاستعادة حكم الأحساء بالإضافة إلي موقف قبائل العجمان وبنو مرة من عبد الله بن فيصل، وهو موقف العداء الشديد.

وقد غادر مدحت باشا الأحساء في أوائل عام ١٨٧٢م، وأخذ معه عددًا من الجنود المرضى والجرحى من حامية الأحساء، كما أن عددًا من العشائر التى سبق لها الاشتراك في الحملة عادت أيضًا، فضاعف هذا من تضاؤل القوة العثمانية، ومن تجميد أعمال الحملة ووقوفها عند الحدود التى بلغتها على يد مدحت باشا، الذى غادر العراق إلى الآستانة في ٢٢ مايو ١٨٧٢م، وكان ذلك من العوامل الرئيسية التى جمدت نشاط الحملة والقوات العثمانية في شبه جزيرة العرب، وقد قدرت قوات الحملة في أغسطس عام ١٨٧١ م بـ ٣٤٠٠ مقاتل في الهفوف والقطيف والعقير، وأن ثلثهم كان مريضًا[1].

وعندما صدر فرمان السلطان العثماني عبد العزيز باستعفاء مدحت باشا الذي سبق أن تقدم به نظرًا لما كان يلقاه من الحكومة العثمانية، ومن الصدر الأعظم خاصة محمود نديم باشا، قبل الصدر الأعظم استعفاء مدحت باشا بلا تردد وعين رءوف باشا واليًا على بغداد ومشيرًا لفيلقها، وحضر على جناح البرق، وفارق مدحت باشا بغداد بعد حضور الوالي الجديد، وكان خروجه منها في شهر مايس (مايو) ١٨٧٢م[2].

---

(١) د. عبد العزيز نوار: المرجع السابق ص ٤٣٢ - ٤٣٣.

(٢) مدحت باشا حياته - مذكراته - محاكمته: المرجه السابق ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

الفصل السادس

الأحساء

كتــاب الحملة العثمانية على الأحســاء من خـلال الوثائق العثمانيــة "فيصل بن عبد الله الكندري".

كتاب: العثمانيون وشـرق شبه الجزيرة العربية (إيالة الحسا) عبد الكريم بن عبد الله المنيف الوهبي.

الحكم العثماني للأحساء قبيل ضم ابن سعود لها.

جذور العلاقات العثمانية مع حكام شبه جزيرة العرب.

الإستراتيجية العثمانية نحو إقليم الأحساء.

المتصرفون الأتراك في الأحساء.

مقدمة (كتاب الحملة العثمانية على الأحساء) [1]

منطقة الخليج العربي ذو أهمية إستراتيجية كبرى، فالخليج ملتقى التجارة القادمة من جنوب آسيا أو من شرق أفريقيا أو من البحر المتوسط لذلك شهد الخليج نشاطًا تجاريًا كبيرًا خلال العصور المختلفة، حيث كانت التجارة العالمية تمر عبر الخليج مما أطمع كثير من الدول الأجنبية والغربية على احتلال المنطقة والاستفادة من تلك الأهمية. والمنطقة الشرقية من المملكة والتي تعرف حاليًا بهذا المسمى من أهم مناطق الخليج. فنجد أن البرتغاليين احتلوا المنطقة لأهميتها وتبعتها دول ومنها الدولة العثمانية في فترة احتلال وسيطرتها الأولى على المنطقة، وبعد جلاء العثمانيين عن منطقة القطيف والأحساء ونظرًا لأهميتها عاودوا الكرة مرة أخرى لأهميتها وذلك عام ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م.

اعتمدت هذه الدراسة بشكل كبير على الوثائق العثمانية التي لم تزل مجهولة، فقد عثر على مجموعة كبيرة من الرسائل والتقارير التي بعث بها كل من والي بغداد مدحت باشا ونافذ باشا القائد العثماني العام للحملة، وبلغت في مجموعها قرابة ٢٥ رسالة وتقرير، وقد نشرت تلك الوثائق مع ترجمة لها في الكتاب.

جاءت هذه الدراسة لتتناول تلك الحملة من خلال الوثائق العثمانية، وتبيّن أوضاع الجزيرة العربية منذ إعلان قيام الدولة السعودية الثانية على يد تركي بن عبدالله حتى حدوث الخلاف بين الأخوين عبدالله وسعود الفيصل، كما تطرقت الدراسة لتوضيح أهم الإصلاحات التي قام بها مدحت باشا لتعزيز الوجود العثماني في المنطقة. وفي الأخير تم مناقشة أهم النتائج التي أسفرت عنها الحملة.

قسم المؤلف الكتاب إلى فصلين ثم تبعهم بملاحق.

الفصل الأول:

- مصادر الدراسة: وهي الوثائق والتقارير العثمانية كما أنه استعان ببعض المصادر العربية.
- أوضاع شبه الجزيرة العربية: سلط المؤلف الأضواء على أوضاع الجزيرة العربية وذلك من خلال التسلسل التاريخي للأحداث في نجد وعلاقتها بمنطقة الدراسة؛

---

(١) نزار العبد الجبار: الحملة العثمانية على الأحساء من خلال الوثائق العثمانية، عرض الكتاب للمؤلف فيصل بن عبد الله الكندري.

الأحساء والقطيف.

- العثمانيون والخليج العربي: سجل المؤلف أهمية الخليج للعثمانيين خلال فترتهم الأولى وأهميتها لهم للرجوع إليها مرة ثانية وهي موضوع الدراسة.

الفصل الثاني:

- الحث على السيطرة على المنطقة وترغيب الدولة العثمانية فيها: حث مدحت باشا الدولة العثمانية لاحتلال المنطقة وذلك من خلال بعثه ببعض التقارير إلى السلطات العثمانية يخبرهم عن الخيرات الموجودة في منطقتي الأحساء والقطيف، ومما جاء في بعض تقاريره "بأن الضرائب التي تم تحصيلها من بستان واحد في القطيف والذي يحتوي على مليون ونصف نخلة قدرت بثلاثمائة ألف قرش، ويضيف بأنه يوجد في الأحساء بساتين تبلغ مساحتها أضعاف هذا البستان، وهذا يشير بأن العائدات المالية المتوقعة ستكون كبيرة جدًا. والدولة العثمانية بحاجة ماسة لتلك العائدات الكبيرة.
- أوامر الحملة: وهي ترتيبات الحملة لخضوع المنطقة لهم من الدولة السعودية الثانية "سعود الفيصل" مع ترتيب الفرق العسكرية وكيفية سير وتنظيم الحملة، مع استعداد عبدالله الفيصل مع عشائر الرياض وحاكم الكويت للمساعدة في تلك الحملة. وتعيين عبدالله الفيصل قائمقام على القطيف والأحساء وقطر. وتقديم عبد الله الفيصل مساعدات مالية من أمواله الخاصة لتغطية بعض النفقات المادية للحملة العسكرية. وغير ذلك من الأوامر التي صيغت.
- استعداد مدحت باشا للحملة :قام مدحت باشا قبل الحملة بدراسة قوة خصمه قبل أن يجازف بالجيش، فتم التعرف على المنطقة وخاصة إنهم يجهلون منطقة نجد حيث من ضمن مخططهم مهاجمة نجد. فجاءت التقارير بالنسبة لمهاجمة القطيف بأن أنسب مكان تستطيع السفن أن تقوم بعملية إنزال بها هي رأس تنورة، فأراد مدحت باشا من ذلك تجنب الطريق الصحراوي.
- سير الحملة: بدأت استعداد الحملة من الفاو والبصرة وخرجت للكويت وبقوة عسكرية منها ثم اتجهت إلى رأس تنورة ثم للقطيف وذلك عن طريق مدينة صفوى متجهة نحو القطيف ومناطقها وتتبعت الحملة نحو الدمام وقلعتها وبعد ذلك اتجهت الحملة نحو الأحساء.

- أعمال مدحت باشا بعد الحملة: بعد انتهاء الحملة وسيطرة العثمانيين على المنطقة قام مدحت باشا بعدة أعمال منها:

١) تحويل الأحساء والقطيف إلى متصرفيات، وتعيين قائمقامين ومديرين في المنطقة، ووضع فيلق عسكري نظامي وغيرهم من الموظفين في قلعتي الأحساء والقطيف.

٢) مكافأة حاكم الكويت عبدالله الصباح وإسهاماته في الحملة حيث شارك بأكثر من مائة سفينة، طلب إعطاءه قائم مقام الكويت.

٣) الشروع في تحصيل الإيرادات من مزارع النخيل والعنب في القطيف والأحساء بمعرفة المجالس المؤقتة، وكذلك رسوم الجمارك والضرائب في ميناءي العقير والقطيف.

٤) أخذ مدحت باشا يتحدث عن الإيرادات التي تصب في خزينة الدولة بعد الإصلاحات التي تمت في الأحساء والقطيف بعد نجاح الحملة فأخذ يصف الأحوال الجغرافية والاقتصادية للجزيرة العربية، ومثال ذلك فقد أورد وصفًا جيدًا عن الأوضاع الاقتصادية في المنطقة ومما قاله عن الأحساء بأنها تحتوي على ما بين ٣٠ - ٤٠ ألف مزرعة نخيل ومزارع النخيل تسمى بستان، وتبلغ مساحة كل بستان دونمين، وعلاوة على النخيل هناك أيضًا مزارع الأرز، وأمّا في القطيف فإن مزارع النخيل تقدر ما بين ٨ - ١٠ آلاف مزرعة.

وتحدث عن نجد ومناطقها كالرياض وعنيزة وبريدة وجبل شمر ومزارعهم القليلة، وحاجتهم الماسة لمحاصيل مزارع الأحساء والقطيف. وغيرهم من الأعمال.

أثر الحملة على بلدان المنطقة "نجد، والبحرين، قطر:

الملاحق: وهي ترجمة عربية كاملة للرسائل والتقارير العثمانية المتعلقة بالحملة وهي أساس معلومات الكتاب مع صور من الوثائق العثمانية الأصلية وهي على ستة ملاحق. وأخذت حيز كبير من الكتاب.

صدر مؤخرًا كتاب مهم يتحدث عن المنطقة الشرقية وقراها في فترة تاريخية مهمة وحرجة في تاريخ الأحساء والقطيف واسم الكتاب "العثمانيون وشرق شبه الجزيرة العربية، إيالة الحسا ٩٥٤ - ١٠٨٢هـ / ١٥٤٧ - ١٦٧١م) للمؤلف الدكتور عبدالكريم بن عبدالله المنيف الوهبي ويقع في (٥٦٤ص) ط١ ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، والناشر المؤلف نفسه[1].

---

(١) د. عبد الكريم بن عبد المنيف الوهبي: العثمانيون وشرق شبه الجزيرة العربية، (إيالة الحسا ١٩٥٤ - ١٠٨٢هـ - ١٥٤٧ - ١٦٧١م).

والكتاب في الأصل أطروحة دكتوراة حيث تم تسجيل الأطروحة في البداية بعنوان "الحكم العثماني في الحسا ٩٥٤ - ١٠٨٢هـ / ١٥٤٧ - ١٦٧١م "ثم عدل العنوان باسم الكتاب ذلك لتغير مفهوم مصطلح الحسا في الوقت الحاضر لاسيما من حيث المساحة والحدود الإدارية.

وتعود أهمية الكتاب إلى بداية الفترات الحرجة بالنسبة للمشرق العربي حيث كان المد البرتغالي في أوج قوته وخاصةً في غربي الخليج العربي وسيطرة الدولة العثمانية على المشرق العربي بما فيه الأماكن المقدسة وأصبحت القوة الرئيسية في العالم الإسلامي مما حملها التصدي للبرتغاليين حيث قام البرتغاليون بالتحالف مع الصفويين خصوم العثمانيين.

وتبرز أهمية هذه الدراسة في إيضاح نظرة العثمانيين للأحساء والدور المنوط بها في إستراتيجتهم لمواجهة الخطر البرتغالي الذي يهدد شبه الجزيرة العربية وجنوب العراق. وإلقاء الضوء على حقيقة الحكم للأحساء والخصائص والمرتكزات التي قام عليها وإيضاح الهيكل الإداري الذي تمت بواسطته إدارة العثمانيين للأحساء والتعرف على موارد المنطقة الاقتصادية وأهم الضرائب والرسوم التي فرضتها الدولة العثمانية على الأهالي لصالحهم، وبيان أهم مظاهر ذلك الحكم وتنظيماته المالية والعسكرية وتقسيماته الإدارية وبيان كيفية نهايته وصلته بالقوى المحلية وأثر تلك الصلة على مستقبل المنطقة لاسيما من الناحية السياسية وسوف أقوم بالتعريف بشكل مختصر قدر الإمكان بمحتوى الكتاب.

ينقسم الكتاب إلى عشرة فصول تناول:

الفصل الأول: نشأة الدولة العثمانية والأوضاع السياسية في غربي الخليج العربي في النصف الأول من القرن العاشر الهجري من حيث أهم القوى المحلية في المنطقة....

الفصل الثاني: صلة العثمانيين بالحساء في النصف الأول من القرن العاشر الهجري من خلال علاقتهم بالحسا في عهد الإمارة الجبرية وموقفهم المساند لتلك الإمارة في صراعها مع البرتغاليين، وعلاقة العثمانيين بالحسا أثناء فترة حكم آل مغامس للمنطقة ودور العثمانيين في الصراع على السيادة على القطيف بين آل مغامس والبرتغاليين، ودوافع العثمانيين لضم الحسا لحكمهم المباشر.

الفصل الثالث: عالج المؤلف مسألة ضم الحسا للحكم العثماني ودور ضم البصرة للحكم العثماني المباشر في سيطرة العثمانيين على الحسا والكيفية التي تمت بها والمراحل التي مرت بها تلك العملية حتى استكمالها بضم القطيف سنة ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م على أثر انتزاعها من البرتغاليين وبيان دور الأهالي في عملية ضم الحسا بما فيها القطيف، ثم استعراض سريع للمواجهات البحرية العثمانية البرتغالية في الخليج العربي ما بين سنة ٩٥٩ - ٩٦٢هـ / ١٥٥٢ - ١٥٥٥م وإيضاح أثر تلك المواجهات على الوجود العثماني في الحسا.

الفصل الرابع: يتناول هذا الفصل قيام إيالة الحسا وتعريف مفهوم التسمية وتنظيماتها الإدارية فقد قدم المؤلف لمحة عامة عن التنظيمات العثمانية ما بين سنة ٩٥٠ - ١٠٨٢هـ / ١٥٤٤ - ١٦٧١م كمدخل لتناول الإدارة العثمانية في الحسا ومعرفة مدى العلاقة بين التنظيمات العثمانية عامة وما تم تطبيقه من تنظيمات في الحسا ثم تطرقت الدراسة إلى المراحل التي مر بها التشكيل الإداري للحسا حتى قيام إيالة الحسا سنة ٩٦١هـ /١٥٥٤م وإلى حدود إيالة الحسا وأهم مظاهرها الجغرافية وتأثير ذلك على مرتكزاتها الاقتصادية كما تناول الجهاز الإداري الذي كانت الحكومة المركزية تديره بواسطة إيالة الحسا وأهم مناصب ذلك الجهاز، ومهام وصلاحيات كل منصب وأسماء بعض من عينوا في ذلك المنصب وتاريخ وفترة كل منهم.

الفصل الخامس: تحدث في هذا الفصل عن منصب أمير الأمراء وأهميته واعتباره الممثل للسلطان العثماني في الإيالة ودوره كحاكم عام للإيالة والغموض الذي يحيط بشاغلي ذلك المنصب في إيالة الحسا، وتم تخصيص هذا الفصل لاستعراض الأمراء الذين تولوا منصب أمير الأمراء في الإيالة أو ما يماثل ذلك المنصب.

الفصل السادس: يتناول التقسيمات الإدارية لإيالة الحسا مع استعراض ألوية الإيالة وبقية الوحدات الإدارية فيها. التي منها لواء الحسا ولواء القطيف ولواء صفوى ولواء الظهران وغيرهم.

يبرز النشاط السكاني في الإيالة وأهميته بالنسبة لموارد خزينة الإيالة ويتناول الإنتاج

الزراعـي وأهم الضرائب التي يتم تحصيلها لحسـاب السـلطة العثمانية والفئات السـكانية التي تشملها تلك الضرائب والرسوم.

الفصل الثامن: يتعلق بالتنظيمات المالية ويعالج مسألة تطبيق النظام الإقطاعي في إيالة الحسا...

الفصل التاسع: يختص بالتنظيمات العسكرية في الإيالة من حيث التشكيلات العسكرية التي تكونت منها قوات إيالة الحسـا ، والتعريف بأسـطول الحسـا ودرجة قوته ونوع المهام الموكلة إليه وصلته بأسطول إيالة البصرة.

الفصل العاشر: اختص بتنامـي دور الإدارة المحليـة في إيالة الحسـاء من حيـث عوامله ونتائجه وصلته بالتطورات التي حدثت في الإيالات العثمانية المجاورة، ومـن ثم تنـاول نهاية الحكم إيالة الحسـا والتداعيات التي سـاهمت في ذلـك، وصلة السـلطة المركزية العثمانية بالقوى المحلية التي استولت على السلطة في الحسا.

وانتهت الدراسة بخاتمة توضح أبرز النتائج التي توصلت إليها وبعدد من الملاحق المتعلقة ببعض الوثائق التي اعتمد عليها المؤلف في دراسـته. وفي نهاية الكتاب وضع المؤلف ثبت بالمصـادر والمراجع التي اعتمد عليها وهي متنوعة من وثائق عثمانية ووثائق محلية ولوحات تأسيسية ووثائـق برتغاليـة في الأرشـيف الوطنـي البرتغالي بلشـبونة. ومخطوطـات عربية وعثمانية، وكتب ومراجع عربية وعثمانية وأجنبية ودوريات وبحوث غير منشورة. والكتاب جيد جدير بالاقتناء.

الدولة العثمانية وإقليم الأحساء:

ترجع علاقة الدولة العثمانية بالأحساء إلى عام ٩٦٣هـ الموافق لعام ١٥٥٥م عندما دخلها جيش عثماني قادم من البصرة، في عهد السـلطان العثماني سـليمان القانوني (المشرع). ثم اسـتخلصها مـن العثمانيين عـام ١٠٨١هـ الموافق لعـام ١٦٧٠م براك بن غريـر بن عثمان بن سعود آل حميد من بني خالد، الذي طرد الحامية العثمانية من الأحساء، وظلت السلطة في أيدي بني خالد، حتى دخلت الأحساء تحت حكم آل سعود في ظل دعوة التوحيد الإصلاحية عام ١٢٠٧هـ الموافق لعام ١٧٩٢م.

وظل الوجود السـعودي في الأحسـاء حتى سقطت الدولة السعودية الثانية بعد وفاة الأمير

عبد الله بن فيصل بن تركي آل سعود، ومن ثم سادت الفوضى في المنطقة، حتى تطلع أهل الأحساء إلى من يحقق لهم الأمن والاستقرار، ويرفع عن كاهلهم تجاوزات الحكام المحليين في المنطقة، وتعنتهم في فرض الضرائب وجبايتها، وهنا وجد مدحت باشا الذي تعين واليًا على العراق عام ١٢٨٦هـ الموافق لعام ١٨٦٩ الفرصة المواتية لإقناع الباب العالي بتسيير حملة عسكرية لاحتلال الأحساء، وبالفعل سارت الحملة صوب الأحساء يقودها "نافذ باشا" وكان الهدف منها هو تمكين الوجود العثماني العسكري في الأحساء، والانطلاق منها إلى مناطق الخليج الأخرى.

كانت إستراتيجية مدحت باشا إقامة سيطرة عثمانية في منطقة الأحساء يشرف منها على بقية مشيخات الخليج ويحقق بها وجود عثمانيًا في منطقة الخليج العربي ينطلق منه إلى البحار المفتوحة، وخاصة وأنه واكب وجود مدحت باشا واليًا في العراق افتتاح قناة السويس للملاحة العالمية، ومن ثم تطلع إلى تسيير خطوط ملاحة بحرية بين شط العرب في العراق والبحر الأحمر والبحر المتوسط وأوروبا إلى استانبول مركز الدولة العثمانية وعاصمتها.

فهل تحققت إستراتيجية مدحت باشا هذه، وما هي الصعوبات التى واجهت خطته سواء بالنسبة لمنطقة الأحساء ولمنطقة الخليج العربي؛ بل ولمشروع الخطوط البحرية بين شط العرب والعالم، هذا ما سوف نستجليه في الصفحات التالية، خاصة بعد أن غادر مدحت باشا الأحساء في عام ١٢٨٩هـ / أوائل عام ١٨٧٢م.

الحكم العثماني للأحساء قبيل ضم ابن سعود لها [١]:

ما أن عبر أهالي الأحساء عن استيائهم من الفوضى التى سادت المنطقة وأبدوا تطلعهم إلى من يحقق الأمن لهم والاستقرار، ويرفع عن كاهلهم تجاوزات الحكام المحليين في المنطقة، وتعنتهم في فرض الضرائب وجبايتها حتى وجدها مدحت باشا فرصة مواتية لإقناع الباب العالي بتسيير حملته العسكرية إلى الأحساء[٢] وبالفعل سارت الحملة صوب

---

(١) عبد العزيز عبد الرحمن الشعيل: ميناء العقير في عهد الملك عبد العزيز، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق.

(٢) توجهت الحملة من العراق إلى الأحساء في غضون شهرين ووصلت رأس تنورة في ٢٥ مايو ١٨٧١م ومنها إلى القطيف التى سقطت دون مقاومة ثم اتجهت إلى المبرز والهفوف وكذلك الدمام وقلعة عنك وقد قام نافذ باشا بإجراء تنظيمات إدارية وعسكرية في الأحساء، إلا أن ظروف الحملة لم تساعد على استمرار الدور السياسي العثماني جيدًا في الأحساء مما جعل مدحت باشا يقرر الذهاب بنفسه للأحساء. وقد استمر حكم العثمانيين للأحساء مضطربًا حتى استطاع ابن سعود ضمها لنجد عام ١٩١٤م أنظر. عبد العزيز الشعيل الوجود العثماني في الأحساء، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٩٨٨، ص. ص ١٠٨ - ١٢٧.

الأحســاء يقودها نافذ باشا وكان الهدف منها هو تمكين الوجود العثماني العسكري في الأحساء والانطلاق منها إلى مناطق الخليج الأخرى - كما ذكرنا.

وبـدأت القيادة العســكرية للحملـة في تنفيذ خطتهــا منذ أن وطئت أقدامهــا المنطقة، وكانت الظروف السياسية للمنطقة مهيأة ليحقق الوجود العسكري العثماني أهدافه دونما عنـاء، لـولا إصابة عدد كبير من جنود الحملة بالأمراض التى كانت تنتشـر في المنطقة، الأمــر الــذي جعل مهمة الحملة تـزداد صعوبة وتعقيدًا وتلافيًا لتدهور محتمل قام نافذ باشــا بتوجيه من مدحت باشــا باتخاذ عدد من الإجراءات الوقائية ســاعدت على تلاشــي الفشــل، وســاهمت في تأمين قاعدة عســكرية عثمانية وزعت فيها القوات حسـب أهمية المناطق[1] حيث أصـدر أمرًا لكافة جنوده بعـدم مبارحة القلاع والحصون تحسـبًا للمقاومات، كما اســتعان بجنود من أهالي المنطقة مقابل راتب شـهري قدره ســت روبيات، مســتثمرًا بذلك فرصة العوز والحاجة التى كان الأهالي يعانون منها[2].

إلا أن هــذه الإجراءات التى لجأ إليها مدحت باشــا لـم تكن مجدية إلى حد ما ولم تقض علـى المشــاكل التـى كان قائد الحملة "نافذ باشــا" يعاني منها، فضــلاً عما كان لها من تأثير كبير على موقف الأهالي من الوجود العثماني ممثلاً في الحملة التى ظنوا أنها السبيل إلى الخلاص من مشاكلهم ومعاناتهم.

وإزاء هــذا الموقـف الحرج لجأ مدحت باشــا إلى زيادة الأســطول العثمانــي في الخليـج، متعللاً بأن حماية قناة السويس تستلزم زيادة القطع البحرية العثمانية في الخليج الأمر الذي دفع بريطانيا إلى الاحتجاج لدى الباب العالي، الذي أكد في رده على الاحتجاج بأن ارتباط الأحساء بولاية العراق هو الدافع من وراء ذلك[3].

ولكن الأمر ما لبث إن ازداد تعقيدًا بعد أن اتصل "سعود بن فيصل بن تركي ببريطانيا مستعينًا بها ضد أخيه عبد الله ولكن بريطانيا لم تكن ترغب في الدخول في صراع داخلي بري وســط الجزيرة في المنطقة مما حدا بســعود إلى الاســتجابة للمبادرة التى قام بها أخوه

---

(١) قدر بلى عدد القوات العثمانية الموجودة في الأحساء على النحو التالي: حامية القطيف (٥٠٠) جندي منهم (١٥٠ جنديًا) مريضًا العقير = ١٥٠ جنديًا قوات مساندة في الطريق = ٢٢٥ جنديًا الأحساء وما حولها (٢٥٠٠) جندي منهم ١٠٠٠ مريض المجموع ٣٣٧٥ - مجموع المرضى (١١٥٠) انظر. عبد العزيز الشعيل الوجود العثماني في الأحساء، سبق ذكره، ص١٢٥.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار «تاريخ العرب الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية المتحدة، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ص٤٣٢.

(٣) حسين محمد القهواني: دور البصرة التجاري، ص١١٦.

عبد الله بعد أن فقد الأمل في الدولة العثمانية التى لم تحقق رغبته وطموحه[1].

وإزاء هذه الأحداث المتلاحقة بدت السلطة العسكرية في الأحساء أعجز عن أن تحقق أهدافها أو تنقذ الوضع الآخذ في التردي، مما حدا بمدحت باشا إلى دعم القوة العسكرية في الأحساء، فقام في ١٢٨٨هـ / ٢١ نوفمبر ١٨٧١م بقيادة كتيبة قوامها ٣٠٠ جندي نزلت ميناء العقير بعد أن فقدت الحاميات العسكرية في القطيف... وقد سلك مدحت باشا في وصوله العقير طريق البحر مخالفا بذلك الطريق الذي سلكه "نافذ باشا" مع جنوده، وذلك خشية أن يكون الطريق غير آمن وما أن وطأ مدحت باشا "ميناء العقير" حتى قام بإجراء التعديلات اللازمة لتقوية قوته البحرية، فضم بعض السفن التجارية إلى ترسانته، كما استعان ببعض القوارب الصالحة للعمل في المياه الضحلة التى يتميز بها ميناء العقير. وكانت تلك الإجراءات بمثابة مؤشر أكيد على أن "مدحت باشا" يرمى إلى القيام بعمل عسكري بحرى ينطلق من ميناء العقير كقاعدة بحرية فى مقابل استخدام بريطانيا للبحرين[2].

كما قام"مدحت باشا" بإلغاء السلطة الشرعية الممثلة فى حكم"عبد الله بن فيصل بن تركى" عندما حدد له خمسة عشر يوما كحد أقصى - يتوجه خلالها على الأحساء، وإلا اعتبره متنازلا عن الحكم بعد تلك المدة[3].

أما الوضع الإدارى فى المنطقة فقد ارتبط بالاستقرار السياسى المباشر الذى حكمت المنطقة بموجبه عسكريا، وهنا الوضع لم يألفه الأهالى، وقد أدرك"مدحت باشا"، فأوكل بعض الأمور الإدارية إلى بعض الأفراد فى مناطقهم لتتفرغ الحملة لاستكمال خطتها. إلا أن ذلك لم يكن ليجد من ردود فعل السكان الذين أظهروا امتعاضهم فى شكل انتفاضات وتمرد داخل المدن وخارجها، وقد استغل"ابن سعود" ذلك الشعور وراح يحث القبائل على المقاومة والتمرد وانضم له العجمان وآل مرة، ووصل الأمر إلى تجمع أكثر من سبعة آلاف مـن الأهالى فى المدن ليعلنوا تحديهم للسلطة العثمانية فى المنطقة الأمر الذى دفع القائد العثمانى"رءوف باشا" إلى الاتصال بسعود بن فيصل بن تركى، خشية أن يقوم هو وأخوه - أو منفردا - بهجوم على المنطقة، خاصة بعد أن أدى رحيل مدحت باشا إلى العراق تاركا منطقة الأحساء، إلى فشل مشاريع التوسع التى كان مدحت باشا يهدف إلى تنفيذها، سواء فى الخليج أو فى اتجاه الرياض.

---

(1) (I. O. R.) L/P 85/20C238. P. 35.

(٢) عبد العزيز الشعيل: الوجود العثماني في الأحساء.

(٣) مذكرات مدحت باشا: ص٧.

ولكن التقارب السعودى العثمانى ما لبث أن تأزم عندما أرسل سعود أخاه عبد الله إلى بغداد فاحتجز كرهينة ثم أطلق سراحه ١٣٠٢ هجرية/١٨٧٤ميلادية، حيث لم يكد يصل إلى الأحساء حتى تزعم الثورة ضد العثمانيين.

ومع تطور الأحداث الداخلية وزيادة الثورات فى منطقة الأحساء لجأ العثمانيون إلى إسناد مهمة إخماد هذه الثورات إلى رؤساء القبائل والقيادات المحلية، وكان العثمانيون يهدفون من وراء ذلك إلى تحقيق غايتين: الأولى إخماد الثورات بما تسببه من إزعاج واضطراب للسلطة العسكرية فى المنطقة، الثانية: القضاء على نفوذ القبائل بإضعافها عن طريق تنافر بعضها مع البعض الآخر دون التورط فى مواجهتها أو تكبد أية خسائر فى سبيل القضاء على نفوذها وقوتها، وقد أكد ذلك قيام السلطات العثمانية بسحب أغلب قواتها من المنطقة، حيث لم تبق فيها سوى فرقتين وذلك طبقا للتغيرات السياسية فى العراق ومتغيرات الخطط العامة للدولة العثمانية.

ويمكننا تقسيم فترة الحكم العثمانى لمنطقة الأحساء إلى مرحلتين متميزتين:

المرحلة الأولى:

وهى مرحلة القوة السياسية والتى وضع أسسها "مدحت باشا" منذ أن وصل إلى الأحساء وقد اشتملت على إيجاد تغيير فى التقسيم الإداري.

لولاية العراق والتى من ضمنها الأحساء[1] وقد امتد العمل بهذا التقسيم الجديد إلى بداية تولى "ناصر باشا السعدون" متصرفية الأحساء، وتميزت تلك الفترة بإعطاء أهمية للتنظيمات الإدارية وذلك بربط الأوامر والقرارات بالسلطة العليا فى الولاية، وذلك لتحقيق أمنيات الأهالى ووضعها موضع التنفيذ لتأكيد إقناعهم بالحكم الجديد، وربطت السلطة المدنية العسكرية فى هذه المرحلة بيد المتصرف وقبل الأهالى بذلك أملا فى الاستقرار الذى لم يتحقق، مما أدى إلى نفورهم من الحكم خلال الأسابيع وقد أدى الخلاف مع عبد الله بن فيصل على السلطة - إلى تخوف الأهالى من السلطة الجديدة، وانعكس ذلك على أفراد الحملة وأضعف من قدرة القيادة على تطبيق النظم الجديدة مما قلل من رغبة الأهالى فيها.

المرحلة الثانية:

وهى مرحلة الضعف الإدارى، وقد بدأت هذه المرحلة بأسلوب إدارى جديد يتمثل فى

(١) مصطفى عبد القادر النجار: التاريخ السياسي لعلاقات العراق الدولية بالخليج العربي، مركز دراسات الخليج العربي، البصرة، ١٩٧٠، ص١٩٢.

الاستفادة من الأهالى فى الحكم، إلا أن تلك الخطة الجديدة لم تحقق الرضا لدى الأهالى مما دفعهم إلى تغيير تلك الخطة وجاء التغيير موافقا لرغبة الدولة العثمانية فى حفظ الاتفاق الذى دفع الولاة إلى العمل لمصالحهم الشخصية، إضافة إلى أن الدولة العثمانية أخذت تفقد قوتها وسيطرتها على أطراف الإمبراطورية ولعل أبرز مظاهر هذه المرحلة هو كثرة التعيينات للولاة لفترات قصيرة ومحدودة وغير مقيدة بتعليمات سياسية إصلاحية، فضلا عن تعيين ولاة تنقصهم الخبرة والدراية بأساليب الحكم والإدارة فى المنطقة، إضافة إلى الاستعانة ببعض القبائل لمواجهة البعض الآخر، مما عمق الفرقة وضاعف المشاكل[1] ودفع الأهالى إلى القيام بثورات واضطرابات ضد الحكم بل والاعتداء فى بعض الأحيان على القوات الحكومية كما أظهر الأهالى عزوفهم عن الحكم العثمانى وذلك بدعوتهم للإمام عبد الله بن فيصل بن تركى إلى المنطقة.

ومن الملامح البارزة للحكم فى تلك الفترة أنه أوكل إلى الأهالى بعض الوظائف الرسمية وذلك لكسب الود وتكوين الولاء للدولة وتأتى الضرائب وكثرتها كملمح أخير متميز من ملامح هذه الفترة حيث بلغ عدد الضرائب إلى أكثر من ثمانين ضريبة وذلك لتتمكن الحكومة من حفظ الاتفاق مع الولاة الأمر الذى لم يطق الأهالى تحمله وواجهوه بالإضراب عن الدفع احتجاجا على كثرة الضرائب وزيادتها وتكرارها[2].

وهناك مظهرا آخر من مظاهر تأثر الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالمتغيرات السياسية فى المنطقة نلمسه فى شيوع استخدام أكثر من نوع من النقود فى المنطقة، حيث التعامل بالنقود لا عثمانية مقتصرا على التعامل الرسمى فقط، أما التعامل فيما بين الأهالى فكان يتم بعملات أخرى كما شاع التعامل بنظام المقايضة خاصة بين البدو وعلى الرغم من أن الدولة لم تطبق نظام الأراضى فى المنطقة، فإنها استطاعت أن تحقق زيادة فى الموارد الاقتصادية عن طريق تشجيع الزراعة وزيادة الموارد المحلية الزراعية، إلى الدرجة التى حققت فيها المنطقة اكتفاء ذاتيا فى الموارد الزراعية فى المرحلة الأولى من مرحلتى الحكم العثمانى سالفتى الذكر وقد ظلت المنطقة تستخدم عددا من الأساليب التقليدية فى تعاملها التجارى، وذلك طبقا لنظام المقايضة المنتشر قبل تواجد العثمانيين فى الأحساء.

ولسنا فى حاجة بعد هذا الطرح إلى إعادة التأكيد على أن التواجد العثمانى فى الأحساء جاء مخيبا لطموحات الأهالى التى كانت تأمل فى أن يأتى معه بالأمن والاستقرار المفتقدين

(١) عبد العزيز الشعيل: المرجع السابق، ص١٥٥.

(٢) نفسه: ص١٦٥.

بل إن التواجد العثماني في الأحساء لم يحقق طموحات وأهداف أنفسهم كما تبين لنا من العرض السابق بذلك.

جذور العلاقات بين العثمانيين وأقطار الخليج العربية:

لم تكن الاتصالات السعودية العثمانية في عهد الملك عبدالعزيز آل سعود هي الأولى في تاريخ الدولة السعودية، وإنما جرت اتصالات، وقامت علاقات سلمية وأخرى حربية في عهد الدولتين السعوديتين: الأولى والثانية. وظلت طبيعة هذه العلاقة قائمة على مبدأ عدم الانسجام والتوافق والمصالحة، وظل قوامها الشك وعدم التقابل، ممّا ساهم إلى حد كبير في قيام حروب مريرة بين الطرفين، تمثلت في حروب الدولة العثمانية مع كل من الدولة السعودية الأولى والدولة السعودية الثانية والدولة السعودية الحديثة.

وليس غريبًا أن يقوى موقف الدولة العثمانية في الجزيرة العربية من خلال سيطرة آل رشيد على نجد في أواخر عهد الدولة السعودية الثانية، وبعد سقوطها عام ١٣٠٩هـ/١٨٩١م؛ لأن آل رشيد ظلوا على ولاء للدولة العثمانية حتى هزيمتها في الحرب العالمية الأولى. وبالمقابل ظلت الدولة العثمانية تؤيد آل رشيد وتدعمهم بالسلاح والقوات النظامية والأموال، وظلت تمنحهم المناصب العليا وترفع من شأنهم.

ولا أحد ينكر أن الدولة العثمانية أصيبت بخيبة أمل ومرارة وضعف من جراء انحسار تأثيرها على شيخ الكويت بعد أن أصبحت الكويت تحت الحماية البريطانية عام ١٣١٨هـ/١٨٩٩م، مما أفقد الدولة العثمانية مراقبة آل سعود المقيمين في الكويت من جهة، وضعف مركزها الإستراتيجي في الخليج من جهة أخرى. ولا يغيب عن بالنا الخطة الإستراتيجية البريطانية المنظمة في إحكام القبضة البريطانية على ساحل الخليج العربي والأجزاء الجنوبية والجنوبية الغربية من الجزيرة العربية، وقد سبب هذا المخطط البريطاني حرجًا للنفوذ العثماني في المنطقة، وكان سببًا في ضعف قبضة الدولة العثمانية على سنجق الأحساء، لانقطاع صلة الربط بين هذا السنجق وولاية البصرة العثمانية من جراء انسلاخ الكويت من المنظومة السياسية العثمانية وتأثيرها.

وعلى الرغم من حرج موقف الدولة العثمانية في الجزء الشرقي من الجزيرة العربية، إلا أنها ظلت مطمئنة على الأوضاع في نجد خاصة بعد تزايد قوة آل رشيد فيها، وولائهم المطلق لها. واعتمادًا على مبدأ ولاء آل رشيد للدولة العثمانية ظلت الدولة العثمانية تعد وجودها المؤثر في نجد قائمًا من خلال الوجود السياسي لآل رشيد، وهو ما جعل العثمانيون يحاولون تركيز

نفوذهـم في سـاحل الخليج، وخاصة في الأحسـاء وقطر، تاركين شـؤون الداخـل لإدارة آل رشـيد، موفرين على أنفسـهم عناء جهد عسكري شـاق وطويل ومجرب، وعناء وجود إداري مكلف ومرير. وقد أيد العثمانيون آل رشيد لكونهم قوة حديثة معادية لآل سعود.

الاتصالات السعودية العثمانية قبل استرداد الملك عبدالعزيز الأحساء:

نشـطت الاتصالات السـعودية العثمانية في مطلع القرن العشرين الميلادي بعد أن استرد الملك عبدالعزيز آل سـعود الرياض عام ١٣١٩هـ/١٩٠٢م، وبعد إخراج آل رشـيد من منطقة العـارض والمناطق الجنوبية من نجد. فقد تبنى الملك عبدالعزيز وقتذاك موقفًا تجاه الدولة العثمانيـة اتسـم بأسـلوب الموازنة، فهو يركـز تمامًا على مبدأ الاسـتقلال التام لكنه في الوقت نفسـه مازال في بداية الطريق بالنسـبة لمشروعه الكبير الرامي إلى توحيد المناطق التي كانت أصلاً تابعة للدولتين السعوديتين المتعاقبتين الأولى والثانية. كما أنه ظل يقدر مدى نفوذ الدولة وطاقاتها في الولايات العثمانية المحيطة، ولهذا حاول في البداية أن تكون صلتـه بالدولـة العثمانية واتصالاته معها قائمة على أسـاس يجمع بين الولاء الرمزي لها وبين المطلـب الاسـتقلالي الذي يعمل من أجله. وكان غرض الملك عبـد العزيز آنذاك هو تقليل الضغـط العثماني عليـه من خلال محاولة تحييد الموقف العثماني فـي نزاعه الحاد وحروبه المريرة مع آل رشيد.

والواقع أن الملك عبدالعزيز آل سـعود لم يكن وقتها في موقف يسـمح له بمعاداة الدولة العثمانية بشـكل علني وصريح لأن موقفه السياسـي والحربي مـا زالا في بدايتهما وخاصة بعد وقعة البكيرية عام ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م، التي اشترك فيها جيش عثماني قوامه أحد عشر طابورًا يحارب إلى جانب آل رشيد الملك عبدالعزيز آل سعود، بالإضافة إلى الدعم العثماني المادي والمعنوي لآل رشيد بهدف القضاء على القوة السعودية الحديثة والنشطة.

وقد بان الموقف العثماني من الملك عبدالعزيز آل سعود بعد وقعة البكيرية من خلال ما ورد في رسـالة الأميرالاي حسن شكري أميرالاي الجيش العثماني الذي وصل إلى القصيم لمسـاعدة الأمير الرشـيدي عبدالعزيز بن متعب آل رشـيد بعد انتهاء وقعـة البكيرية، جاء فيهـا: "... أن الخليفـة الأعظم بلغه اضطراب الفتنـة في بلاد نجد، وأن يدًا أجنبية محركة لهـا... فأنـا أنـذرك إذا لـم تأتنا وتبين الأسـباب التي حملتـك على إضرام هـذه الفتنة بدون مراجعة أي ولاية من ولايات الدولة، واقتصارك على مراجعة صاحب الكويت، وأخذ المدد منه، وأنت تعلم علم اليقين أنه خارج عن طاعة الدولة، وما كان منك الالتئام معه... فها أنا مقيم بأطرافكم إما أن تقدموا إليّ وإما أن تستقدموني وتعرضوا عليّ ما عندكم لأنظر فيه

مع أمراء عساكري، وأسير في الحكم طبق إرادة مولانا الخليفة... فإياكم والمخالفة... وأعطيك مدة عشرة أيام تشاور بها القريب والبعيد، وتختار لنفسك ما يصلح لها.

وجاء جواب الملك عبدالعزيز عن رسالة الأميرالاي حسن شكري قويًا جدًا، فيقول: "... أما قولك إن أمير المؤمنين بلغه خبر أمر هذه الفتنة في البلاد العربية وما هان عليه إلا إصلاحها، فسبحان الله! هل تخفى عليه حقيقة الأحوال؟ إنه هو المضرم لها، وهي غاية مقاصده. وما الحامل لمبارك الصباح على التحيز إلى دولة أجنبية إلا سوء أفعال محسن باشا والي البصرة، فهو الذي نفره وأضرم هذه الفتنة، ولذلك لم تبق لي ثقة بوال أو مبعوث تركي. وإنني مختار لنفسي ما اختاره مبارك الصباح، والأحسن رجوعك من هذا المكان... وأما قولك إن الخليفة المعظم بعثك لتنظر الخلاف بيني وبين آل رشيد، فليس إلا لأنكم تريدون غدر إمارتي. ولو كان الأمر كما زعمت لكنت نظرت في بادئ الأمر لمن تكون بلاد نجد، ولمن كان الأمر عليها من قديم، ومتى كان ابن رشيد أميرًا فيها، وكيف دخل هذه الإمارة؟ وأحواله لا تخفى عليكم، وليس له حق في المنازعة.

ويبين الملك عبدالعزيز في رسالته الجوابية إلى الأميرالاي حسن شكري أنه لا يثق بالدولة العثمانية، ويحمل ولاتها مسؤولية خروج الكثير من الجهات والولايات العربية عن الدولة العثمانية، فيقول في رسالته: "... وأما الآن فلا نقبل لكم نصيحة، ولا نعترف لكم بسيادة، والأحسن أنك ترجع من هذا المكان إذا كنت لا تود سفك الدماء... فلا شك أننا نعاملك معاملة المعتدين علينا... وأن سبب عدم طاعتي هو عدم ثقتي بكم. انظر إلى ولاية البصرة كيف فرطت في الكويت؟ وإلى والي اليمن كيف سلوكه في اليمن فإنه أضرم فيها الفتنة، وانظر إلى الحجاز وأهله التعساء وما يلاقونه هم وحجاج بيت الله الحرام من السلب والنهب...". ويخلص الملك عبدالعزيز إلى القول: "... إن كل العمال الذين رأينا، إنهم خائنون منافقون. فلا طاعة لكم علينا، بل نراكم كسائر الدول الأجنبية".

وبناءً على مبدأ عدم استقرار الوضع العسكري في القصيم وتأرجحه، فإنه لا يستبعد أن يهتم الملك عبدالعزيز آل سعود بفكرة التقارب مع الدولة العثمانية لتكون خطوة مرحلية من مراحل الحل الشامل للتدخل العثماني في شؤون نجد. كما أن الإمام عبدالرحمن بن فيصل آل سعود، والد الملك عبدالعزيز كان يرى ضرورة الاتصال بالدولة العثمانية ومراسلتها لتكون خطة سياسية الهدف منها إشغال الدولة العثمانية بالمفاوضات، وإقناعها بأن آل سعود يودون الصلح والتقارب معها، مما يخفف ضغطها على الجانب السعودي في حروب القصيم، ومن ثم تضعف قوة آل رشيد ويتهيأ تفوق عسكري لآل سعود عليهم. والواقع

أن الملك عبدالعزيز آل سعود لم تكن لديه خطة لمعاداة الدولة العثمانية في مثل هذه الظروف الصعبة، وظل هذا خيارًا إستراتيجيًا للملك عبدالعزيز ووالده الإمام عبدالرحمن قبل استرداد الأحساء عام ١٣٣١هـ/١٩١٣م.

وحدث عامل قوي مسألة الاتصالات والمفاوضات بين الملك عبدالعزيز والدولة العثمانية، وهو انتصار الملك عبدالعزيز في موقعة الشنانة في القصيم في ١٨ رجب ١٣٢٢هـ/٢٩ سبتمبر ١٩٠٤م، تلك الوقعة التي كانت جوابًا سريعًا لما حدث في وقعة البكيرية. فرأت الدولة العثمانية أن لا فائدة ترجى من حملاتها المتكررة على الملك عبدالعزيز وقواته ومناطقه بالتعاون مع آل رشيد. فحاولت أن تأخذ بأسلوب المفاوضات والاتصالات السلمية بعدما وجدت أن الأسلوب العسكري غير مجدٍ، فقررت إتباع سياسة إقناع الملك عبدالعزيز بالمناصب العثمانية التي تضمن ارتباطه بها، خاصة وأن بوادر الحرب العالمية الأولى قد لاحت في الأفق، والدولة الآن في أمس الحاجة إلى الأعوان والأتباع والمؤيدين، ليتفرغ جيشها لقضايا أكثر اهتمامًا. وهنا تلتقي الرغبتان العثمانية والسعودية على الرغم من أن الملك عبدالعزيز لا يثق بالدولة العثمانية ونواياها، كما أن الدولة العثمانية هي الأخرى لا تثق به.

وفي اعتقادي أن محاولة التقارب هذه تدخل في باب المجاملات السياسية؛ لأن الدولة العثمانية نفسها غير صادقة في نواياها تجاه الملك عبدالعزيز؛ لأنه يطلب الاستقلال التام، وهو أمر لا تقره الدولة. وبالمقابل فإن الملك عبدالعزيز يرى أن عامل الزمن لصالحه من خلال قراءته لأوضاع الدولة العثمانية من جهة، والأوضاع السياسية والعالمية من جهة أخرى، وظل يعتقد أن الدولة العثمانية دولة متهاوية، وأن قوة اتباعها آل رشيد أيضًا في تناقص. كما أن اهتمامها بشؤون نجد يأتي في الدرجة الثانية في جدول المناطق التي تركز الدولة عليها وتهتم بها. وهذه الظروف مجتمعة حدت بالملك عبدالعزيز إلى صياغة قراره السياسي المصيري تجاه الدولة العثمانية.

وبعد موقعة الشنانة جاءت مبادرة المفاوضات من الدولة العثمانية قبل أن تكون من جانب الملك عبدالعزيز، وفي اعتقادي أن الثقل العسكري الذي وضعته الدولة العثمانية في القصيم إلى جانب آل رشيد ضد آل سعود كان من أجل تقوية موقفها في تلك المفاوضات؛ لأنه من الصعب على الدولة العثمانية أن تخوض حروبًا واسعة في أراضي الجزيرة العربية الداخلية، فرأت أن توسط الشيخ مبارك الصباح في مسألة المفاوضات مع الملك عبدالعزيز، فطلبت من الشيخ مبارك أن يبلغ الملك عبدالعزيز أن الدولة العثمانية

تنـوي التفاوض السـلمي مع والـده الإمام عبدالرحمن، على أن يلتقـي الإمام عبدالرحمن مع والي البصرة في بلدة الزبير جنوب العراق. وقد قبل الملك عبدالعزيز الدعوة، وسـافر والده إلى الكويت ومنها إلى الزبير يرافقه الشـيخ مبارك الصباح. واجتمع الإمام عبدالرحمن بن فيصل آل سـعود والشـيخ مبارك الصباح شـيخ الكويت مع أحد المسـؤولين العثمانيين في سفوان، جنوب العراق عام ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م لمناقشة عدد من المسائل المعلقة بين الطرفين. وقد تمخضت المحادثات عن اعتراف الدولة بعبدالعزيز آل سعود قائمًا على منطقة العارض والقسـم الجنوبي من نجد، على أن يكون تابعًا لها. واعترفت لابن رشـيد بمنطقة جبل شمر على أن يلزم حدوده فيها، وألا يتدخل في شـؤون عبدالعزيز آل سـعود ومناطقه. وأن تكون منطقـة القصيم منطقة محايدة بين عبدالعزيز آل سـعود وابن رشـيد، ويكـون فيها للدولة العثمانية مركز عسكري ومستشارون عثمانيون.

ويذكـر الريحانـي أن الإمام عبدالرحمن بن فيصل آل سـعود لم يقبـل بهذه الإجراءات، لكنه قبل إكرامًا للشيخ مبارك أن يعرضها على أهل نجد، لكن أهل نجد لم يقبلوا ألبتة أن تكـون منطقـة القصيم على الحيـاد، ولا أن يكون فيها حامية للدولـة العثمانية. وأكد الريحاني ذلك فأورد أن أهالي بريدة وعنيزة وتوابعهما من القرى والبلدان لم يقبلوا بالسيادة العثمانيـة أو بشـبه السـيادة العثمانيـة عليهـم عندما وصل بلادهـم المشـير العثماني أحمد فيضي باشا قادمًا من بغداد ومعه ثلاثة طوابير من الجند العثماني النظامي وخمسة مدافع، وكذلك وصول الفريق صدقي باشـا قادمًا من المدينة بطابورين من الجند العثماني. وعلى أي حال فإن المفاوضات لم تؤد إلى نتيجة، وظلت بعيدة عن القبول والتنفيذ.

أرسـل فيضي باشـا رسـولاً إلى الرياض يخبـر الملـك عبدالعزيز آل سـعود أن الدولة العثمانيـة لا تريـد محاربـة أهل نجد، وأنه جاء مسـالمًا "إنني لا أريد إلا السـلم، ولسـت محققًـا مقاصـد ابن رشـيد". وطلب فيضي باشـا أن يأتي الإمـام عبدالرحمـن إلى عنيزة لمفاوضتـه، فوافـق الملك عبدالعزيز على إجـراء المفاوضات، وفتح باب الاتصالات من جديد مع مسـؤولي الدولة العثمانية. ونلحظ هنا أن الدولة العثمانية هي البادئة في طلب المفاوضـات بعـد الخسـائر الكبيرة التي منيت بهـا في تجربتها العسـكرية في حروب القصيم ضد الملك عبدالعزيز وقواته.

وهـكـذا حدث لقاء سـعودي عثماني جديد بيـن الإمام عبدالرحمن بن فيصل آل سـعود والمشـير العثماني فيضي باشـا في عنيزة، في شـأن إيجاد نوع من المصالحة والتفاهم بين الدولة العثمانية والملك عبدالعزيز آل سـعود من جهة؛ وبين الملك عبدالعزيز وابن رشـيد من

جهـة أخـرى. وكان هدف الدولة العثمانية من وراء ذلك إيجاد نوع من التوازن السياسـي في إسـتراتيجيتها في البلاد النجدية تجاه كل من الملك عبدالعزيز وابن رشـيد ، بقصد ضمان طاعتهمـا للدولـة ، خاصة وأن الدولة العثمانيـة وقتذاك كانت تواجه ثـورة عنيفة في اليمن قادها الإمام يحيى حميد الدين، وظلت الدولة تهتم بأن تبقى نجد مسـتقرة الأوضاع في ظل سيادتها الاسمية على الأقل.

اجتمع الإمام عبدالرحمن مع أحمد فيضي باشا في مدينة عنيزة، وطلب المشير من الإمام أن يكون للدولة العثمانية مركزان عسكريان أحدهما في بريدة والثاني في عنيزة، إجراءً مؤقتًـا إلـى أن يتـم التفاهم والصلح بين الطرفين المتقاتلين في نجد، آل سـعود وآل رشـيد. وفـي خضـم هذه الأحداث أمـرت الدولة العثمانية المشـير أحمد فيضـي بالتوجه إلى اليمن لحل مسألتها المستعصية. وناب عنه صدقي باشا الذي اتبع أسلوب سياسة لا حرب ولا سلم ولا مفاوضـات. وظـل أمر نجد على حاله ممّا أزعج الدولة العثمانية، فأرسـلت سـامي باشـا الفاروقي إلى نجد، وعزلت صدقي باشا. فأرسل سامي باشا الفاروقي إلى الملك عبدالعزيز يطلـب مقابلتـه في البكيريـة، فقابله الملك، ولـم يتوصل الطرفان إلى تفاهـم، بل تنافرا. وزادت حدة المواجهة عندما قال الفاروقي لعبدالعزيز آل سعود: "إن أهل القصيم يريدون أن تكون السيادة في بلادهم للدولة". فأجابه عبدالعزيز آل سعود: "ليس لأهل القصيم رأي في الأمر، فهم من أتباعي". فأجابه الفاروقي قائلاً: "التابعية تقتضي الحماية، وأنت لا تستطيع أن تحميهم، ولا ابن رشـيد يسـتطيع ذلك". فرد عبدالعزيز آل سعود: "هل حمتهم الدولة؟ ومع ذلك فها زعماء القصيم في مجلسـك، اسـألهم يجيبوك. وتكلم أحد زعماء القصيم قائلاً: "إن صالح الحسـن افترى عليهم (على أهل القصيم)، وأنه لا يمثلهم بشـيء، وأنهم لا يرضون عن ابن سـعود بديلاً". وقد لجأ الفاروقي إلى أسـلوب التهديد والوعيد قائلاً: "إنكم يا أهل القصيم تجهلون صالحكم وتتوهمون حقوقًا ليسـت حقوقكم... ما جئنا نسترضيكم ولا نسـتغويكم. جئنـا نعلمكـم الإخلاص والطاعة للدولـة العلية. ولا معلم اليوم غير السـيف". فتكلـم الملـك عبدالعزيـز قائلاً: "إني آسـف على ما بدا منك، بل آسـف؛ لأن الدولة تكل أمورها إلى أمثالك. ما كان العرب يا سـامي ليطيعون صاغرين، لا والله، ولولا أنك ضيف عندنا لما تركناك تقوم من مكانك".

ويبدو أن الفاروقي فهم أن أسلوب القوة والعنف والتهديد لا ينفع، فأرسل رسولاً إلى الملك عبدالعزيـز اسـمه دياب أبو بكر يقول له: "يسـلم عليك الباشـا، ويقـول إن الدولة تدفع لك عشـرين ألف ليرة ومخصصات سـنوية إذا اعترفت بسيادتها علـى القصيـم". فأجـاب الملك

عبدالعزيز آل سعود: "أتتجاسر يا خبيث أن تحمل إلينا مثل هذه الرسالة؟ ألم يردعك شيم العرب؟ ومتى كان ابن سعود يقبل الرشوة، فيبيع بلاده ورعيته لمن يريدون استرقاقها...".

وقد تطورت الأمور إلى الأفضل بالنسبة للملك عبدالعزيز عام ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م، فأخذ يضغط على القوات العثمانية في القصيم ضغطًا نفسيًا، خاصة وأن القوات العثمانية ملت من الحروب والانتظار، وملت من حالة لا حرب ولا سلم، في ظل أجواء مملوءة بالخوف، وعدم الاستقرار، وسوء الأحوال الجغرافية، والبعد عن مراكزهم. فقرر الملك عبدالعزيز أن يتخلص من القيادة العثمانية والجند العثماني وتدخلاته، وقرر أن يضرب ضربته الأخيرة، فأرسل إلى الفاروقي يخبره بأمرين: إما أن يرحل بجيشه خلال خمسة أيام إلى منطقة السّر ليكون بعيدًا عن مراكز قوة ابن رشيد، وإما أن يتولى الملك عبدالعزيز نفسه ترحيل الجيش العثماني، فيعاد من جاء منهم مع المشير أحمد فيضي إلى العراق، الذين جاءوا مع صدقي باشا إلى المدينة، وإلا الحرب. وافق الفاروقي على الأمر الثاني، فأرسل الملك عبدالعزيز الجند العثماني إلى العراق وإلى المدينة كما هي الخطة المرسومة.

ويذكر الريحاني أن السلطان العثماني عبدالحميد الثاني شكر للملك عبدالعزيز معاملته الطيبة للجند العثماني، وسأله إن هو يرغب في إرسال أحد رجاله لمقابلته، فلبى الملك عبدالعزيز الدعوة، وأرسل صالح العذل ومعه اثنين آخرين إلى الآستانة، فنزلوا ضيوفًا على الحضرة الشاهانية، ومنحوا الألقاب والنياشين.

ونتوصل إلى قناعة تامة أن المفاوضات والاتصالات السعودية العثمانية في حقبة ما قبل استرداد الأحساء، كانت قد اتسمت بالآتي:

١ - لم تكن المحادثات بين الطرفين جادة، بل هي محادثات واتصالات يغلب عليها مبدأ رفع العتب.

٢ - لم يكن الطرفان المتحادثان يتوقعان نتائج ترضيهما، فالدولة العثمانية تريد طاعة الملك عبدالعزيز وبلاده لها. وبالمقابل كان الملك عبدالعزيز آل سعود يخطط لإنجاز مشروع عريض يرمي إلى توحيد مناطق الجزيرة العربية التي كانت تابعة لحكم أجداده، وبشكل مستقل استقلالاً تامًا.

٣ - لم يكن الملك عبدالعزيز مقتنعًا من حياد الدولة العثمانية في نزاعه مع آل رشيد، وهو أمر يشككه في موقفها تجاهه.

٤ - ظلت الدولة العثمانية وكذلك الملك عبدالعزيز يريان في اتصالاتهما ومحادثاتهما وسيلة

مؤقتة أشبه بهدنة بين الطرفين، لا بد من انفجار الموقف بينهما برمته مع الزمن.

٥ - كان الملك عبدالعزيز يعرف مدى ضعف الدولة العثمانية في الجزيرة العربية، حتى إن تأثيرها أخذ يضعف في المنطقة، وبخاصة في المناطق الشرقية من الجزيرة العربية تحت تأثير الضغط السعودي من جهة، وتدخلات بريطانيا وموقفها المؤثر من جهة أخرى.

٦ - يغلب على المحادثات والمفاوضات بين الطرفين أنها اتسمت بطابع الند للند، لا وسيط مباشر بينهما.

الاتصالات السعودية العثمانية بعد استعادة الأحساء:

تميزت مرحلة الاتصالات والمفاوضات السعودية العثمانية بعد استعادة الأحساء عام ١٣٣١هـ/١٩١٣م عن المرحلة التي سبقتها، بأن الاتصالات السعودية العثمانية في هذه المرحلة كانت استجابة لرغبة الدولة العثمانية الملحة في جعل الباب مفتوحًا بينها وبين الملك عبدالعزيز آل سعود، في ظل فقدانها منطقتين مهمتين من الجزيرة العربية هما: نجد وسنجق الأحساء، الذي يتمتع بمركز إستراتيجي سياسي واقتصادي. فهي الآن تفتح باب المفاوضات وقواتها مهزومة عسكريًا أمام القوة السعودية الناشئة، على حين كانت الدولة العثمانية تفاوض في المرحلة السابقة وهي قوية نسبيًا، ولها قوات نظامية في منطقة القصيم، وتناصرها قوة آل رشيد.

وقد تميزت هذه المرحلة من الاتصالات والمفاوضات، بأن قوة الملك عبدالعزيز أصبحت أقوى بكثير مما كانت عليه في مرحلة المفاوضات السابقة. فهو الآن يمد نفوذه على مناطق واسعة، منها منطقة الأحساء التي قوت مركزه السياسي بفضل إطلالها على الخليج، فأصبح للملك عبدالعزيز قوة مؤثرة في الساحل الشرقي للجزيرة العربية يحسب حسابها في مسألة التوازن السياسي في الساحل، بالإضافة إلى العامل الاقتصادي الفاعل في تقوية الدولة السعودية الحديثة النامية والمتطورة.

وتميزت هذه المرحلة كذلك بأن الاتصالات والمفاوضات السعودية العثمانية لم تبق محصورة في نطاق الطرفين السعودي والعثماني، وإنما لعبت قوى سياسية أخرى دورًا في هذه الاتصالات، وتأتي بريطانيا على رأس ذلك، بالإضافة إلى شيخ الكويت وشيخ المحمرة والسيد طالب النقيب، وقد شكل هؤلاء حلقة وصل رئيسة في تلك الاتصالات، وما دار من مفاوضات بين الطرفين الرئيسين السعودي والعثماني. وكان لهذه التدخلات

أهميتها وتأثيرها على سير المفاوضات ونتائجها. كما تميزت هذه المرحلة بأنها جاءت في وقت أصبحت فيه الحرب العالمية الأولى وشيكة الوقوع، وأن بوادرها تلوح في الأفق السياسي. وأن مركز الدولة العثمانية قد ضعف في المنطقة العربية وخاصة في العراق، من خلال جهود بريطانيا الرامية إلى تقليص النفوذ العثمانية في المنطقة العربية، خاصة وأن الدولة العثمانية اتجهت صوب ألمانيا أهم دول المحور المعادية لبريطانيا والحلفاء.

ولا أحد ينكر أن مركز الدولة العثمانية في سنجق الأحساء كان قد ضعف كثيرًا من جراء ظهور القوة السعودية الحديثة، وتطور نفوذها في وسط الجزيرة العربية. فتشير الوثائق العثمانية إلى حالة الفوضى والاضطراب التي سادت السنجق من جراء تمادي الموظفين العثمانيين المتأخرين في زيادة الضرائب غير المشروعة على الأهالي في السنجق، ومن جراء سوء الإدارة العثمانية والخلافات التي دبت في صفوف المسؤولين رأس الإدارة في السنجق، مما أدى إلى تململ السكان وتحركهم ضد السيادة العثمانية، واتصال بعضهم بالملك عبدالعزيز آل سعود لتخليصهم من الحكم العثماني، مما ساعد على تقوية مركز الملك عبدالعزيز، ومن ثم ساعد على نجاحه في طرد القوات العثمانية من المنطقة برمتها دون عناء، وبأقل تكلفة.

الوساطة البريطانية:

حاولت بريطانيا جس نبض كل من الدولة العثمانية والملك عبد العزيز آل سعود بخصوص مسألة إقامة مصالحة، ومن ثم عقد صلح بينهما. وقد أسندت الدولة البريطانية إلى موظفها السير برسي كوكس القيام بمهمة فتح الباب "وليعطي الدولة البريطانية فكرة ما عن الخطوة التي ستكون الحكومة التركية ميالة إلى اتباعها إذا رغبت في مصالحة مع ابن سعود إذا ما طلب الأخير مساعينا الحميدة أو رحب بها".

ويتبادر إلى الذهن سؤال لماذا تقوم بريطانيا بدور الوساطة هذه؟ والجواب عنه، أن بريطانيا والدولة العثمانية تسيران باتجاه طريق التفاهم بينهما بخصوص المسألة الخليجية، وخاصة مسألة الحدود، وقد تمثل هذا الاتجاه بتوقيع الاتفاقية الإنجليزية التركية عام ١٣٣١هـ/٢٩ يوليو ١٩١٣م. ومن جهة أخرى فإن بريطانيا والدولة العثمانية حريصتان كل الحرص في هذا الوقت بالذات على تطبيق مبدأ الوضع الراهن، خاصة وأن بريطانيا ترى في هذا المبدأ فائدة كبيرة لها؛ لأنها تحافظ على قاعدة التوازن الإستراتيجي في الخليج، ولهذا فهي تحاول جاهدة على بقاء الوضع الراهن على حاله؛ حتى لا يحدث خلل في سياسة التوازن هذه، وهي من ثم لا ترغب أن تقوم الدولة العثمانية بهجوم بحري على قوات الملك

عبدالعزيز آل سعود في الأحساء؛ لأن هذا في تقديرها يخل بسياستها الخليجية.

وبالمقابل أخذت بريطانيا تشجع الملك عبدالعزيز على فتح باب المفاوضات مع الدولة العثمانية حتى لا يتخلخل مبدأ الوضع الراهن. وكان الملك عبدالعزيز آل سعود يرى أن فتح باب الاتصالات والمفاوضات مع الدولة العثمانية فرصة له لإبقاء الأمور على حالها ، وهو الآن يتمتع بمركز خليجي عال ، ويكون بذلك قد أوقف خطة الدولة العثمانية الرامية إلى استرجاع الأحساء عن طريق هجوم بحري كبير ومركز قد يؤثر على مركزه العسكري والسياسي. فرأى أن من المفيد دبلماسيًا أن يقبل بالوساطة البريطانية في ظل المحافظة على الوضع الراهن ، وهو أمر يخدم مصالحه ومواقفه السياسية والإستراتيجية.

وقد نالت مسألة الوساطة البريطانية في موضوع المصالحة بين الدولة العثمانية والملك عبدالعزيز آل سعود قبول الدولة العثمانية ورضاها معربة عن "شكر الباب العالي للعرض الودي من جانب حكومة صاحب الجلالة بهذا الشأن". وقد بين الباب العالي أنه يجري اتصالات ومفاوضات مع الملك عبدالعزيز آل سعود "وأنه إذا دعت الضرورة إلى اللجوء إلى المساعي الحميدة لحكومة صاحب الجلالة فإن الباب العالي لن يتأخر في التماسها".

وكان التوسط البريطاني يقوم على أساس تشجيع الطرفين على إيجاد تسوية مرضية بينهما. وتشير الوثائق البريطانية أن بريطانيا لا تشجع أي منفعة سياسية ضد الدولة العثمانية ، وأن كل ما تريده بريطانيا هو الحيلولة دون حدوث اضطرابات وسفك دماء ؛ لأن هذا يؤثر بصورة خطيرة على السلام في منطقة الساحل العربي الخليجي ، ويخل بسياسة الوضع الراهن ، وسياسة التوازن التي تنشدها بريطانيا في منطقة الخليج التي تتمتع بنفوذ كبير فيها. وترى الحكومة البريطانية أنه إذا أقدمت الدولة العثمانية على عمل عسكري ضد الملك عبدالعزيز في منطقة الأحساء فستقع قلاقل واسعة في مناطق شرقي الجزيرة العربية ، ومن ثم هذا يؤثر على مركزها في تلك المنطقة. وقدمت الاستخبارات العسكرية البريطانية معلومات تفيد أن لنشات ذات محركات قد شُحِنت إلى البصرة. وأن المقيم السياسي في الكويت قد أُبلغ أن قوات عثمانية عددها ٨٠٠ جندي وصلت إلى البصرة لتوها على ظهر الباخرة "ساراتوف"..

أطراف أخرى في الوساطة:

رأت بريطانيا أن تشرك في الوساطة بين الدولة العثمانية والملك عبدالعزيز آل سعود من أجل تسوية ودية بينهما كلاً من الشيخ خزعل شيخ المحمرة ، والشيخ مبارك

الصباح شيخ الكويت والسيد طالب النقيب، نقيب البصرة. ووافق جميعهم على الطلب البريطاني. وكان السيد طالب النقيب من أنشطهم في هذا المجال، وكان له أثر بارز في الوساطة، وله مكانة مرموقة لدى المسؤولين العثمانيين في ولاية البصرة، وكان المسؤولون البريطانيون يقدرون مكانته، ويحترمون شخصيته.

وتشير الوثائق البريطانية أن الملك عبدالعزيز قدر للسيد طالب النقيب في نهاية الأمر وساطته هذه، فكافأه على هذا الموقف بأن قدم له مبلغًا قدره عشرون ألف روبية تثمينًا لوساطته وتقديرًا لجهده. وكان المسؤولون العثمانيون ممثلين في ولاية البصرة مهتمين بأمر الوساطة والتسوية السلمية مع الملك عبدالعزيز آل سعود، فذكر طلعت باشا ناظر الداخلية أن الدولة العثمانية مهتمة بإيجاد تسوية ودية مع الملك عبدالعزيز آل سعود، وأن والي البصرة يرتب هذا الأمر مع شيخي الكويت والمحمرة وكذلك مع السيد طالب النقيب ليقوموا بدور الوساطة في المساعدة في التوصل إلى صلح وسلام مع الملك عبدالعزيز آل سعود.

وأكد طالب النقيب على قبوله لتلك المهمة التي أسندت إليه، فيقول: "إنه والشيخ مبارك شيخ الكويت يسعيان إلى إيجاد نوع من التسوية بين الدولة العثمانية والملك عبدالعزيز آل سعود الذي يريد نوعًا من الزعامة المستقلة، لكنه يرفض وجود قوات عثمانية في بلاده، ومن المتوقع التوصل إلى حل سلمي". وتشير الوثائق البريطانية إلى أن ناظر الحربية العثمانية أنور باشا أرسل هدايا إلى كل من الملك عبدالعزيز آل سعود والشيخ مبارك الصباح شيخ الكويت، لتكون دلالة واضحة على رغبة الدولة الأكيدة في معالجة الموقف بطرق سلمية وودية قدر الاستطاعة.

والواقع الماثل أمام الملك عبدالعزيز أن الدولة العثمانية عازمة على الصلح معه مهما كان الثمن، وهي في الوقت نفسه لم تعر أي أهتمام متزايد في سبيل استرجاع منطقة الأحساء إلى سيادتها الحقيقية، كما كان الحال عليه قبل أن يستعيدها الملك عبدالعزيز، وهو أمر شجع كثيرًا الملك عبدالعزيز آل سعود في السير على النهج السلمي والودي تجاه الدولة العثمانية ممثلة بوالي البصرة، عادًا الاتصالات والمفاوضات مع الدولة العثمانية إنما هي إجراءات عادية، وأن الوقت لصالحه. ومع أن الملك عبدالعزيز يريد التفاوض والحل السلمي مع الدولة العثمانية، إلا أنه في الوقت نفسه ظل مقتنعًا بقدرته على الاحتفاظ بمنطقة الأحساء تحت سيادته.

وبالمقابل كانت بريطانيا ترى في الدولة العثمانية بعد أن توصلت معها إلى اتفاقية بشأن الخليج عام ١٣٣١هـ/٢٩ يوليو ١٩١٣م، أو ما تعرف بالاتفاقية الإنجليزية التركية، وسيلة

ممتازة لمنع الدول الغربية من التدخل في شؤون الشرق، وهذا يؤمن منطقة الهند البريطانية من التدخل الغربي، ولهذا فإن بريطانيا ستكسب كثيرًا من جراء علاقاتها الودية مع الدولة العثمانية. ويمكن الأخذ بهذه الإستراتيجية البريطانية في الوقت الراهن، حيث إن الوضع العالمي متأزم، وأن كلا من الدولتين البريطانية والعثمانية مشغولتان بقضايا عالمية أكثر اهتمامًا وأشد إلحاحًا من قضايا فُرغ من تسويتها بين الدولتين.

وتأسيسًا على الإستراتيجية البريطانية القائمة في الشرق على نظرية المحافظة على المواصلات الإمبراطورية، فإن بريطانيا ترى أن من واجبها القيام بكل مجهود لتجنب أية أعمال قد تؤدي إلى تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية في آسيا، وعلى بريطانيا أن تعمل بكل طاقاتها للمحافظة على الوضع الراهن بالنسبة للدولة العثمانية.

وتفيد الوثائق البريطانية أن السيد محمد عارف بن يوسف مارديني والي البصرة العثماني السابق ووالي سورية آنذاك، كان على اتصال بالشيخ مبارك الصباح، وهو يعرف عائلته حق المعرفة، وقد أدى هذا إلى قيام علاقة وطيدة بين الشيخ مبارك والبكباشي العثماني عمر فوزي بن محمد عارف. وجرت محادثات في الكويت بين الشيخ مبارك والسيد عمر فوزي مارديني بشأن التوسط في مفاوضات السلام بين العثمانيين والملك عبدالعزيز آل سعود. وكانت ولاية البصرة قد انتدبت البكباشي عمر فوزي لإجراء اتصالات مع الملك عبدالعزيز عن طريق الشيخ مبارك. وتشير الوثائق البريطانية إلى أن الشيخ مبارك وقتذاك لم يكن متحمسًا للوساطة التي يطلبها منه العثمانيون، "ولا يرى أن يساعد أيًا من الطرفين، ويرفض أن يساق إلى تلك القضية أو يعطي أية نصيحة، مع أنه يتعاطف مع الطرفين في رغبتهما في تجنب سفك الدماء أو كل ما من شأنه أن يخلف العداوة بين المسلمين، وعليه أن يبقى مخلصًا لصداقته لابن سعود".

وكان أنور باشا ناظر الحربية العثمانية قد كلف السيد محمد عارف بن يوسف ماريديني والي البصرة بإرسال ابنه البكباشي عمر فوزي إلى الشيخ مبارك الصباح لكي يمكنه بوسائله الخاصة وتوصياته من الاتصال بالملك عبدالعزيز آل سعود. وتطلب رسالة محمد عارف الموجهة إلى الشيخ مبارك أن يعطي ابنه رسالة توصية إلى الملك عبدالعزيز آل سعود "وعليه نأمل أن تزود ابننا بنصيحتكم، وتعطوه رسالة إلى عبدالعزيز بن سعود، ذاكرًا لكم أن عمر فوزي ابني، وممثل الوزير أنور باشا، وإليه يرجع في بحث كافة المسائل المتعلقة بهذه المناطق (نجد)، وكذلك فالاجتماع معه هو كالاجتماع معي، والوثوق به كالوثوق بالحكومة وبالوزير أنور باشا، وسوف تكسبون مكافأة طيبة في المستقبل

على هذا العمل، وكذلك الثناء الشامل ورضاء السلطان".

ويشير عمر فوزي مارديني في رسالة وجهها إلى الشيخ مبارك أن مهمته الأساس هي مقابلة عبدالعزيز آل سعود، والبحث معه بشكل ودي الإجراءات والترتيبات اللازمة لإنهاء الصعوبات الراهنة بين الدولة العثمانية وعبدالعزيز آل سعود. ويطلب عمر فوزي من الشيخ مبارك أن يخبر عبدالعزيز آل سعود بأن يتوجه إلى مكان مناسب قريب من الكويت، لكي يجتمع به البكباشي عمر فوزي. ويرى عمر فوزي أن يكون المكان قريبًا من الكويت حتى يتمكن من الاتصال تلغرافيًا بأنور باشا ناظر الحربية العثمانية.

ولما عرفت بريطانيا أن العثمانيين يقومون بمبادرات تجاه الملك عبدالعزيز آل سعود عن طريق مبارك الصباح شيخ الكويت والشيخ خزعل شيخ المحمرة، قررت الاتصال بالملك عبدالعزيز وإبلاغه بأنها سعت لدى الباب العالي أن يقوم بمبادرات سلمية ودية تجاهه، وهو الآن حُر في التفاوض المباشر مع العثمانيين. وقد عللت بريطانيا ذلك حتى تأخذ الحكومة العثمانية انطباعًا أن الحكومة البريطانية يهمها أن تبدأ المفاوضات بين الطرفين بصورة مباشرة، وتريد أيضًا أن لا يدخل في ذهن الدولة العثمانية أن بريطانيا ترغب في الاطلاع على شروط الصلح، وأن يكون لها رأي فيه، وإنما تفضل أن تبقى الأمور بين الطرفين المتفاوضين. وأعتقد أن بريطانيا تقصد من وراء ذلك أن يتجنب كل من الدولة العثمانية والملك عبدالعزيز آل سعود الوساطة التي يمارسها كل من الشيخ مبارك الصباح والشيخ خزعل وتأثيرهما في هذا المجال.

وقد حدث اتصال عن طريق الرسائل بين الملك عبدالعزيز آل سعود والوسيط السيد طالب النقيب، فبين الملك للنقيب أنه يرجو كل الخير للدولة العثمانية المسلمة، ويرجوه كذلك أن يقدم تحياته وتمنياته لأنور باشا ناظر الحربية العثمانية الذي كلف البكباشي عمر فوزي مارديني بالاتصال به من أجل إقامة علاقات ودية، وعلى الهدية التي أرسلها إليه وهي القرآن الكريم. ويقدم الملك تحياته للبكباشي عمر فوزي، وصداقته واحترامه إلى جميع المسؤولين العثمانيين. كما أنه قبل هدية أنور باشا بكل احترام وسرور، وأن غايته هي وحدة الإسلام، وجمع شمل القلوب المتفرقة من أبنائه. وفي رسالة الملك عبارات المجاملة للباب العالي كولائه للدولة العثمانية ورجائه الخير لها ولبلادها، لكنه أشار في رسالته إلى وجود أمور لا يستطيع أن يقوم بها تجاه الدولة العثمانية. ويقصد بذلك مطالبها التي تتركز على تبعيته للدولة العثمانية، وأن يكون لها جند عثماني في بلاده دلالة على الولاء والطاعة.

وهكذا فإن الدولة العثمانية وكذا الدولة البريطانية وسطتا كلاً من الشيخ مبارك والشيخ خزعل والسيد طالب النقيب لبذل جهودهما في مسألة التوسط واتخاذ الترتيبات اللازمة لإيجاد حل سلمي ترضى به الدولة العثمانية، ويرضى به الملك عبدالعزيز، كما أن الواضح من موقف الدولة العثمانية أنها لا ترغب إطلاقًا في استعمال القوة العسكرية العثمانية ضد الملك عبدالعزيز، مقتنعة أن الحل في النهاية سيكون حلاً سلميًا ووديًا. كما أن السيد طالب النقيب بحكم صلته القوية مع العثمانيين يتوقع أن يكون الحل في النهاية حلاً سلميًا، على الرغم من أن الملك عبدالعزيز يشترط في المقام الأول أن يكون حاكمًا مستقلاً، ويرفض قبول قوات عثمانية في بلاده.

الاتصالات السعودية العثمانية لتحديد مكان الاجتماع:

جاءت المبادرة من الدولة العثمانية يوم أن وافق أنور باشا ناظر الحربية العثمانية على اقتراح قدم من السيد طالب النقيب بشأن قيام الدولة العثمانية بفتح باب الاتصالات والمفاوضات السلمية والودية مع الملك عبدالعزيز آل سعود، فقبل أنور باشا اقتراح السيد طالب النقيب، وفوض السيد البكباشي عمر فوزي مارديني أحد مرافقي السلطان محمد رشاد بإجراء المفاوضات، كما أمره بالتوجه إلى البصرة، وأرسل معه رسالة إلى واليها - وكان وقتها سليمان شفيق كمالي باشا - تتضمن توجيه مسألة الأحساء إليه للبت في أمرها سريعًا، ولتفادي الإطالة من جراء المراسلات مع الآستانة مما يتطلب وقتًا طويلاً في الأخذ والرد. وقد زار عمر فوزي مارديني الشيخ مبارك الصباح في الكويت بأمر من والي البصرة، وبين له ما تنوي الدولة العثمانية عمله تجاه مسألة الاتصالات والمفاوضات مع الملك عبدالعزيز آل سعود من أجل إيجاد تفاهم معه.

وزيادة في حرص الدولة العثمانية على المفاوضات وإيجاد الحل، رأت أن تفيد من وساطة الشيخ مبارك الصباح بصورة خاصة لعلاقته القوية والحميمة مع الملك عبدالعزيز، وكذلك وساطة الشيخ خزعل شيخ المحمرة. فقررت الدولة العثمانية منح كل منهما وسام العثمانية من الدرجة الأولى مكافأة لهما على قيامهما بالوساطة المطلوبة. ويبدو أن والي البصرة العثماني وبأمر من المسؤولين العثمانيين رأى أن يكون السيد طالب النقيب هو المسؤول عن المفاوضات مع الملك عبدالعزيز؛ لعل ذلك يقرب مسألة التفاهم بين الدولة العثمانية والملك عبدالعزيز. وأصبح بمقدور السيد طالب النقيب ومعه البكباشي عمر فوزي بك ماريني أن يتوجها إلى الكويت ليلتقيا في مكان قريب منها الملك عبدالعزيز آل سعود، وقد وعد الشيخ مبارك السيد النقيب بإعلامه عن موعد وصول الملك عبدالعزيز إلى

الصبيحية التي تبعد عشرين ميلاً إلى الجنوب من الكويت، ويتوقع الشيخ مبارك أن يبقى الملك عبدالعزيز فيها مدة عشرة أيام.

وكانت الدولة العثمانية قد ألحت على شيخ الكويت أن يقدم النصيحة للملك عبدالعزيز بشأن المحادثات والمفاوضات، لكن شيخ الكويت ظل لا يريد إقحام نفسه في هذه المسألة، خاصة وأنه الآن بعيدٌ كل البعد عن النفوذ العثماني بعد توقيع معاهدة الحماية مع بريطانيا وظلت علاقته مع الدولة العثمانية ذات طابع يتصف بالمجاملة. فقد أصبح شيخ الكويت محميًا من بريطانيا، وهي التي تدير شؤونه الخارجية.

ومن الواضح أن الملك عبدالعزيز آل سعود استجاب للدعوة العثمانية والوساطة العربية، وقرر التوجه إلى الصبيحية القريبة من الكويت وهي الخطوة الأولى من خطوات الاجتماع بالمسؤولين العثمانيين. وتجدر الإشارة هنا أن السيد طالب النقيب ووفد المحادثات العثماني كانوا في البصرة ينتظرون باخرة الشيخ مبارك لتنقلهم إلى الكويت. وقد وصل الملك عبدالعزيز الصبيحية في ٢٧ أبريل ١٩١٤م. وكان السيد طالب النقيب ومعه الوفد العثماني قد غادروا البصرة بباخرة شيخ الكويت في ٢٨ أبريل ١٩١٤م.

اجتماع الصبيحية ومردوده:

تألف الوفد العثماني من السيد طالب بك النقيب رئيسًا والبكباشي بهاء الدين بك رئيس الأركان في بغداد والبكباشي عمر فوزي بك وسامي أفندي متصرف الأحساء ويرافقه عمر بك ومحام من مدينة البصرة ومحمد النعمة من أعيان العرب ومن ذوي الأملاك وعبدالوهاب المنديل وعبداللطيف المنديل وكلاهما من ذوي الأملاك ومن الأعيان ويمثلان الملك عبدالعزيز وبصفتهما وكيلين له في البصرة.

ويبدو أن منهجية الاجتماع والمفاوضات بدأت تأخذ طابعًا مباشرًا بين المسؤولين العثمانيين والملك عبدالعزيز، وأخذ الوسطاء ينحون جانبًا. فأعلن الشيخ خزعل أنه رجل فارسي ولا يهمه مثل هذه المسألة. وأما الشيخ مبارك الصباح فقرر أن لا يدخل نفسه في المحادثات، علمًا بأن بريطانيا كانت ترى أنه لا مانع لديها من أن يعرض الشيخ مبارك الصباح مساعدته وتعاونه في سير المفاوضات.

وأمر مهم جدًا وهو أن الدولة العثمانية كانت تفضل أن يتدخل الشيخ مبارك في سير المفاوضات، إلا أنها ظلت لا تفضل ولا تريد وساطة بريطانية بهذا الشأن. وهذا يفسره لنا تأخر الرد العثماني على عرض الوساطة البريطانية، وبالمقابل ظلت الدولة العثمانية تسعى

لإتمام الجهود والمساعي العربية المحلية في إيجاد تسوية ودية بينها وبين الملك عبدالعزيز. ولـم يكـن شـك الدولة العثمانيـة تجاه نوايـا بريطانيا آتيًا مـن فراغ، فقد تأكـدت الدولة العثمانيـة أن هنـاك مطالـب وشـروط بريطانية تجاه التسـوية، منها أن بريطانيـا لا تريد أن تمس المفاوضات مراكز نفوذها في الخليج، وأن يكون لتجارها حرية الحركة التجارية في الساحل الخليجي العربي، بالإضافة إلى منع عمليات بيع الأسلحة، والعمل معًا على منع حالات القرصنة في الخليج بالمفهوم الذي تراه بريطانيا.

وعندما وصل الوفد العثماني إلى الكويت مكث فيها مدة يومين يناقش المقترحات التي يمكن طرحها على الملك عبدالعزيز بناءً على مجموعة التعليمات والترتيبات الصادرة لوالي البصرة والسـيد طالب النقيب من الباب العالي. وقد وصل الوفد العثماني إلى الصبيحية في ٢ مايو ١٩١٤م أي بعد وصول الملك عبدالعزيز آل سـعود إليها بخمسـة أيام. وفي الصبيحية تقابـل الوفـدان ودارت المفاوضات بينهما. وقد أصر الملـك عبدالعزيز على نقطة مهمة جدًا وهـي الاسـتقلال، وهو أمـر ظلت الدولة العثمانيـة ترفضه. كما أن الملـك عبدالعزيز ظل يرفض وبشكل مطلق إعادة تمحور القوات العثمانية وتمركزها في بلاده.

ويشير الريحاني إلى أن الشيخ مبارك الصباح شيخ الكويت رفض التوجه إلى الصبيحية مقـر المفاوضـات السـعودية العثمانية، ويبـدو أنه ينقم علـى الدولة العثمانيـة وعلى وفدها المفاوض؛ لأنه لم يعين على رئاسته، بل أخذ يحذر الملك عبدالعزيز من أن الدولة العثمانية ووفدهـا كذابيـن وماكرين خداعين، وعليه أن يكون صلبًا معهم ولا يمكنهم من شـيء ولا يصـدق ما يقولونـه. وبالمقابل ظلت الدولـة العثمانية تطالب بالاحتفـاظ بقوات عثمانية فـي موانـي الأحسـاء كالقطيف والعقيـر والجبيـل، وأن تكون المسـؤولة الأولى عن عقد المعاهدات الدولية وتنظيمها. في حين أصر الملك عبدالعزيز على أن تكون علاقته بالدولة العثمانيـة علاقـة ذات طابـع اسـمي، مقابل أن تقدم لـه الدولة العثمانية الأسـلحة والذخيرة وبعض المال.

وأمر بدهي أن يكون موقف الملك عبدالعزيز آل سـعود في مفاوضاته مع الوفد فيه نوع من الملاينة؛ لأنه مقتنع تمامًا أن مسـألة المفاوضات مسـألة تكتيكية ذات طابع سياسـي وإسـتراتيجي. وأن كل مـا سـيتفق عليه سـيظل حبرًا علـى ورق، ولن يخرج إلـى حيز العمل والتنفيذ ليس من جانبه فقط، وإنما أيضًا من الجانب العثماني.

ويجـب أن لا يغيـب عـن البال أن الدولة العثمانية كانت دائمًا تنظـر إلى اتفاقياتها مع آل سـعود علـى أنها اتفاقيات مؤقتـة تفرضها ظروف ومصالح معينة. فعلـى الرغم من أن الدولة

العثمانية تفاوض الملك عبدالعزيز، إلا أنها في الوقت نفسه كانت تجري اتصالات مع آل رشيد في جبل شمر عن طريق واليها في البصرة سليمان شفيق كمالي باشا المشرف العثماني المباشر على المفاوضات العثمانية الجارية مع الملك عبدالعزيز، ليظلوا في حال عداء مع الملك عبدالعزيز، وهي تساعدهم بالمال والسلاح والعتاد. ولكن اندلاع الحرب العالمية الأولى وإعلان الدولة العثمانية الحرب على دول الوفاق أوقف كل المشروعات العثمانية العسكرية في الجزيرة العربية. وبالمقابل فإن الملك عبدالعزيز لا يثق بالدولة العثمانية واتفاقياتها.

وبناءً على ما سبق قرر الطرفان العثماني والسعودي التوصل إلى اتفاق بعد كثير من المداولات والاتصالات والمفاوضات. واتفق الطرفان على أن يظل هذا الاتفاق في سرية تامة وكتمان شديد إلى أن يقره الباب العالي وتصل موافقته. ويبدو أن الوفد العثماني أثناء عودته من الصبيحية إلى الكويت، لم يذكر شيئًا عن هذا الاتفاق للشيخ مبارك الصباح، مع العلم أن الشيخ مبارك سأل الوفد عن نتيجة مفاوضاته، ويبدو أن الوفد العثماني كان متأكدًا من غضب الشيخ مبارك لعدم تعيينه رئيسًا للوفد، ولهذا ظل الشيخ مبارك يتمنى عدم نجاح المفاوضات. ويذكر الريحاني أن الشيخ مبارك الصباح صدم عندما وصلته أخبار تفيد أن برقية من الباب العالي وصلت إلى والي البصرة سليمان شفيق كمالي باشا تبين أن الباب العالي وافق على الاتفاق وصدق عليه، مقرونًا ذلك بالشكر وبالوسام العثماني الأول للملك عبدالعزيز آل سعود بعد أسبوع واحد فقط من اجتماع الصبيحية.

ومن الملحوظ أن شروط الاتفاق العثماني السعودي جاءت تجمع بين مطالب الملك عبدالعزيز ومطالب الدولة العثمانية. فقد أفاد الشيخ مقبل الذكير أن اتفاقًا حدث بين الطرفين لكنه لم يطلع على نصه، غير أنه فهم من الأخبار الواردة إلى الكويت، وكان الذكير وقت المفاوضات فيها، أن الاتفاقية تسمح بوجود ما لا يزيد عن خمسة جنود من العسكر العثماني في كل من العقير والقطيف والجبيل رمزًا للمحافظة على العلم العثماني مرفوعًا، ولن تكون حاميات عثمانية أخرى في الأحساء أو في نجد. وأن يقوم الملك عبدالعزيز بتحصيل الرسوم الجمركية في الموانئ، وأن تمنحه الدولة العثمانية مخصصات شهرية تصل إلى ٢٥٠ ليرة عثمانية. بالإضافة إلى تحديد الحدود بين الملك عبدالعزيز وابن رشيد.

وثمة ملحوظة مهمة وهي أنني حاولت العثور على النص التركي للاتفاقية من خلال وثائق الباب العالي، الأرشيف العثماني، فرع رئاسة الوزراء بإستانبول، ولكني لم أعثر عليه،

وأرجو أن يعثر عليه باحثون غيري. ولكن المسؤولين البريطانيين وعلى رأسهم السفير البريطاني في إستانبول ظلوا يبحثون بطرقهم الخاصة عن أصل الاتفاقية التي وقعها كل من الملك عبدالعزيز آل سعود وسليمان شفيق كمالي باشا والي البصرة وقتذاك، وقد توصل البريطانيون إلى معرفة بنود الاتفاقية، ونحن نستقي من النص الإنجليزي بنودها وأهمها:

١ - تعترف الدولة العثمانية بسيادة الملك عبدالعزيز على ولاية نجد طيلة حياته باستثناء جبل شمر، بما في ذلك منطقة الأحساء (تعني ولاية نجد في المصطلح الإداري العثماني إقليم نجد وإقليم الأحساء معًا) على أن تكون ولاية نجد لخلفائه من بعده إذا ظلوا مطيعين للدولة العثمانية.

٢ - أن تتمركز بعض القوات العثمانية في الموانئ مثل القطيف والجبيل والعقير، ويمكن زيادة عددها طبقًا لطلب من الملك عبدالعزيز.

٣ - أن تتم كل إجراءات الجمارك والضرائب في الموانئ التابعة للملك عبدالعزيز طبقًا لأنظمة الدولة العثمانية، على أن يرسل عشرها إلى الآستانة مثل أي والٍ عثماني.

٤ - تعتمد ولاية نجد في أمورها المالية على عائدات الجمارك والبريد والبرق إلى أن تحقق الولاية كفاية ذاتية، وما يفيض عن حاجتها يرسل إلى الباب العالي مرفقًا بتقرير رسمي.

٥ - يرفع العلم العثماني على كل المباني الحكومية والمباني المهمة وعلى السفن التجارية في الولاية.

٦ - لا يحق لوالي نجد أن يتدخل في الشؤون الخارجية أو أن يمنح امتيازات لأطراف أجنبية.

٧ - يزود والي نجد الحكومة العثمانية بقدر كاف من القوات مع مؤنها وذخيرتها حين يطلب منه ذلك في حال نشوب حرب بين الدولة العثمانية وأي قوى أجنبية.

٨ - يجب أن تمر مكاتبات والي نجد مع الدول الأجنبية عن طريق الآستانة. كما أن مكاتباته مع الدولة العثمانية بشأن الأمور الداخلية تكون مباشرة عن طريق نظارة الداخلية والشؤون الحربية عن طريق نظارة الحربية دون المرور بوالي البصرة.

٩ - يحق لوالي نجد أن يشكل قوة محلية لحفظ النظام والأمن في نجد والمحافظة على سلامتها.

١٠ - على والي نجد أن يحترم جميع الاتفاقيات والمعاهدات التي وقعتها الدولة العثمانية

مع الدول الأخرى.

١١ - يحق لوالي نجد أن يتلقى طلبات التجار الأجانب فيما يتعلق بممارسة أعمالهم طبقًا لشروط الاتفاقية.

وقد صدر فرمان إمبراطوري (سلطاني) سمى عبدالعزيز آل سعود واليًا عامًا على ولاية نجد وقائدًا لقواتها، وله سلطات الوالي الكاملة، ويحق له أن يشكل وحدات عسكرية لحفظ الأمن العام والنظام في ربوع ولاية نجد، الجزء الذي أقر تحت سيادته، بالإضافة إلى سنجق الأحساء أو ما يعرف اليوم بالمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية.

وقد هنأ أنور باشا وزير الحربية في الدولة العثمانية عبدالعزيز آل سعود حاكم نجد والقائد العام، قائلاً: "يسعدني أن أبارك لكم وأهنئكم، وأدعو الله أن يتوج كافة أعمالكم بالنجاح لتعزيز الدين الإسلامي، وأن يقويكم في خدمة الدولة العثمانية المجيدة، كما أرجو لكم السعادة والنجاح في كل أموركم، ولكم أن تأمروني في كل شيء".

ويذكر سليمان شفيق كمالي باشا والي البصرة ورئيس الجانب العثماني المفاوض أن الدولة العثمانية عينت عبدالعزيز آل سعود برتبة الوزارة السامية بفرمان سلطاني عال وولاية نجد وقيادتها وإمارتها على أن تنتقل بالإرث إلى أولاده. ويقول عن الاتفاقية: " إنها الخطوة الأولى لطريقة الحكم اللامركزي التي كان يجب أن تقرر في بلاد العرب...". وكان سليمان شفيق كمالي باشا قد تلقى برقية من الباب العالي تتضمن موافقة الدولة العثمانية على الاتفاقية، وتقدم الشكر إلى الأمير عبدالعزيز آل سعود، وتمنحه الوسام العثماني الأول.

وعلى الرغم من أن الاتفاقية برمتها لم تطبق وظلت بنودها حبرًا على ورق، إلا أنها في الوقت نفسه رفعت الملك عبدالعزيز وقتذاك إلى مصاف الولاة العثمانيين المهمين ليس في الجزيرة العربية فحسب، وإنما في الولايات العربية الأخرى، وهي أيضًا بمثابة اعتراف عثماني رسمي بالسلفية في الجزيرة العربية. كما أن هذه الاتفاقية أعطت الملك عبدالعزيز آل سعود وقتًا لدعم السيادة السعودية على منطقة الأحساء، وقد تلاشت فكرة الهجوم البحري العثماني على تلك المنطقة لاستعادتها إلى السيادة العثمانية. وبفضل هذه الاتفاقية الاسمية تفرغ الملك عبدالعزيز آل سعود إلى مسألة آل رشيد في جبل شمر، وتفرغ أيضًا إلى المسائل الدبلوماسية مع القوى المهمة في منطقة الخليج، من أجل تقوية مركزه ومكانته في الساحل الخليجي.

وتشير المصادر إلى أن الملك عبدالعزيز آل سعود لم يكتف بإخراج القوات العثمانية من

تتأثر بإعمال القراصنة على الساحل التركي مما وصفناها سابقًا ، وكانت الأحساء هي القاعدة - كما شرحنا ذلك في تاريخ البحرين - التى تود تركيا أن تنطلق منها لتأكيد سيطرتها على جزر البحرين.

مذبحة شيوخ البحرين وأنصارهم في الأحساء وعمل السلطات البريطانية حيال ذلك ١٩٠٠- ١٩٠٤م:

وقد وقعت حادثة مؤسفة - لا تتصل بأي من هذه المشاكل - لكننا لا نستطيع إهمالها ، ففي نهاية سنة ١٩٠٠م خرج سلمان بن دعيج ابن عم عيسى بن علي شيخ البحرين للصيد بالصقور على شاطئ الظهران في الأحساء ، وكان بصحبته أبناء دعيج وبشير وابن شقيق له اسمه عبد الرحمن ابن راشد ، وتبع الشيوخ ٢٠ خادمًا وأربعة أدلاء: أحدهم من آل مره ، والثاني من عجمان والباقيان من بني هاجر. وفي الصباح الباكر ليوم ٣ ديسمبر هوجم مخيم الشيوخ إلى جوار بئر ابن عقدان على مسافة خمسة أميال من دوحة عين السيح.. هاجمته عصابة مكونة من حوالي خمسين رجلاً من بدو آل مرة التابعين لآل بحيح يقودهم راشد بن مقارح شيخ فرع آل بحيح الذي قُتل ابن من أبنائه في العام السابق في عراك نشب مع العمامرة رعايا شيخ البحرين. ولم ينجُ من هذه الجماعة كلها سوى بشير ابن الشيخ سلمان واثنين من رجال القبائل استطاعوا النجاة من الموت ، وفروا جرحى. كما قتل أيضًا رجل من دواسر البحرين كان في خيمة الشيخ سلمان وقت حدوث هذه المباغتة فشاركه المصير. ومن الجانب الآخر قتل القائد راشد وابن من أبنائه كما جرح واحد أو أكثر من رجال القبائل. وحمل آل بحيح معهم فيما حملوا ثلاثين بعيرًا وعشرين بندقية. وكان يبدو أن هدفهم هو النهب لا الانتقام ، وكان مسلكهم هذا منافيًا لكل التقاليد العربية. وقد قام محمد بن عبد الوهاب من القطيف بالسفر إلى مكان الحادثة خصيصًا للقيام بدفن جثث الشيخ سلمان ورفاقه.

وقام القنصل البريطاني في البصرة بإبلاغ النبأ مباشرة إلى والي البصرة وكان من المتوقع أن تبادر السلطات التركية لتقديم التعويض العاجل ويبدو أن هذه السلطات في البداية كانت تقلل من شأن الانتقام من آل بحيح ، وكانت أيضًا تخشى الإجراءات الانتقامية التى قد يقوم بها شيخ البحرين ضد هذه القبيلة. والحقيقة إن خطاباتهم لشيخ البحرين كشفت عن استعدادهم لقبول قيام الشيخ بالانتقام منهم ، لكن السلطات بمجرد أن عرفت قدرة هذه القبيلة على الإفلات والمراوغة ، وعرفت أيضًا أن السلطات البريطانية ستحول بين شيخ البحرين والقيام بعمل انتقامي مفاجي هدأت حماسها وأصبحت تنظر للقضية ببرود واضح.

وقد تأخرت حكومة صاحبة الجلالة في تقديم مطالبها واحتجاجاتها الشديدة إلى الباب العالي بسبب شكها فيما إذا كانت سلطة تركيا تمتد جنوبا حتى مكان وقوع الحادثة، لكنها أخيرًا - في أغسطس سنة ١٩٠١م قدمتها على أساس أن آل بحيح يقيمون في أرض تابعة لتركيا، وقبل أن تقع الكارثة التى وقعت للأتراك كما ذكرنا سابقًا في القطيف بالقرب من العقير في إبريل ١٩٠٢م كانت الحكومة التركية قد خضعت لطلب بريطانيا فيما يتعلق بمذبحة الظهران حتى إنها أرسلت أوامر صريحة مشددة إلى مسئوليها المحليين لإلقاء القبض على القتلة وعقابهم. وبما أن آل بحيح قاموا أيضًا بدور بارز في مذبحة الأتراك في القطيف فقد زاد هؤلاء بمبرر جديد للعمل. وزاد احتمال نجاح المفاوضات المتعلقة بقضية شيخ البحرين خاصة بعد انتصار القوات العثمانية على آل مرة فى سبتمبر سنة ١٩٠٢.

وفى نفس الوقت طلبت حكومة الهند من شيخ البحرين أن يحدد التعويض الذي يرى أنه يستحقه. وأجاب الشيخ بأن قتل ثلاثة من أقربائه لا بد أن يقابل بتسليم ثلاثة في مقابلهم ودون قيد أو شروط آل بحيح. وبالنسبة للدية فإنه يستحق مبلغ ٢٣,٥٢٠ روبية عن العشرين تابعًا والضيف الدوسري. أما قيمة الممتلكات التى نهبوها فتصل إلى ١١,٦٢٠ روبية. وقد اعترض الأتراك على هذه المطالب، من حيث نوعها وكمها كذلك، ومن المحتمل أن نجاحهم وانتصاراتهم على تلك القبيلة كان لا يكاد يكفي لتغطية تعويضاتهم هم عن كارثة القفطية. وفي الداخل، تقدم آل بحيح - عن طريق الثانى شيوخ الدوحة في قطر- بطلب لشيخ البحرين لتسوية الأمور ودية. وسمحت السلطات البريطانية للشيخ بإجابتهم إلى مطالبهم، غير أن آل بحيح تراجعوا أخيرًا، ولم تبدأ المفاوضات المنتظرة.

وفي سنة ١٩٠٣م حين لم تكن أية خطوات اتخذت من جانب السلطات التركية لتعويض شيخ البحرين عن هذه الكارثة استمرت المفاوضات دائرة حولها بين الحكومة البريطانية والباب العالي، وثبت كذب ادعاء السلطات التركية بأن هؤلاء القتلة قد لقوا حتفهم في الاشتباكات التالية مع القوات التركية. وسرعان ما وضح أن الباب العالي لا يود ولا يستطيع أن يقوم بأي عمل بهذا الصدد، وقررت حكومة صاحب الجلالة الترخيص لشيخ البحرين بالثأر من آل بحيح على ألا يقوم بعمله هذا في إقليم تابع لتركيا.وأبلغ هذا القرار للباب العالي في أكتوبر سنة ١٩٠٤م، لكن الترخيص سحب من الشيخ نظرًا لسوء تصرفه في بعض الأمور الوارد تفصيلها في تاريخ البحرين.

وفي فبراير ١٩٠٥م حدث اعتداء جديد على رعايا البحرين من جانب قبيلة آل بحيح في

دوحة حويقيل في بر القارة، وكان الضحايا في هذه المرة هم بحارة سفينتين صغيرتين تابعين للحد في جزيرة المحرق نزلوا إلى البر لجمع بعض الأخشاب فهاجمهم عصابة من ٣٥ بدويًا، وجرح عبد كان مملوكًا لهم . وفي ١٩٠٧ يبدو أن آل بحيح كانوا يعتبرون أنفسهم بسبب منع الشيخ لهم من الدخول إلى البحرين على عداء دموي لكل أهل هذه الجزر من العرب.

بريطانيا وإستراتيجية مدحت باشا في الخليج

في إطار التنافس العثماني البريطاني

رأينا اهتمام بريطانيا بالخليج وإماراته العربية منذ القرن السابع عشر بعد تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية عام ١٦٠٠م، ومن الهند باشرت السلطات البريطانية هناك نشاطا تجاريا عبر مياه الخليج العربي إلى البصرة في العراق من الفرات إلى الشام ثم البحر المتوسط إلى أوروبا، وكان البريطانيون يحرصون على عدم منافسة أية قوة أخرى لانفرادها بالنشاط في الخليج، وقد رأينا أنها تحالفت مع عرب الخليج ومع فارس في تخليص إمارات الخليج العربية، ومياه الخليج من الوجود البرتغالي في القرن الثامن عشر، ثم الوجود الهولندي، ومتابعة المحاولات الفرنسية من أواخر القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر للوجود في منطقة الخليج، بحيث شهدت بدايات القرن التاسع عشر انفرادًا بريطانيًا بالنفوذ في إمارات ومياه الخليج العربي.

ولكن تطلع العثمانيين إلى الوجود في منطقة الخليج العربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد أثار استياء البريطانيين واستنكارهم للمحاولات العثمانية التي نفذها مدحت باشا امتدادًا من العراق، وهو الكاره لكل نفوذ أوروبي ومعاد للوجود البريطاني في منطقة الخليج العربي وفرض معاهدات تكبل أمراء وشيوخ الإمارات العربية الخليجية، ومن ثم فإنه رغم محاولات مدحت باشا للتحرك نحو الأحساء بسرية كبيرة فإن البريطانيين الذين علموا من الأمير سعود بن فيصل آل سعود بتحركات القوات العثمانية في المنطقة أخذوا في اتخاذ مواقف ضد هذه التحركات.

ويرجع تخوف بريطانيا وقلقها من التحركات العثمانية في منطقة الخليج العربي إلى الأسباب الآتية:

(١) خشية البريطانيون من السيطرة العثمانية الكاملة على شبه الجزيرة العربية وخاصة سواحلها الشرقية المطلة على الخليج العربي والجنوبية المطلة على البحر العربي والمحيط الهندي، والسواحل الغربية المطلة على البحر الأحمر في الوقت الذي

احتلت فيه بريطانيا ميناء عدن اليمني عام ١٨٣٩م.

(٢) الخشية من فارس لأن تبقي لها في مياه الخليج أسطول كبير لتحقيق ادعاءاتها في البحرين مما يهدد انفراد النفوذ البريطاني في منطقة الخليج.

(٣) خوف بريطانيا من قيام الدولة العثمانية بعد سيطرتها على ساحل الخليج العربي بإماراته العربية بالمحاولة لمد سيطرتها على ساحل الخليج العربي الفارسي بحكم العداء القديم منذ عام ١٥٠٠م عند قيام الدولة الصفوية الشيعية المذهب وصراعها مع الدولة العثمانية حول العراق، ومحاولة نشر المذهب الشيعي في منطقة الخليج العربي.

(٤) خوف بريطانيا من سيطرة العثمانيين على إمارات الخليج العربي والأحساء والقضاء على قوة الأمير سعود بن فيصل آل سعود سيوطد النفوذ العثماني في المنطقة ولن تستطيع بريطانيا التى تسعى للسيطرة على الخليج بدون منافسة، مع السيادة العثمانية على منطقة الخليج العربي[1].

(٥) أدت حملة الأحساء إلى قيام صراع بريطاني عثماني في منطقة الخليج العربي مما ساعد على زيادة الاضطراب في المنطقة، إذ أن بريطانيا كانت تشجع القبائل وكانت تمنحها الهبات والأموال للقيام بالثورات ضد العثمانيين. فوقفت بريطانيا أمام محاولات مدحت باشا إرسال سفينتين إلى جزر البحرين وإقامة مخازن للفحم هناك، مما دفع بالحكومة العثمانية إلى توقف مدحت باشا عن الدخول في صراع مع البريطانيين بالنسبة للبحرين التى تعبرها بريطانيا مشمولة بحمايتها.

(٦) وصلت أول إشارة إلى مسامع حكومة الهند البريطانية عن نية الدولة العثمانية إعداد حملة الأحساء أوائل عام ١٨٧١م، وفي شهر فبراير من نفس العام صدرت الأوامر للكولونيل هربرت القنصل البريطاني في بغداد بالتحري عن الأمر وقد كتب هربرت في أواخر شهر مارس تقريرا للحكومة البريطانية بأن حملة عثمانية سيتم إرسالها عن طريق البحر من العراق إلى القطيف للوقوف إلى جانب الأمير عبد الله بن فيصل آل سعود في وسط الجزيرة العربية، كما ذكر أن نية العثمانيين تتجه إلى مد السيادة العثمانية إلى البحرين ومسقط والقبائل العربية المجاورة في جنوب الجزيرة العربية[2].

(٧) تقدمت الحكومة البريطانية باستفسار إلى الحكومة العثمانية عن صحة أخبار

(١) د. جمال زكريا قاسم : المرجع السابق صفحة ١٩٠.

(٢) د. عبد العزيز المنصور: التطور السياسي لقطر ١٨٦٨ - ١٩١٦م، الكويت ١٩٧٥ صفحة ١٢٨.

إعـداد حملة عسـكرية لضم الأحسـاء ومناطق أخري في الخليـج والجزيرة العربية إلى السـيادة العثمانية ، وجاء الرد العثماني بأن الباب العالي لديه نوايا توسـعية ، وأن هدف الحملة هو تحقيق الأمن والاستقرار في نجد.

(٨) لجـأت بريطانيـا منذ بدايـة اهتمامها بالخليـج العربي بألا تكون لها سياسـة معلنة واضحـة تجـاه أقطـار الخليج العربـي بحكـم وجودها غير الشـرعي فـي المنطقة وخشـية مـن إعلانهـا روابط لسياسـة معينة تجاه الخليـج العربي قد تـؤدي إلى إثارة قوى أخري تربطها بالخليج روابط اتفاقية أو تجارية كبلاد فارس وغيرها ، ومن ثم تسـعي تلك الدول إلـى إبعادها عن المنطقة ، ولذلك لجـأت بريطانيا إلى التعامل مع كافة الأطراف في منطقة الخليج العربي حسـب اتجاهات سياسـية متغيرة تتمشـي مع مصالحها السياسية والاقتصادية [١].

وهذا اتضح من موقفها من إستراتيجية الدولة العثمانية التى تعهد بتنفيذها مدحت باشا ، تلك الإسـتراتيجية الساعية لفرض السـيادة العثمانية على منطقة الخليج والجزيرة العربية ، حيث أن بريطانيا تابعت من بداية تحركات حملة مدحت باشـا إلى الأحسـاء وهي في طور الإعداد بالعراق ، وسـاعدت الأمير سـعود بن فيصل آل سـعود في رفضه للوجود العثماني ، ودافعـت عـن البحرين أمـام الرغبة العثمانية في ضـم البحرين للسـيادة العثمانية ، وأظهرت اسـتياءها مـن نـزول قـوات عثمانية إلى شـبه جزيرة قطـر ، وحرصت على ألا يمتـد الوجود العثماني أبعد من شبه جزيرة قطر[٢].

(٩) جاء الاتجاه إلى إعادة النظر في السياسة البريطانية في الخليج نحو التبلور منذ بعض الوقـت في أوسـاط المسـئولين من مكتب شـئون الهند البريطانـي ، وذلك ردًا على التحـركات العثمانية لمحاولة تحجيم التوسـع البريطاني الـذي وجد في الخلافات الداخليـة فـي المنطقة ، فـي تلك الفترة فرصة لفرض السـيطرة السياسـة على بقية أجـزاء المنطقة ، الأمر الذي أظهر العثمانيين كقوة مناوئة للسياسـة البريطانية في منطقة الخليج العربي ، ومن ثم ركزت سلطات الهند البريطانية على أن تجعل سفنها في أبحار دائم في الخليج ، وقد تبنى ذلك وزير الهند منذ أغسطس عام ١٨٦٩م ، وهو عام أفتتاح الملاحة العالمية في قناة السويس[٣].

(١) د. عبد العزيز عبد الغني: سياسة الأمن لحكومة الهند في الخليج العربي ، الرياض ١٩٨٢ صفحة ٣٢.

(٢) د. عبد العزيز المنصور: المرجع السابق صفحة ١٣٩.

(٣) جـون كيلـي : بريطانيا والخليج ، عمان - مسـقط ١٩٧٩م صفحة ٤٨٤. ولوريمر: دليل الخليج ، القسـم التاريخي حـ ٢ - الدوحة صفحة ١٣٩٧.

(١٠) استقدمت حكومة الهند البريطانية عدة بوارج حربية إلى الخليج للدفاع عن نفوذها، ومنحت الكولونيل "بيللي Belly" المقيم السياسي البريطاني في الخليج سلطات واسعة للتصدي للتحرك العثماني بحجة العمل على إقرار الأمن في مصائد اللؤلؤ، ثم أخذت بريطانيا تتقرب من شيوخ الإمارات العربية وتحثهم على عدم التعاون مع العثمانيين الذين كانوا جادين في تسيير حملتهم العسكرية إلى الأحساء، كما أقدمت بريطانيا إلى ما هو أبعد من التحريض، حيث أخذت تحدد الحدود بين المشايخ العربية على الخليج ولصالحها فقط [١].

(١١) أسفر الصراع العثماني البريطاني في منطقة الخليج العربي عن وجود عثماني في المنطقة، اسمى على الأقل في بعض المناطق، وفعلى في بعض المناطق الأخرى، وفي بعض الأحيان، لكن لا يمكن تفسير عدم استقرار الوجود العثماني بوجود معارضة من بعض الزعماء المحليين فقط، وإنما كانت الأطماع الأوروبية وبخاصة البريطانية متجهة إلى منطقة الخليج، مما جعل الوجود العثماني في المنطقة في حالة مد وجزر حسب تعاون الزعماء المحليين مع الإدارة العثمانية.

(١٢) كانت بريطانيا تخسر منطقة ثم تصل إليها يدها من جديد وتعيدها مرة أخرى، وأحيانًا يتقلص الوجود البريطاني في بعض المناطق لتخضع للسيطرة العثمانية، وكثيرًا ما كان ذلك يحدث بمساعدة الزعماء المحليين، وكل تلك الظروف جعلت بريطانيا والدولة العثمانية تميلان إلى المصالحة غير المعلنة، والاتفاق الذي يتمشي مع المصالح السياسية لكلا الطرفين. وقد دارت المراسلات بذلك الشأن بين الدولتين حتى عقدت اتفاقية عام ١٩١٣م بينهما لتقسيم مناطق النفوذ في منطقة الخليج العربي [٢].

تقارير عثمانية عن علاقة سكان الخليج العربي بالدولة العثمانية ١٨٧١- ١٩٠٧م

مقدمة:

يتناول هذا البحث أساسًا عرض التقارير والمراسلات التى بعثها القنصل العثماني الفخري في لنجه المدعو محمد بن عبد الله الخاجه، في الفترة من ١٣١٦- ١٣٢٥هـ/ ١٨٩٨-١٩٠٧م . مع تقارير أخرى رفعت إلى الدولة العثمانية قبل ذلك . منها : الخطاب الذي بعث به ثلاث

---

(١) عبد العزيز الشعيل : الوجود العثماني في منطقة الخليج الأحساء ١٨٧١- ١٩١٤م، رسالة ماجستير في التاريخ غير منشورة، كلية الآداب جامعة الزقازيق عام ١٩٨٨م صفحة ٧٣- ٧٧.

(٢) نفس المرجع، صفحة ٨٠- ٨١.

وعشرون شخصًا من أهالي بندر بوشهر إلى مدحت باشا؛ لفتح قنصلية عثمانية فيه، وخطاب مماثل قدم باسم ثلاثة عشر شخصًا من أهالي المنطقة إلى القنصل العثماني في مومباي.

وتكمن أهمية هذه التقارير التى وقعها محمد بن عبد الله في لفت انتباه الدولة العثمانية إلى سياسات الإنجليز في المنطقة من جهة، وما مارسته السلطات القاجارية (الحاكمة آنذاك) في إيران من ضغوط على أهالي تلك البنادر من العرب من جهة ثانية، وكيفية استعادة الدولة العثمانية لمكانتها في المنطقة من خلال استمالة شيوخ الإمارات من جهة ثالثة . ومما يجدر ذكره هنا أنه بعد افتتاح القنصلية العثمانية في لنجه بزمن، تعرض علم الدولة العثمانية لعمل استهزائي من بعض الأشخاص مما أدى إلى قيام الحكومة الإيرانية بترضية الدولة العثمانية والاعتذار لها عن ذلك، كما جاء في وثيقة عثمانية مؤرخة في (١٣ شعبان ١٣٢٧هـ / ٣٠ أغسطس ١٩٠٩م) [١].

الوثائق العثمانية المتعلقة بالخليج العربي

دخل العثمانيون إلى مسرح الأحداث في الخليج العربي حوالي منتصف القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، مما جعل للمصادر التاريخية العثمانية أهمية بالغة. فإضافة إلى الكتب التاريخية المؤلفة باللغة العثمانية، فهناك عشرات الآلاف من الوثائق المهمة المتعلقة بتاريخ الخليج والجزيرة العربية وقبائلها وحواضرها في الأرشيف العثماني، مفتوحة للباحثين ممن يود دراسة تاريخ المنطقة والاطلاع عليها، والاستفادة منها في كشف النقاب عن كثير من الأحداث التاريخية للمنطقة والتى لا تتحدث عنها المصادر الأخري . وهذا الأمر ليس للتقليل من شأن المصادر الأخري المؤلفة بلغات عربية وأجنبية ؛ وأنما لكون الوثائق العثمانية تورد تفصيلاً للأحداث وكشفًا للغموض وتوضيحًا للكثير من المسائل التاريخية عن تلك الحقبة التى تمتد أربعمائة سنة على وجه التقريب.

ومن الطبيعى أن يكون هناك تفاوت بين بعض مناطق الخليج من حيث تعلقها بالدولة العثمانية، وبالتالي فإن الوثائق الخاصة بالمناطق المرتبطة بالحكم العثماني بشكل، أكثر من وثائق المناطق الأخرى التى لم ترتبط بذلك الحكم . ومع ذلك فلا يخلو الأرشيف العثماني من وثائق تتعلق بمناطق الخليج كافة . وذلك بحكم الجوار والعلاقات الثنائية من جهة، والأحداث التى ارتبطت بالقوى الموجودة في الخليج، سواء أكانت إدارية محلية لم ترتبط بالحكم العثماني، أو تلك التى تعلقت بذلك الحكم من جهة أخري.

---

(١) د. سهيل صابان: علاقة سكان الخليج العربي بالدولة العثمانية من خلال بعض التقارير العثمانية (١٢٨٨-١٣٢٥هـ/١٨٧١- ١٩٠٧م).

ومهما يكن من أمر فإن وثائق الخليج الموجودة بالأرشيف العثماني - سواء أكانت تقارير أو مراسلات إدارية - تكشف النقاب عن أمور غير واردة في المدونات التاريخية، ولاسيما تلك الموضوعات المتعلقة بالوجود العثماني في المنطقة.

فتح قنصلية عثمانية في بوشهر

تبين من الخطاب[1] الذي رفعه أهالي بندر بوشهر في (٢٦ ربيع الأول ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م) إلى والي بغداد مدحت باشا والذي حمل أسماء وأختام ثلاثة وعشرين شخصًا[2] أن السبب الأساسي الداعي لفتح القنصلية العثمانية في هذا البندر هو : تغير معاملة السلطان الإيرانية عن السابق لأهالي الكويت والبصرة القاطنين في بندر بوشهر والمترددين إليه؛ لأجل التجارة، وعدم الاستجابة لطلباتهم، وعدم تمكينهم من تحصيل حقوقهم، ووقوع التعدي عليهم وعلى إمام مسجد أهل السنة والجماعة الشيخ عبد الله بن إبراهيم، حتى تكون هذه القنصلية العثمانية ترعى شؤونهم على غرار القنصلية الإنجليزية والقنصلية الهولندية الموجودتين في هذا البندر. فوجود قنصلية عثمانية فيه، تدافع عن حقوقهم وترفع المظالم عنهم، وتخاطب السلطات الإيرانية بمشكلاتهم سوف يكون له أكبر الأثر في التخفيف من المعاناة التي يعانون منها مع السلطات الإيرانية[3].

وقد بين الخطاب الذي رفعه مدحت باشا إلى نظارة الخارجية في(١٧ ربيع الآخر ١٢٨٨هـ/ ٥ تموز ١٨٧١م) - عطفًا على أهالي بندر بوشهر السابق- أهمية هذا البندر بكونه متميزًا في الحركة التجارية النشطة، وأن مجموعة كبيرة من تجار الكويت والبصرة والأحساء والقطيف يقصدونه، وأن القنصلية الهولندية تقوم بمتابعة بعض المعاملات الخاصة لرعايا الدولة العليا، غير أن ذلك غير كاف في الحد من معاناتهم. وأضاف مدحت باشا على كل ذلك تعرض أهالي البندر العرب السنة، وهم أكثر من غيرهم من حيث الاعتقاد المذهبي، بتغيير مذاهبهم من لدن السلطات القاجارية. وذكر في نهاية الخطاب أن ميزانية ولاية بغداد قادرة على تحمل مصروفات فتح القنصلية ورواتب موظفيها، وهي تبلغ شهريًا خمسة

(١) أنظر نص الخطاب العربي الذي صوره الباحث من الأرشيف العثماني في نهاية هذا البحث.

(٢) وهم : إمام الجامع عبد الله بن إبراهيم، والسيد عبد الرحيم صادق، وعبد الوهاب الإبراهيم، وعبد السلام بن عبد الوهاب الإبراهيم، وإبراهيم بن أحمد بو شهاب، وعبد اللطيف بن أحمد الدوسري، وموسى بن أيوب الميمني، وسالمين أبي معراج (معارج)، وإبراهيم بن إسماعيل، وعلي بن محمد إسماعيل، وإسماعيل بن محمد إسماعيل، وإبراهيم بن أحمد ثامر، وجاسم بن زيد، وإبراهيم بن علي عيدان، ومحمد بن خميس، وخميس بن خليفة، ومحمد إسماعيل، وجمال بن علي، وهاشم بن داود، وسليمان بن عيسى الميمني، وجمعة بن خلف، وحسين بن يوسف، وإبراهيم بن علي عيدان. الأرشيف العثماني، تصنيف I.HR/252/14954

(٣) الأرشيف العثماني، تصنيف I.HR/252/14954

آلاف قروش، إشارة منه للباب العالي باستعداده لفتح القنصلية المذكورة إذا وافقت عليه. وقد استجاب الباب العالي لذلك وعلى تعيين أحمد أفندي قنصلاً للدولة العثمانية في بندر بوشهر في (٢١ رجب ١٢٨٨هـ / ٥ أكتوبر ١٨٧١)[١].

خطاب القنصل العثماني في مومباي

ومن خطابات المهمة التي تبين مدى أهمية السواحل الشرقية للخليج العربي للدولة العثمانية، الخطاب الذي بعث به القنصل العثماني في بندر بومباي حسين حسيب إلى نظارة الخارجية العثمانية في (٢٣ ربيع الأول ١٢٩٤هـ/ ٧إبريل ١٨٧٧م)، بدءًا من لنجه وحتى شيراز ولا سيما أهالي بندر عباس وبندر بوشهر، من أهل السنة والجماعة، وأنهم مرتبطون بالخلافة الإسلامية ارتباطا معنويا، وأن اسم الخليفة تقرأ في الخطب، وأن دعوات الخير تتلي على المنابر، لنصرة الجيش العثماني في حربه ضد روسيا، وأنه على الرغم من محاولة السلطات الإيرانية رفع السلطان من الخطب إلا أن الأهالى لن يسمعوا لها، وأن بعض الأهالي قدموا مساعدات مالية للقنصلية العثمانية في بندر بوشهر، مشيرًا إلى أن التجار القادمين إلى بومباي من أهالي تلك البنادر قد أكدوا أنه في حال قيام الحرب بين الدولة العثمانية وإيران فإن أكثر من مائة ألف متطوع من أهل السنة والجماعة من أهالي تلك السواحل، جاهزون للحرب في صفوف العثمانيين ضد إيران. وقد ذكر القنصل حسين حسيب أنه أرفق خطابا مقدما من ثلاثة عشر شخصًا من أعيان الأهالي في تلك السواحل[٢]، تضمن استعدادهم للحرب مع العثمانيين ضد الروس. إلا أن الأمر الصادر من الباب العالي ردًا على

---

(١) الأرشيف العثماني، تصنيف I.HR/252/14954

(٢) وقد ظهر الخطاب ضمن التصنيف المذكور. وعلى الرغم من أن أصلة باللغة العربية إلا أننا لم نعثر إلا على ترجمته العثمانية. وترجمته إلى اللغة العربية على النحو الآتي: نحن شوافع على مذهب أهل السنة والجماعة. من أهالي بندر عباس وبندر لنجه وبندرعلو (هكذا) وبندر محار(؟) وبندر كنكار(كنكان) وبندر ظاهر(طاهري)، والواقع كلها في داخل خليج البصرة (الخليج العربي) تابعين لإيران. وعلى الرغم من أن عدد سكاننا يتراوح ما بين مائتي ألف وثلاثمائة ألف، فإننا كلنا من أهل السنة وعلى المذهب الشافعي. وبمقدورنا تجهيز مائة ألف جندي. وعلى الرغم من الظلم الذي نتعرض له على يد السلطات الإيرانية، إلا أننا من القديم معترفين بسلاطين آل عثماني بأنهم أئمة المسلمين وخلفاء (الرسول) رب العالمين. وقد قال تعالي في محكم تنزيله المبين نستعيذ بالله « أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم». وبناء على ذلك فإن طاعة السلطان عبد الحميد الثاني - الذي هو سلطان البرين وخاقان البحرين وخادم الحرمين الشريفين وحامي الدين المبين وهادم أساس المشركين - والانقياد لأمره واجب. كما أن الدعاء بالنصر للخلافة على الأعداء فرض علينا. وامتثالا لهذا الأمر الإلهي، فإن علماء المنابر والعوام من الناس يدعون بطول العمر والنصر لجناب الخليفة، مواظبون على ذلك. ولاسيما في حرب الدولة العلية في وجه الروس المنحوسين أعداء الدين المبين. كما أننا مع سلاطين آل عثمان من القديم بـ اللهم انصر سلطان المسلمين. وعلى الرغم من أننا تابعين فإيران في الظاهر، إلا أننا مع سلاطين آل عثمان باطنًا وقلبًا، كما سبق بيانه. وبناء على معرفتنا بذلك فأننا مستعدون بالتضحية بالمال والجسم في خدمة الدولة العلية. وقد اجتمع لذلك الآن حوالي أربعة آلاف شخص، للحفاظ على حدود الدولة العلية. والمرجو من جنابكم إبلاغنا بكيفية التحرك. الأرشيف العثماني، تصنيف I.HR/274/16634

خطاب القنصل اشتمل فقط على تصدير خطاب من المشيخة الإسلامية لعلماء المنطقة بأن الدولـة العثمانيـة تقدر ذلك التصـرف منهم، وأنها راضية عنهم كل الرضـى[1]، دون اتخاذ خطوة أخري في هذا الصدد حسب على الباحث.

تقارير القنصل العثماني الفخري في لنجة

عثر الباحث على عدة تقارير: خطابات وبرقيات، أرسلها القنصل العثماني الفخري في لنجة محمد بن عبد الله الخاجه، تبين مدي ارتباط الأهالي في السـواحل الشـرقية للخليج العربي بالخلافة العثمانية. وهذه التقارير باللغة العربية، ما عدا التقرير الأخير؛ حيث كان باللغــة العثمانيــة. وقد تبن للباحث من خلال قراءته تلك التقارير أن ضعف صاحبها في اللغة العربية واضح. وعلى الرغم من ذلك الضعف اللغوي، إلا أن نشــاط القنصل في إبلاغ الباب العالــي بالتحركات الإنجليزية كان واضحًا. كما أن حســه الديني وانتماءه الوطني للنجه كانا ظاهرين في تلك التقارير.

وقـد تبيـن مـن التقارير الثلاثة الأولـى الآتية أنـه كان تاجرًا من تجار لنجــه، من خلال القيـود الموجـودة في أسـفلها. إلا أن تقريـره الرابع الذي صدر في عـام (١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م) ومن خلال القيد الذي وضعه في أســفل التقرير بين أنه قنصل فخري للدولة العثمانية. وقد تكون هناك تقارير أخري في الأرشيف العثماني، إلا أن الباحث لم يطلع على غير ما أدرجه في هذا البحث، على الرغم من متابعة الموضوع منذ عدة سنوات.

وسوف نورد أدناه تلك التقارير مرتبة بحسب تسلسها التاريخي:

١- التقرير الأول: برقية بعثها محمد بن عبد الله بصفته أحد تجار لنجة ووكيل شركة خاصة، وذلك في ٧تموز ٣١٤(رومي/ ٣٠ سـفر١٣١٦هـ/ ٢٠ تموز١٨٨٩م). وقد طلب فيها الباب العالي إرسال خطاب إلى الشيخ محمد بن خليفة وآخر إلى السفارة الإيرانية في اسطنبول، حتى لا يقع على أهالي لنجه، بسبب الصراع الدائر بين الطرفين، بعد استيلاء الشيخ محمد بن خليفة على لنجه. ونصها:

لحضور حضرة جناب الصدارة العظمي

فـي ١٤ صفـر ٣١٦ (ا هـ/تمـوز١٨٩٨م) الشـيخ محمد بن خليفة اسـتولي علـى بلدة لنجه وضبطهــا دون ضرر لأحد من الأهالي والسـرباز (السـركال). وعمـوم الأهالي انقادوا له مع الشـكـر. ولا تدري إيش(ماذا) يقع بينه وبين الإيرانيين بعد هذا. فنسترحم تلغراف من دولتكم

---

(١) الأرشيف العثماني، تصنيف I.HR/274/16634

للشـيخ المذكـور، كي لا يقـع ضرر على التبعية العثمانية الموجودين في لنجه . وتسـليمهم الأمنية (أي تأمينهم) على أنفسـهم وأموالهم . وكذا تلغراف لسـفارة إيران باسـتحصال أمر لحكومة العجم(أي إيران) على المحافظة (على أرواح الأهالي في لنجة) فرمان.

٧ تموز ٣١٤ (١رومي/ ٣٠ صفر ١٣١٦هـ/ ١٩ تموز ١٨٩٨م)

أحد تجار لنجه ووكيل أجنته إدارة المخصوص

محمد بن عبد الله حاجا

٢- التقرير الثاني: برقية بعثها محمد بن عبد الله الخاجة ، علي غرار التقرير الأول، في ١٩ تموز ١٣١٤ (رومي / ١٢ربيع الأول ١٣١٦هـ/ ٣٠ تموز١٨٩٨م) . وقد طلب فيه من الباب العالـي للمرة الثانية الشـروع في اتخاذ ما يوفر أمن أهالي بندر لنجة ، بسـبب الصراع بين الشـيخ محمد بن خليفة والسـلطات القاجارية في إيران ، في خضم الأحداث التي شهدتها ، وممانعة القنصل الإنجليزي في توفير الأمن للأهالي. ونصها :

إن الاغتشـاش (الاضطـراب) الـذي ظهر في بندر لنجه قبلاً عرضت لمقامكم السـامي .والأهالـي أمنهم منسـلب، وشـدة من الاضطراب. وأتـى مركب من دولة إيـران، وفيه دريا بكي (أمير البحر) . والآن نتخابر مع الشـيخ محمد بن الشـيخ خليفة ودولة الإنجليز يكره وترفض أن نرسـل استمبوط (سمبوك: قارب حربي سريع) من أبو شهر، لأجل محافظة تبعة (رعايا) الدولة العلية العثمانية. والأمر لكم.

وكيل أجنته (شركة) إدارة المخصوصة بلنجه محمد[1]

٣- التقريـر الثالث :وهـو عبـارة عن برقيـة مطولة بعثها محمـد بن عبد اللـه الخاجه في ٦أغسـطس١٣١٤(رومي/ ٣٠ ربيع الأول ١٣١٦هـ/ ١٨ أغسـطس ١٩٨٩م) إلى الصدر الأعظم . وهذه البرقية أيضًا باللهجة العامية وليست بالعربية الفصحي. وقد شرح فيها ملخص ما دار في لنجة بين الشـيخ محمد بن خليفة وأمير البحر الفارسـي. وبين فيها أيضًـا تضرر أهالي لنجة من ذلك الصراع وأن الإنجليز سـاعدوا رعاياهم في الخروج مـن لنجـه ، بينمـا الأهالي لم يلتفت إليهـم أحد . ومع ذلك فهم قد أخـذوا معهم عزيز أموالهم وتفرقوا في الأطراف : في عمان ودبي والشارقة ومسقط: تخليصًا بأرواحهم وأموالهم من تلك الفتنة التي شـهدها لنجة. وقد ذكر فيها أيضًا بوجود ألف شـخص مسلحين في خدمة الشيخ محمد بن خليفة في لنجة وأطرافها ، جاهزين لخوض غمار

(١) الأرشيف العثماني، تصنيف HR.MTV. 722/51

الحرب إذا ما قامت السلطات الإيرانية بإعلان الحرب عليه. مشيرًا في نهاية التقرير بضرورة تدخل الدولة العثمانية في ذلك الصراع ولاسيما أنه تحمل عنوان الخلافة الإسلامية التى يجب عليها الدفاع عن المسلمين أينما كانوا؛ حتى لا يخرب البندر بعد أن غادروه أهله، ولم يبق فيه سوى ثلاثمائة شخص. ويبدو أن الدولة العثمانية استجابت له، فعينته قنصلاً فخريًا، كما تتضح من التقرير الرابع.

ونص البرقية:

"إلي حضور حضرة الصدارة العظمى"

بعد استيلاء الشيخ محمد (بن خليفة) على لنجه بتاريخ ٣ربيع الأول (قدم) من أبوشهر إلى لنجه برس بوليس غانبوط (غاليوط) الحضرة الشاهانية إيران (أي قدم قارب حربي لشاه إيران) دفعه حاجي أحمد خان دريا بكي (أمير البحر) وتورده بواسطة معتبرين أهالي البلد صارم(صارت) المحاربة فيها بين دريا بكي والشيخ محمد علي أجلاه من القعلة. والمذكور الشيخ محمد جاوب دريابكي(قائلاً) أنه أتي ليس عاصيًا على الدولة، والقلعة هذه بيتي المسكني وحرم آبائي وأجدادي. والآن ما بقي في حالي شي. ولم أزل أنا وتوابعي على خطر. وفي وجل عظيم. فهذا الاضطرار (جعلني) أجيز دخول البلد. والآن قطعيًا ما أنزل من القلعة. هذا حرم(حرام) وأنا في حماية الله تعالي ثم في حماية الدولة. وهذا بيراقها (علمها) منشور على رأسي. و(لماسمع) دريا بكي هذا الكلام من الشيخ وعدم نزوله من القلعة أو عده بمواعيد. وفي ٤ ربيع الأول من الشهر يوم الحد الفضل ورد غانبوط (غاليوط) دولة الإنجليز المسمى اسكبي بن أبو شهر. وأول نتيجة نتجت من قبل كل حركة ركزالعودة(العود) علںى بيت وكيله، ونشر بيراق دولة الإنجليز. وقيل هكذا مع وجود وكلائهم من سالفة الزمان، ما نشر هكذا البيراق قطعيًا. وبعد ذلك دريا بكي أعلن على القبطان اسكبس بخروج تبعة الإنجليز من البلد، وأنه يطلق الأطواب (جمع طوب، أي المدفع) بحرًا من برنس بوليس على البلد، وبحرب القلعة. وقبطان اسكبس أعلن على توكيله في البحر في البر (أن) يعلن إلى تبعية (أي الرعايا الإنجليز) بالخروج ليلاً قبل الصباح، والوكيل أعلن إلى تبعية الإنجليز بالخروج، والذي لم يكن كمن خروجه عاجلاً يدخل بيت الوكيل تحت البيراق ومنزل عسكر من اسكبس وتحت بالبيت لمحافظه، وعملوا السياسة لمصالحهم، وتبقوا بالهلاك، وتأسفوا على مطانهم (لعل: مظانهم) وفراق من أزلهم، ومفرقة(مفارقة) بعض الأهالي في السفائن بحرًا والفقراء برًا وأصحاب الأحمال الثقيلة من التجار المعتبرين، وتجرأوا في أمورهم لعدم السعة، فنقل الأهالي وتحميل أموالهم وضيق الوقت والليل ولا

يفرقوا ما يحدث من الشيخ (محمد بن خليفة) ومن دريا بكي(أمير البحر) لما شاهد وحامت الأمور متوقف عن ما علنه(أعلنه) سابقًا. وذلك النهار الساعة ثماني عربي سافر من لنجه(إلي) بندر عباس والجاش(بحارة)، ويرجع (إلى) لجنه . ومع رجوعه ما ندري ما يحدث من الاغتشاش.

٤- التقرير الرابع: بعثه محمد بن عبد الله الخاجة في (١٧محرم ١٣٢٣هـ/ ٢٤مارس ١٩٠٥م). وهو مثل سابقاته باللغة العربية العامية . وقد شرح فيه ما قام به القنصل الإنجليزي المقيم في بوشهر من أعمال في البحرين ضد الشيخ علي بن أحمد بن علي آل خليفة، من نهب لممتلكاتها وإقامة العساكر في منزله، بعد أن فر الشيخ إلي قطر ولم يتمكن القنصل الإنجليزي من القبض عليه . ولم توضح البرقية سبب رغبة ذلك الشيخ علي، وأنه أخذها إلى عدة جهات لبيعها ؛ تنكيلاً به . ونصها :

"حضرة أفندينا ذي الأكرام ذي الدولة نظارة الجليلة الخارجية "

(وزير الخارجية الجليلة)

أعرض لمقامكم المقدس العالي من مدة شهر واحد قبل الآن جنرال قنصل دولة الإنجليز المقيم في بوشهر وصل البحرين . وبرفقته ثلاثة أساطيل (سفن) إنجليزية. وطلب من الشيخ عيسى بن علي شيخ البحرين أن يقبض له على ابن أخيه الشيخ على بن أحمد بن علي، ويسلمه له بلا سبب. فأبي الشيخ عيسى عن ذلك الطلب، ولا قبل . حيث إنه لم يجد لذلك سببًا، ولم يقدر قبضته خوفًا من وقوع الفساد والاغتشاش في البحرين .فلما أحس الشيخ على بن أحمد بهذه المادة(أي الموضوع) فر من البجرين خوفًا على نفسه. والتجأ عند الشيخ جاسم(قاسم بن محمد)الثاني (آل ثانى) في قطر. وجنرال القنصل المذكور لما بلغه هذا الخبر شدد الأمر على الشيخ عيسى بن على ووبخه، ونزل من الأسطول وبمعيته مقدار خمسين نفرًا من عسكر الإنجليز، مكملين (أي مجهزين) السلاح. وهجموا جبرًا علي (أي منزل) الشيخ علي بن محمد أحمد واعتصب (أي نهب) جميع ما كان في البيت من ذهب وفضة وحلي ونحاس وأسلحة وأواني وصناديق وأسرة، وكشفوا على النساء وفتشوا عليهم ولم يحترموهم . واعتصبوهم الخيل والإبل وجميع الحيوانات وستة سفن بين صغار وكبار، ومقدار ألفين (هنا كلمة غير واضحة) واثواب النسوان وأثاث البيت كله، ولا يبقى لهم حاجة الذي يستنفعون بها. وحملة الجميع في بوابير(سفن) البوسطة(البريد) إلي بندر بوشهر والكويت ومسقط ؛ لأجل البيع . وأحرق السفن في البحرين . ونساء الشيخ علي بن أحمد خرجوا من البيت، وراحوا في بيت الشيخ عيسى بن علي. وجنرال قنصل المشار إليه ضبط

بيت الشيخ أحمد بن أحمد، وحطا (وضع) فيه مقدار خمسين نفرًا (من) عسكر الإنجليز، وخلا(أي أبقى) عندهم أسطولا(سفينة واحدة) في البحرين ؛ لأجل المحافظة وبنفسه رجع العبد العاجز بعرضه لمسندكم العالي، ولطفًا يلتمس العفو أفندم.حرر في ١٧من شهر محرم١٣٢٣(هـ/٢٤مارس١٩٠٥م)

العبد العاجز الأقل شهبندر فخري لنجه: محمد بن عبد الله الخاجه (الختم)" [1].

٥- التقرير الخامس:بعثة محمد بن عبد الله الخاجه في (١٥صفر١٣٢٣هـ/٢٠أبريل ١٩٠٥م). وهو مثل سابقاته باللغة العربية العامية . وقد أشار فيها إلى العلاقات الثنائية الممتازة التي كانت تربط بين الإنجليز والسلطات الإيرانية . حيث ذكر باتفاقهم على بيع الإيرانيين أراضي للإنجليز في بندر بن عباس، ورغبتهم في الحصول على قرض من الإنجليز، بغية دفع ديون الروس واستلام الجمارك منهم، وتسليمها للإنجليز، ونصه:

" حضرة أفندينا الأكرم ذي الدولة ناظر الجليلة الخارجية "

(وزير الخارجية الجليلة)

أعرض لمقامكم المقدس بتاريخ ثامن (الـ) ثامن الشهر صفر الجاري قد ورد علي لنجه أدميرال (أمير البحر) في دولة الإنجليز من مومباي، وبمعيته خمس أساطيل حربية، وتواجه (توجه) مع دريا بكي (أمير البحر) حاكم بنادر وجزائر فارس، وتبادلا من المراسم الودادية (الود) ما هو لائق في شأن الدولتين. ومع مجيء الأدميرال المذكور من مومباي قد دخل مسقط والشارجة (الشارقة) من أحد بنادر عمان، وأظهر لهم المحبة والصداقة . وفي عاشر من شهر صفر الجاري سافر من لنجه إلى جزيرة هانجام وجزيرة هرمز. ولابد (أن) يدخل بندر عباس،ومنها يسافر إلى جهة الهند .ودولة الإنجليز قصدها (من تلك الزيارة) أن تبتاع من دولة الإيران أحد عشر ألف ذراع (من) الشاه من الأرض في بندر عباس. ودولة الإيران قد قبلت ذلك، واعدة دولة الإنجليز بإعطاء الأرض لها. وعرفت (ذلك من) دريا بكي من هذه الخصوص. ودريا بكي في أحد عشر من (الـ) شهر الجاري سافر من لنجه في (بـ) السفائن الشراعية إلى جزيرة هنجام . ومنها يتوجه إلى بندر عباس . حسب الإشعارات المخيفة أن دريا بكي بهذه الأيام من بندر عباس يتوجه على كلكته. والشاه زاده (أي ابن الشاه) إجلال الدولة ابن ظل السلطان متعين لحكومة البنادر وجزائر فارس. ويحتمل أنه يصل إلى بندر بوشهر . وهذه المواد ما تخلوا من الأمور السياسية بين دولة الإيران والإنجليز . يحتمل أن

(١) الأرشيف العثماني، تصنيف HR.SYS. 114/46

هذه المواد من جهة الجمارك قصدهم يأخذون القرض من دولة الإنجليز ويسلمون إلى دولة الروسيا، ويسترجعون منهم الجمارك، ويجعلون في تصرف الإنجليز. والله أعلم بحقيقة هذه الأمور بعد هذا، مع أخذ الحقائق والصحة، يعرض العبد لمقامكم العالي لطفًا يلتمس العفو منا (مما) تجاسر بعرضه. والأمر لولية أفندم.

حرر في ١٥ الخير ١٣٢٣(هـ/٢٠أبريل ١٩٠٥م) العبد الأقل لنجه فخري شهبندر (القنصل الفخري للدولة العثمانية في لنجه) محمد بن عبد الله الخاجة(الختم)"[1].

٦- التقرير السادس: وهو بخلاف التقارير السابقة باللغة العثمانية. بعثه محمد بن عبد الله الخاجة إلى عزت باشا، الكاتب الثاني للسلطان عبد الحميد الثاني في (٣٠ ذي القعدة ١٣٢٥هـ / ٤يناير١٩٠٨م). وقد تضمن هذا التقرير معلومات عن أهالي الإمارات العربية، ونظرتهم الإيجابية إلى الدولة العثمانية، وما يجب على الدولة العثمانية القيام بها في منطقة الخليج؛ حتى تستعيد نفوذها بين الأهالي. وقد اقترح فيه القنصل منح بعض الأوسمة لشيوخ الإمارات؛ بغية استمالهم نحو الدولة العثمانية؛ بعدها الخلافة الإسلامية. ولأجل استجابة السلطات العثمانية في إستانبول للطلب، أرسل القنصل المذكور معروضًا آخر إلى عزت باشا في (٨ ذي الحجة ١٣٥٢هـ/١٢يناير١٩٠٨م)، أي بعد أسبوع واحد من معرضه الأول، فوائد تسيير السفن العثمانية للملاحة في منطقة، ليس فقط في استمالة قلوب الأهالي الطيبين نحو الدولة العثمانية، بل لوجود فوائد مادية أيضًا من نقل البضائع والمسافرين إلى مختلف الموانئ، سواء في الخليج العربي أو الموانئ الهندية، مشيرًا إلى أن أجرة النقل حتى لو كانت فوق أجرة السفن الإنجليزية فإن الأهالي سوف يرجحون استخدام السفن العثمانية على غيرها من السفن الأجنبية، ولاسيما السفينتين العثمانيين اللتين قدمتا إلى الخليج العربي بالأعلام العثمانية، قد أدخلت السرور في قلوب الأهالي.

وفيما يلي الترجمة العربية للتقرير السادس:

(١) الأرشيف العثماني، تصنيف HR.SYS. 114/46

قنصلية الدولة العلية العثمانية في لنجه الرقم ٦٣

إلى جانب عزت باشا، الكاتب الثاني لحضرة جناب السلطان

سيدي صاحب الدولة؛

إن أهالي البر والبحر من الخليج الفارسي[١] وجزيرة عمان الواسعة التى تتشكل من أهل السنة والجماعة، طيبون في خلقهم وطبائعهم، أهل صدق في مسلكهم، بعيدون كل البعد عن الحيل والخديعة، ليس للتمدن الشيطاني نصيب فيهم، ولهم رغبة أكيدة في الخلافة العظمي، وعلى وجه الخصوص لجناب سلطان السلاطين. الدمعة التى تسقط من عيونهم أثرًا من ذلك الشوق والرغبة، وتشكل مجري كبيرًا من الماء كالبحر المتلاطم. وقد افتتحت قنصلية فخرية للدولة العلية في موقع لنجة منذ عدة سنوات بأمر سلطاني، ووضع عليها العلم العثماني الذي يموج مع الخليج وتتنور العيون به. ويمسح أولئك الأهالي عيونهم بالظل الذي يعكسه ذلك فينعشون بذلك. بل إنهم يرون أن نطق اسم الخليفة على غير وضوء مخالف للآداب. وهذا في الحقيقة يبين مدي إخلاصهم، ويوضح هوية اعتقادهم في الخلافة العظمي. وفي خضم السياسة العالمية الجارية حاليًا في الخليج الفارسي وفي سواحل عمان، تقوم الدول المعروفة[٢] بتسيير سفنها بشكل منظم ودون أي انقطاع؛ بغية استمالة الأهالي وإيقاعهم في مخالب شرورهم. وفي مقابل ذلك فإن عدم رؤية الأهالي للسفن العثمانية يؤدي بهم إلى الحزن والأسى الشديدين. والنقطة البادية لذلك الخليج يبدأ من الموقع الذي يسمى بالكويت والمناطق المجاورة له في الخليج البصرة. وهو من ممالك الدولة العلية كما لا يخفى عليكم. وبناءً على ألأن بندر عباس وبوشهر ولنجه والقرى مختلفة الأسامي الموجودة في اليمين واليسار وفيما بعدها تابعة للحكومة الإيرانية، ونظرًا لكون أهالي هذه المنطقة من أهل السنة والجماعة، فهم لا يتجرأون من إبراز نسبتهم إلى الخلافة العظمي الإسلامية جهرًا؛ خوفًا من الحكومة الإيرانية. إلاأن كل فرد منهم وفي كل فرصة سانحة يدلي - بما تدور به لسانه- بالحديث عن خضوعه للسلطنة السنية وتفانية في سبيلها مالاً وبدنًا. وهذا الإخلاص منهم تجاه الدولة العلية وشوقهم إليها معروف لدي الجميع. وهذا الوضع يحير الأجانب كافة ويغيظهم. ولذلك وبغض النظر عن تفريعات ذلك وتفصيلاً، فإن أهالي الخليج جاهزون في كل وقت لإبراز حسن نيتهم واثار محيتهم تجاه

---

(١) يستخدم العثمانيون الخليج الفارسي حينًا وخليج البصرة أحيانًا والخليج العربي حينًا آخر. والقصد من كل تلك المسميات واحد، كما يتضح مما ورد في الوثيقة وهو الخليج العربي وأهل الإمارات العربية المتحدة على وجه الخصوص.

(٢) وهي الإنجليز بالدرجة الأولي، ثم الروس والفرنسيين وإيران وغيرهم. أبو ظبي: توحيد الإمارة الاتحاد/ عبد العزيز عبد الغني - أبوظبي: مركز الوثائق والبحوث، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م. صفحة ١١٩.

جناب الخليفة، ولذلك فإن المطلوب من جناب السلطان عطف عنان الرحمة لأصحاب الاشتياق من هؤلاء الأهالي القاطنين في الساحل العماني الملاصق برًا بمكة المكرمة، وبحرًا بقضاء قطر في سنحق نجد. علمًا أن الإنجليز لا يتأخرون ولو للحظة واحدة في حبك آلاف السياسات والحيل والدسائس تجاههم، متمنين من الأهالي والمشايخ بالسماح لهم في الموافقة على رفع الأعلام الإنجليزية، ويبذلون قصاري جهدهم في الوصول إلى بغيتهم، ويوزعون لذلك أنواعًا من الهدايا والخلع والنقود. وعلى الرغم من ذلك فإن الأهالي المتدينون يأتون حتى إلى مقر القنصلية (العثمانيون)، واضعين الأعلام العثمانية على سفنهم الشراعية؛ وبحسب الآية الكريمة "ومن يتولهم منكم فإنه منهم" فإن هؤلاء الأهالي سليمي الاعتقاد، الذين لم يبق فيهم أحد غير مسلح؛ أسد قلوبهم نمور ميراجهم، منتفرين من كافة العباد ومبتعدين عنهم، ملجئين فقط إلى الخلافة الإسلامية الكبرى ومنتظريها، كما سبق أن بينت ذلك لسفارة الدولة السنية في طهران في مختلف المناسبات. حتى لا ييأس هؤلاء الأهالي الموحدون في المذهب الواحد وفي الكيان الواحد، ولا يصابون بالضعف والفتور في شوقهم إلى المستقبل المأمول والاعتماد عليه، فإن عدم الرد من السفير المذكور ومن أصحاب المناصب على ما يجب على الدولة العلية القيام به من تقديم المساعدات المادية والمعنوية إليهم حسب المصلحة العامة والظروف المواتية، سوف يزيد من ذلك الضعف والفتور. وبما أن السفير المذكور شمس الدين أفندي مطلع عن كثب على أعمال الأجانب ونفوذ الأعداء، دون أدنى شك، وبالنظر لكون هؤلاء الأهالي (الخليجيين) إخواننا في الدين، ومعدودين من بريو مكة المكرمة، ومجاورين لقضاء قطر من البحر، وبما أن إلقاءهم في صحيفة النسيان غير متوائم وشأن جناب الخليفة وينافيه، ونظرًا لأن هؤلاء الأهالي الوديعة الكبرى في أعناقهم، وهم لا يفتؤون يطلبون مقدم سفينة عثمانية إلى جزرهم؛ حتى تقر بهم عيونهم وقد شاهدنا بحمد الله - تعالى - ليس مقدم سفينة واحدة وإنما العديد من السفن المشعشعة والمهيبة إليها في هذه الأيام، فإن رد طلبهم المنافي لمرضاة جناب الخليفة، سوف يخل بنظرتهم الإسلامية (إلى الدولة العثمانية) كما لا يخفى. والحقيقة أن الجهد الذي أقدم على بذله في ليلي ونهاري، منصب كله في استمالة قلوب هؤلاء وغيرهم. ولذلك فإن قبول مطلبهم واستجابة رغبتهم، سوف يزيد من دعوات الخير لديهم إزاء الخلافة العثمانية التى تشكلت بالدولة المحمدية والسلطنة الأحمدية، مادامت السماوات والأرض، كما يزيد في هؤلاء الأهالي من اجتماعاتهم في العديد من المواقع في كل يوم جمعة؛ لذكر مولد النبي ﷺ والذبح (لله تعالى)؛ لإطعام المساكن والفقراء وتلاوة القرآن الكريم، كما اتضح لنا ذلك من خلال مراقبة أوضاعهم والتى لم نغفل عنها ولو لحظة واحدة.

الخاتمـة

بينـت التقاريـر التـى رفعهـا القنصل الفخـري للدولـة العثمانية في لنجـة محمد بن عبد اللـه الخاجة مجموعة من الأمور السياسـية والاقتصاديـة والاجتماعية في الخليج العربي في الفتـرة التـي بعث فيها تقاريره . ففي الوقت الذي تحـث التقارير الأول عن طلب القنصل في إرسـال البـاب العالـي لخطابين إلى الشـيخ محمد بن خليفة والسـفارة الإيرانيـة ، بغية عدم التعرض لأهالي لنجة في الصراع الذي وقع بين الطرفين ، ذكـر التقرير الثاني طلب القنصل المذكـور فـي توفير الأمـن لأهـالي لنجة في ذلك الصـراع المحموم على النفوذ بين الشـيخ خليفة والسلطات الإيرانية . وقد ذكر في التقرير الثالث أن الإنجليز سـاعدوا رعاياهم في الخروج من البندر بأمن وسلام وأن أهالي البندر الأصليين لم يلقوا تلك المساعدة من أحد ، مـا أدى إلـى تكرار طلبـه من الباب العالي في توفير الأمن للباقيـن من أهل لنجه في البلد ، حتـى لا يتعـرض البندر للخراب. وهذه التقارير الثلاثة توضـح بجلاء مدى تفاني القنصل في حبه للنجه وأهلها وسعيه الحسيس في توفير الأمن والسلامة لهم من أي أعتداء. أما التقرير الرابع فقد تناول ما قام به القنصل الإنجليزي المقيم في بوشهر من أعمال في البحرين ضد الشيخ علي بن أحمد بن علي آل خليفة ، من نهب لممتلكاته ، وأقامت العساكر في منزله ، بعـد أن فر الشـيخ إلى قطر ولم يتمكن القنصـل إنجليزي من القبض عليهم . وهذا التقرير يوضح طرفًا من سياسة الإنجليز تجاه الأهالي في الخليج ، ولاسيما إذا أعترض أمرًا صادرًا من القنصل أو المسـئول الإنجليزي في المنطقة ، فالويل له . كما الأمر في الشـيخ علي بن أحمد آل عيسـى وتحدث التقرير الخامس عن العلاقـات الثنائية الممتازة التى كانت تربط بين الإنجليز والسلطات الإيرانية . حيث ذكر باتفاقهم على بيع الإيرانيين أراضي للإنجليز في بندر عباس ورغبتهم في الحصول علي قرض من الإنجليز ، بغية دفع ديون الروس واستلام الجمارك منهم ، وتسـليمها للإنجليز وعلى الرغم من أهمية تلك التقارير في توضيح جوانب من تاريخ الخليج العربي الحديث ، فإن التقرير السادس قد بين عدة أمور مهمة ، تتعلق ببعض الأوضاع السياسية والاجتماعية للإمارات العربية في تلك الفترة . وتلك المعلومات ، تعكس وجـه نظر معدها القنصل المشـار إليـه إلى أهالي الأمارات وحكامهـا وكذلك إلى الدولة العثمانيـة وخلافاتهـا . وهـي وجهة نظر إيجابية ، ترمـى إلى توثيق علاقـات الدولة العثمانية بالحـكام المذكورين من خلال اسـتمالتهم إليها ، في خضم التحركات الإنجليزية ، على وجه الخصوص ، في الخليج العربي. ويمكن تلخيص تلك الأمور في الأتي:

١- إن أهالي الأمارات العربية من أهل السنة، المذهب الرسمى للدولة العثمانية. وأنهم طيبون في أخلاقهم، مستقيمون في طباثعهم، صادقون في مسلكهم، باعدون عن الحيل والدسائس. وأن لهم رغبة أكيدة في الارتباط بالخلافة العثمانية، كما هو كذلك شأن أهالي الساحل الشرقي للخليج العربي، في كل من بندر عباس وبندر بوشهر ولنجة.

٢- أنما تقوم به الدول الأجنبية في الخليج من أعمال سياسية، غير مقبولة لدى الأهالي، الذين لا يرغبون في وجود هؤلاء فيما بينهم، ولا سيما الإنجليز. وأن عدم سير السفن العثمانية في الخليج مدعاة لدى الأهالي للحزن والأسى.

٣- عدم رغبة الأهالي رفع الأعلام الإنجليزية على سفنهم، على الرغم من الضغوط الشديدة عليهم من الإنجليز، الذين يقومون بحبك الحيل والدسائس ضد هؤلاء الأهالي الطيبين.

٤- أن عدد السكان في كل من أمارة أبوظبي، ودبي، والشارقة، ورأس الخيمة، وأم قوين، يتكون من خمسة الآف نسمة تقريبًا.

٥- أن القنصل المذكور أقترح بمنح شيوخ الأمارات أوسمة عثمانية، لتوثيق العلاقات معهم وقد عد القنصل الوقوف مع هؤلاء الحكام ضد السياسات الأجنبية في المنطقة واجبًا دينيًا للدولة العثمانية، عليها القيام بها[1].

---

(١) د. سهيل صابان: علاقة سكان الخليج العربي بالدولة العثمانية من خلال بعض التقارير العثمانية(١٢٨٨-١٣٢٥هـ/ ١٨٧١-١٩٠٧م) بحث منشور في مجلة الخليج للتاريخ والآثار، العدد الثالث، ربيع الأول ١٤٢٨هـ أبريل ٢٠٠٧م صفحة ٦٩-٩٠.
وقام بمراجعته وتدقيقه الأستاذ الدكتور عبد اللطيف الحميدان أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بقسم التاريخ، كلية الآداب جامعة الملك سعود.

تعليق:

تأكيداً للجهد الذي بذله الدكتور سهيل صابان عضو هيئة التدريس بقسم التاريخ، كلية الآداب جامعة الملك سعود في الحصول علي هذه التقارير العثمانية عن علاقة سكان الخليج العربي بالدولة العثمانية من خلال رجالها في المنطقة في فترة ذات أهمية كبيرة في تاريخ الخليج العربي وتاريخ الوطن العربي بصفة عامة، وهي فترة بداية حملة مدحت باشا إلى الأحساء عام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م.

وتثميناً لهذا الجهد المشكور من الدكتور سهيل صابان رأينا أن نسجله في مؤلفنا عن الإستراتيجية العثمانية في منطقة الخليج العربي حتى يمكن الاستفادة منه، خاصة أن الدكتور سهيل أورد تقارير وثائقية من الأرشيف العثماني بتصنيفاته الأكاديمية الواضحة والدقيقة، وبهذا يعتبر هذا البحث إضافة للدراسات التاريخية الحديثة والمعاصرة بالنسبة لتاريخ الدولة العثمانية وعلاقتها بالأقطار العربية بصفة عامة والأقطار الخليجية بصفة خاصة.

وقد احتوى بحث الدكتور سهيل صابان على مقدمة تتناول الوثائق العثمانية المتعلقة بالخليج العربي حتى عام ١٩٠٩م - وهو عام انتهاء حكم السلطان عبد الحميد للدولة العثمانية، منها فتح قنصلية عثمانية في بوشهر. وخطاب القنصل العثماني في بومباي بالهند، وتقارير القنصل العثماني الفخري في "لنجة".

كما احتوى البحث على استعراض لمحتويات ستة تقارير عثمانية، أولها برقية من أحد تجار "لنجه" إلى الباب العالي، ثانيها برقية مماثلة من نفس التاجر، وثالثها برقية من نفس التاجر إلى الباب العالي، ورابعها برقية مماثلة من نفس التاجر إلى الباب العالي في تاريخ لاحق، وخامس التقارير برقية للصدر الأعظم في اسطنبول من التاجر نفسه من "لنجه" وسادس التقارير من نفس التاجر محمد بن عبد الله الخاجة نفسه القنصل الفخري للدولة العثمانية في لنجة إلى عزت باشا الكاتب الثاني للسلطان عبد الحميد الثاني في يناير ١٩٠٨م. وختم الباحث دراسته بخاتمة علق فيها على هذه البرقيات المحفوظة في الأرشيف العثماني باسطنبول؛ ليؤكد الروابط الإسلامية بين الدولة العثمانية وعرب الأقطار الخليجية.

المصادر والمراجع العربية

١. عبد العزيز عبد الرحمن الشعيل: الوجود العثماني في منطقة الأحساء، ١٨٧١ - ١٩١٤م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٩٨٨م.
٢. كمال قارباط: الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، المبحث الرابع من كتاب دراسات في التاريخ العثماني ترجمة وتعليق دكتور سيد محمد السيد دار الصحوة، القاهرة، ١٩٩٦م.
٣. يوسف كمال بك حتاحة، ود. صديق الدملوجي: مدحت باشا: حياته - مذكراته - محاكمته، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٢م.
٤. عباس الغزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ٨ أجزاء، بغداد ١٩٤٩م.
٥. د. عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث من نهاية داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا، القاهرة، ١٩٦٨م.
٧. د. رأفت غنيمي الشيخ: تاريخ العرب الحديث القاهرة، ٢٠٠٠م.
٨. د. رأفت الشيخ: أفريقيا في التاريخ المعاصر، القاهرة، ١٩٩٠م.
٩. أحمد بن ماجد: ثلاث أزهار في معرفة البحار، تحقيق ونشر تيودورشوموفسكي، ترجمة وتعليق د. محمد منير مرسي، عالم الكتب القاهرة، ١٩٦٩م.
١٠. لوريمر: دليل الخليج - القسم التاريخي، ترجمة الديوان الأميري لقطر، الدوحة.
١١. محمود بهجت سنان: البحرين، درة الخليج العربي، دمشق، ١٩٦٢م.
١٢. خالد العزي: الخليج العربي في ماضيه وحاضره، بغداد، ١٩٧٢م.
١٣. محمود علي الداود: أحاديث عن الخليج العربي، بغداد، ١٩م.
١٤. د. حسين مؤنس: الشرق الإسلامي في العصر الحديث، القاهرة، ١٩٦١م.
١٥. د. أحمد أبو حاكمة: تاريخ شرقي الجزيرة العربية، بيروت، ١٩٦٥م.
١٦. د. مديحة درويش: تاريخ الدولة السعودية.
١٧. د. رأفت غنيمي الشيخ: العرب دراسات في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة، ١٩٨٣م.
١٨. حسين بن غنام: تاريخ نجد.
١٩. د. محمد مرسي عبد الله: إمارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى.
٢٠. أرنولد ويلسون تعريب عبد القادر يوسف: الخليج العربي.
٢١. د. عبد الرحيم عبد الرحمن: الدولة السعودية الأولى، القاهرة، ١٩م.
٢٢. خير الدين الزركلي: شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز.
٢٣. عثمان بن بشر: عنوان المجد في تاريخ نجد.
٢٤. محمد بن عمر الفاخري: دراسة وتحقيق د. عبد الله بن يوسف الشبل: الأخبار النجدية.
٢٥. محمد بن عبد الله الأنصاري الإحسائي: تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد، ط٢، الرياض، ١٩٨٢م.
٢٦. فيلبدي، تعريب عمر الديراوي: تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية.
٢٧. أمين الريحاني: تاريخ نجد الحديث وملحقاته.
٢٨. إلياس الأيوبي: تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا، القاهرة، ١٩٢٣م.
٢٩. محمد عرابي نخلة: تاريخ الأحساء السياسي ١٨١٨ - ١٩١٣م الكويت، ١٩٨٠.
٣٠. د. عبد الفتاح أبو علية: دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، الرياض، ١٩٨٦م.
٣١. د. جمال زكريا قاسم: الخليج العربي، القاهرة، ١٦٦٦م.

٣٢. د. محمد أنيس: الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة.
٣٣. د. أحمد عزت عبد الكريم وآخرون: دراسات في النهضة العربية الحديثة، القاهرة، ١٩٧٦م. د.
٣٤. رأفت غنيمي الشيخ: في تاريخ العرب الحديث، القاهرة، ١٩٧٥م.
٣٥. Longring, Iraq, 1900 - 150.
36. د. مصطفى عبد القادر النجار: التاريخ السياسي لعلاقات العراق الدولية بالخليج العربي، بغداد ١٩٧٥م.
٣٧. د. عبد العزيز المنصور: التطور السياسي لقطر، ١٨٦٨ - ١٩١٦م، الكويت، ١٩٧٥م.
٣٨. د. عبد العزيز عبد الغني: سياسة الأمن لحكومة الهند في الخليج العربي، الرياض، ١٩٨٢م.
٣٩. جون كيلي، بريطانيا والخليج، مسقط، ١٩٧٩م.
٤٠. أمين سعيد: الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة.
٤١. د. عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ٤ أجزاء القاهرة.
٤٢. شفيق جحا، منير البلعبكي، بهيج عثمان: المصور في التاريخ، دار العلم للملايين، بيروت.
٤٣. محمد سهيل طقوس: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة.
٤٤. محمد بك فريد: تاريخ الدولة العلمية العثمانية، تحقيق دكتور إحسان حقي، ٢٠٠٦م.

الوثائق:

([١]) الأرشيف العثماني بإستانبول، وثائق الباب العالي، قسم رئاسة الوزراء، وثائق خاصة بمخصصات آل رشيد وأعيان جبل شمر، نظارة الخزينة، دائرة التحريرات، رقم ٧٦٧، بتاريخ شوال ١٣٢٢هـ.
([٢]) الأرشيف العثماني بإستانبول، وثائق الباب العالي، بخصوص الإرادة السنية الصادرة في ٢٤ رمضان ١٣٣٤هـ، رقم ١٢٣٨، موجهة إلى نظارة الحربية الجليلة بشأن تعيين الأمير سعود بن رشيد باشا قائدًا عامًا للقوات في منطقة نجد.
([٣]) ج. ج. لوريمر (ب. ت)، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج١، طبعة جديدة معدلة ومنقحة أعدها قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو أمير دولة قطر، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، ص٥٧٢.
([٤]) د. أبو علية، عبدالفتاح حسن، النقود والموازين والمقاييس في سنجق الحسا في العهد العثماني ١٨٧١ - ١٩١٣م؛ قدم هذا البحث إلى المؤتمر العالمي الأول للجنة العربية للدراسات العثمانية (A. C. O. S) المنعقد في تونس في المدة من ٢٠ - ٢٦ يناير ١٩٨٤م.
([٥]) للاطلاع على سير الوقعة ونتائجها ارجع إلى الريحاني، أمين (١٩٨٨م) تاريخ نجد الحديث، دار الجيل، بيروت، ص ص١٤٠ - ١٤٧.
([٦]) من خطاب الأميرالاي التركي العثماني حسن شكري إلى الأمير عبدالعزيز آل سعود، مؤرخ في ١٠ ربيع الآخر ١٣٢٢هـ، انظر ذلك تفصيلاً في الزركلي، خير الدين (١٩٨٥م)، شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز، ج١ دار العلم للملايين، ص ص١٥٥ - ١٥٦، وذلك نقلاً عن مخطوطة تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق للشيخ عبدالله بن عبدالرحمن آل بسام، ولدينا صورة من هذه الرسالة من خلال ما أورده الشيخ آل بسام. وورد نصها في جريدة اللواء، بتاريخ غرة رجب ١٣٢٢هـ.
([٧]) ورد نص هذه الرسالة في جريدة اللواء، بتاريخ غرة رجب ١٣٢٢هـ، وقد أوردها الزركلي في كتابه شبه الجزيرة، ج١، ص ص١٥٧ - ١٥٨، نقلاً عن مخطوطة تحفة المشتاق للشيخ عبدالله ابن عبدالرحمن آل بسام. ولدينا صورة عن هذه الرسالة من خلال ما أورده الشيخ آل بسام.

([٨]) من الرسالة نفسها.
([٩]) من الرسالة نفسها.
([١٠]) الزركلي، شبه الجزيرة، ج١، ص١٦٤.
([١١]) الريحاني، تاريخ نجد، ص ص١٤٨ - ١٤٩.
([١٢]) صورة التحريرات الواردة من متصرفية نجد: إرادة عسكرية رقم ١٦ في٢٧ محرم سنة ١٣١٠هـ.
([١٣]) جدول الإحصائيات: إرادة عسكرية رقم ١٦ في٢٧ محرم سنة ١٣١٠هـ.
([١٤]) صورة التحريرات الواردة من وكالة معاونيه قائمقام قضاء قطر: إرادة عسكرية رقم ١٦ في٢٧ محرم سنة ١٣١٠هـ.
ـ وهذه الوثائق مترجمة إلى العربية ومحفوظة بقسم الوثائق بالديوان الأميري بالدوحة.

٤٥. الريحاني، تاريخ نجد، ص١٤٩.
٤٦. الزركلي، شبه الجزيرة، ج١، ص١٧٣.
٤٧. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج١، ص٥٠.
٤٨. الريحاني، تاريخ نجد، ص١٤٩.
٤٩. الريحاني، تاريخ نجد، ص١٤٩.
٥٠. الزركلي، شبه الجزيرة، ج١، ص١٧٣.
٥١. الريحاني، تاريخ نجد، ص ص١٤٩ - ١٥٠.
٥٢. الريحاني، تاريخ نجد، ص١٥٠.
٥٣. لمعرفة المزيد عمّا دار من مناقشات حادة بين الملك عبدالعزيز والفاروقي، ارجع إلى الريحاني، تاريخ نجد، ص ص١٦٠ - ١٦١.
٥٤. الريحاني، تاريخ نجد، ص ص١٦١ - ١٦٢.
٥٥. الزركلي، شبه الجزيرة، ج١، ص١٧٤.
٥٦. الريحاني، تاريخ نجد، ص١٦٣.
٥٧. د. جمال زكريا قاسم: الخليج العربي، دراسة لتاريخ الإمارت العربية (١٨٤٠ - م١٩١٤) القاهرة ١٩٦٦.
٥٨. حسين بن غنام: روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الأمام وتعداد غزوات ذي الإسلام، المسمى تاريخ نجد تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد - القاهرة ١٩٦١م.
٥٩. د. سيد نوفل: الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة وهو كتابان مدخل عام ودراسة للكويت، نشره معهد الدراسات والبحوث العربية - القاهرة ١٩٦٧م، والكتاب الثاني يتناول ساحل عمان ونشره معهد البحوث والدراسات العربية أيضًا - القاهرة ١٩٧٢م.
٦٠. د. صلاح العقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي - القاهرة ١٩٧٤.
٦١. شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) - إدارة العلاقات شعبة البحث عمان والساحل الجنوبي للخليج الفارسي - مترجم - القاهرة ١٩٥١م.
٦٢. ديوان الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني وقصائد آخرى نبطية، طبع على نفقة صاحب السمو الشيخ علي بن عبد الله بن قاسم آل ثاني حاكم قطر السابق الطبعة الخامسة سنة ١٣٨٩هـ تحت أشراف دار الكتب القطرية.
٦٣. عبد العزيز المنصور: التطور السياسي لقطر في الفترة ما بين ١٨٦٨ - ١٩١٦م الطبعة الأولى - الكويت ١٩٧٥م.
٦٤. سالدانا (جي. أي) الشئون القطرية من سنة ١٨٧٣ إلى ١٩٠٤م مترجم بقلم أحمد العناني ونشرته لجنة

كتابة تاريخ قطر وطبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى أمير دولة قطر - الدوحة ١٩٧٦م.
٦٥. لوريمـر (ج.ع) دليـل الخليج - القسـم التاريخـي ٧ أجزاء، ترجمة مكتب الترجمـة بديوان أمير قطر - الدوحة ١٩٦٩م.
٦٦. حافظ وهبه: جزيرة العرب في القرن العشرين. طبعة ثانية القاهرة ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م.
٦٧. محمـود شـكري الالوسـي: تاريخ نجـد، حققه وعلـق عليه محمد بهجـت الأثري - االطبعـة الأولى - القاهرة ١٣٤٧هـ.
٦٨. أمين الريحاني: تاريخ نجد الحديث وملحقاته - الطبعة الثانية بيروت١٩٥٤م.
٦٩. إبراهيم أبو ناب: (قطر قصة بناء دولة) الدوحة بدون
٧٠. احمد أبو حاكمة: تاريخ شرقي الجزيرة العربية. القاهرة.
٧١. د. جمال الدين زكريا قاسم: الخليج العربي - دراسات الإمارات العربية (١٨٤٠ - ١٩١٤) القاهرة ٦٦.
٧٢. د. صلاح العقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي القاهرة (١٩٧٤م).
٧٣. د. عبد العزيز المنصور: (التطور السياسي لقطر)(١٨٦٨ - ١٩١٦) الكويت (١٩٧٥).
٧٤. د. عبد العزيز المنصور: (التطور السياسي بقطر)(١٩١٦ - ١٩٤٩) الكويت (١٩٧٩).
٧٥. ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العثمانية (بيروت ١٩٦٠م).
٧٦. محمود شكري الألوسي: (تاريخ نجد) القاهرة (١٣٤٧هـ).

المصادر الإنجليزية:

1. The Encyclopedia Britannica, 14ed, Vol. 51.
2. Finkel, Caroline: Opamś Dream, New York, Basic Books, 2005.
3. Standard jay shaw, Erylialshaw: History of the Ottoman Empire and Modern Turkey.
4. J. J. Norwich (1996): Byrantium, the Decline and Fall, London.
5. Howarth, David, (1964) The Desert King, Ibn Saud and His Arabia, New York, Toronto, London, p. 64.
6. Howarth, The Desert King, p. 65.
7. India Office, L+S/18, No B164, from Townley to Foreign Office, dated on 12th Feb. and 17th Feb. , 1905.
8. Philby, H. St. J. B. , Arabia (1930) London, p. 189.
8. F. O 424, Confidential (9482); Futher Correspondence respecting the Affairs of Asiatic Tuekey and Arabia 217, piceo 68.
9 . Furthr Correspondence respecting the AF – rs of Asiaticurky and Arabia No 217.
10 . Furthr Correspondence respecting the AF – rs of Asiaticurky and Arabia No221.
11. 3 – Furthr Correspondence respecting the AF – rs of Asiaticurky and Arabia No 238.
12. 4 – Furthr Correspondence respecting the AF – rs of Asiaticurky and Arabia No 240.
13 – Lewis bernard : The Emergence of modern Turkey . Oxford University press , 2002 .
14 – Amira K. Bennison , " Muslim Universalism and Western Globalization " in Globalization in world history . (London Pimlico, 2002).

المؤلفون

أ . د . رأفت غنيمي الشيخ

- أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر.
- عميد كلية الآداب جامعة الزقازيق سابقًا.
- مؤسس وأول عميد لمعهد الدراسات الأسيوية.
- مؤسس وأول عميد لكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة قناة السويس.
- مستشار رابطة الجامعات الإسلامية.
- عضو المجالس القومية المتخصصة. رئاسة الجمهورية.
- عضو مجلس إدارة إتحاد المؤرخين العرب.
- عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.
- عضو المجمع العلمى المصري.
- عضو لجان الترقيات بالمجلس الأعلى للجامعات.
- تأليف ٣٦ كتابًا فى التاريخ والدراسات الإسلامية.
- كتابة ١٥٠ بحثًا فى مؤتمرات محلية ودولية.

أ . د . ناجى عبد الباسط هدهود

- أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر.
- وكيل معهد البحوث والدراسات الأسيوية - جامعة الزقازيق.
- رئيس قسم الحضارات الأسيوية بمعهد الدراسات الأسيوية.
- عضو إتحاد المؤرخين العرب.
- عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.
- تأليف ١٠ كتب فى التاريخ الحديث والمعاصر.
- المشاركة ببحوث فى مؤتمرات بمصر وإندونيسيا وتركيا.

د . محمود رمضان

- مدير مركز الخليج للبحوث والدراسات التاريخية - خبير الآثار والعمارة الإسلامية.
- باحث وخبير حاصل على درجة الدكتوراه في الآثار والعمارة الإسلامية، وتخصصه العلمي الدقيق (الآثار والعمارة والفنون الإسلامية في قطر «العمارة الدفاعية الإسلامية).
- عُين خبيرًا للآثار بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث بالدوحة سابقا ، دولة قطر.
- شغل وظيفة خبير ثقافي تاريخي بمجلس شؤون العائلة بدولة قطر أيضًا.
- شغل وظيفة خبير جمع التراث بالمؤسسة العامة للحى الثقافى " كتارا Katara " بالدوحة.
- شغل وظيفة مدير مركز مُسَيْمير للدراسات والبحوث التاريخية بالدوحة. يتولى حاليًا إدارة وتنفيذ ومهام الإشراف على المشروع العلمي الخاص بإعداد دراسة تاريخية وثائقية عن الخليج والجزيرة العربية في وثائق الأرشيف العثماني بإستانبول- تركيا.
- أصدر له ١٦ مؤلف علمى. شارك بمجموعة كبيرة من الأبحاث العلمية محليًا وإقليميًا ودوليًا.
- المراسلات: القاهرة - جوال: ٠١٢٢٣٥٧٢٥٤٠ (+٢). الدوحة - جوال: ٥٥٤٧٦٧٢٣ (+٩٧٤).
البريد الالكتروني: E-mail:dr.mahmoudramadan@yahoo.com

الفهرس

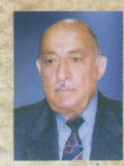


هذا الكتاب

يلقى الضوء على جهود الدولة العثمانية لخدمة الإسلام والمسلمين فى مرحلة هامة من تاريخ الوطن العربي الكبير ، وخاصة منطقة الخليج العربي الذى كان مطمعا لقوى إستعمارية أوروبية ، بداية بالبرتغال ثم هولندا ثم فرنسا ثم أخيرا بريطانيا.

كان للدولة العثمانية الدولة الاسلامية استراتيجية نحو منطقة الخليج العربي تتمثل فى إخلاء هذه المنطقة من القوى الإستعمارية الأوروبية المعادية للشعوب العربية والإسلامية ، ومن ثم دخلت فى صراعات متواصلة مع تلك القوى حتى كانت الحرب العالمية الأولى التى أنتجت خروج الوجود العثماني من منطقة الخليج العربي ليستأثر والوجود البريطانى منفردا بالمنطقة.

وقد رحبت قبائل وشيوخ مشيخات الخليج بالوجود العثماني منذ القرن السادس عشر انطلا الارتباط الإسلامي الذى يربط بين مشيخات العربي والدولة العثمانية ، وكراهية هذه المن للوجود الإستعمارى الأوروبي.


أ. د. رأفت غنيمي الشيخ


د. ناجي عبد الباسط هدهود


د. محمود رمضان



